دكتور عبد المنعم أحمد يونس

كعب بن مالك الأنصاري

حياته وشعره

دراسة تحليلية نقدية

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، واهب النعم ، مجزل العطاء ، يفيض على عباده من خيره ، ويمنحهم من لدنه علما وحكمة . « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » والصلاة والسلام على خير من نطق فأبان ، وتكلم بالحكمة وفصل الخطاب أدبه ربه فأحسن تأديبه ، آية البيان ، ونهاية العلم والتبيان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولى الفضل والاحسان .

وبعد

فلقد أضحى للدعوة الاسلامية صداها العميق بعد هجرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة المنورة ، وتطلع كثير من العرب الى معرفة مبادىء الدين الجديد ، وتفهم تعاليمه وأهدافه ، غير أن مشركى مكة ما لبثوا أن أعلنوا النفير العام لمقاومة الدعوة الاسلامية بقوة السلاح ، ومحاولة اطفاء نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ولقد تعود العرب فى جاهليتهم أن يصحب الحملات العسكرية حملات اعلامية يحمل عبئها الشعراء والخطباء ، وكان لهذه الحملات حصادها المثمر فى مجال الشعر ، فحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، ويوم ذى قار ، وغيرها أثرت الشعر بقصائد ألهبت حماس الجند ، وجعلتهم يقدمون على الحرب غير هيابين ولا وجلين .

والحرب التى دارت بين المسلمين ومشركى مكة لم تكن بدعا من ذلك ، فلقد قام شعراء مكة بانشاد قصائدهم الحماسية التى يهاجمون فيها المسلمين ، ويثلبون أعراضهم ، وتطاولوا على شخص رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من اعترافهم سـلفا بأنه الصادق الأمين .

كان لابد والأمر كذلك من قيام تيار مضـاد يرد على شـعراء المشركين ، وينافح عن أعراض المسـلمين المثلوبة بنفس اللحن الذى اعتاد العرب الضرب على وتره ، فقام الشعراء المسلمون بهـذا الدور الرائد ، فأثروا الشعر الاسلامى بقصائد خالدة ، بقيت حتى يومنا هذا علامة بارزة على طريق الدعوة الاسلامية .

واذا كان القرآن الكريم رد على المشركين فى أكثر من موضع فان المشركين ـ فى ذلك الوقت ـ ما كانوا يتأثرون بالقرآن تأثرهم بقصيدة تقال فيعم صداها جنبات الجزيرة .

وهأنذا أقدم للقراء شاعرا اسـلاميا كان له دوره فى الذود عن حياض الاسلام ، والدفاع عن أعراض المسلمين بسيفه ولسانه ، فكان شـعره يمثل الحماسـة الأصـيلة التى لم تأت من فراغ ، وانما كانت حصادا لتلك المعارك التى خاضها الشاعر تحت راية الاسـلام .

انه الشاعر الاسلامى كعب بن مالك الأنصـارى الذى رأيت أن أنهج فى تقديمه للقراء نهجا يجعلهم يقفون عـلى شعره الاسلامى ، وبخاصة ذلك الشعر الذى قيل فى وصف المعارك الاسـلامية ، والذى سجل فيه كعب خواطره نحو كل غزوة .

ولقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى أبواب وفصـول ، حتى يكون قريبا الى التناول بعيدا عن الشمولية ، فكان لابد من تقديم الشاعر الى القراء فى صورة بيئته التى أثرت فيه تأثيرها العام والخاص ، ثم تقديم شعره تقديما مجملا يجعل القارىء متصورا لأغراض هذا الشعر وجوانبه العامة ، فجاء الباب الأول بعنوان « شاعر وشعر » ، وجاءت

الفصـــول التى انضمت تحت جناحى هذا الباب ، لتصـــور للقارى بيئة المدينة المنورة فى عصر ما قبل الاسلام ، ثم تبرز دور هذه المنطقة فى مسار التيار الأدبى ، ثم وقوفها بعد الاسلام فى وجه المشركين ، فهى المنطقة التى احتضنت الدعوة الاسلامية ، ودافعت عنها دفاع الأبطال، وقد وضعت كل ذلك فى فصل بعنوان « بيئة المدينة المنورة » •

ثم جاء الفصل الثانى معنونا له بعنوان « نسبه وبلاؤه فى ســبيل الدعوة » وقد أبرزت فيه نسب الشاعر موثقا ، ثم اســهامه بســيفه وقلمه فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية •

وكان لا بد أن يقف القارىء على الأغراض العــامة التى تناولها شعر كعب ، فجاء الفصل الثالث الذى بحثت فيه أغراض شعره ، ودور هذا الشعر فى الرد على شعراء المشركين ، بصورة مجملة •

واذا تصور القارىء هذا الشعر فانه يجد نفسه بحاجة الى معرفة دور هذا الشعر فى نصرة الدعوة الاســـلامية فوقفت وقفة متأنية عند شعر الغزوات ذلك الشعر الذى سجل فيه الشــاعر أحداث كل غزوة ، وأبرز فيه الدور البطولى الذى قام به المجاهدون من أجل حماية الاسلام فجاء الباب الثانى بعنوان « الغزوات فى شعر كعب » •

كان لابد من تفصيل دور هذا الشعر ، لأنه لم يســـجل الغزوات فحسب ، وانما أبرز دور المجاهدين ، ورثى شهداءهم ، فجاء الفصــل الأول بعنوان « تســـجيله لأحداث الغزوات » وهو ما أوضـــحت فيه تســـجيل هذا الشـــعر لأحداث كل غزوة ، وما أســـفرت عنه من نصر للمسلمين أو غير ذلك ، وظهور كل ذلك فى شعره •

ثم جاء الفصل الثانى مصورا الدور الذى أداه شعر كعب فى ابراز بطولة المسلمين واستبسالهم فى المعارك ، وصـــمودهم أمام الأعداء ، ثم أوضحت فى هذا الفصل دور شعر كعب فى تهديد المشركين ووعيدهم،

وهو الشعر الحماسى الذى كان يدفع به المجاهدين نحو هدفهم الأسمى وغايتهم المرجوة .

وكان لابد للقارىء من الوقوف على ذلك الشعر الذى قيل فى رثاء شهداء هذه الغزوات وما الجديد فى هـذا الرثاء فجاء الفصل الثالث ليؤدى هذا الجانب .

واذا كنا قد وقفنا على شعر كعب ، وما عالجه من قضايا فان الأمر يتطلب منا أن نقف على بعض القضايا التى أثارها النقاد — قدامى ومحدثين — حول الشعر فى صدر الاسلام ، وما أحدثه الاسلام فى هذا الشعر فجاء الباب الثالث بعنوان « نقد وموازنة » .

وقد ضمنته ثلاثة فصول : الفصل الأول جاء بعنوان : « ما أحدثه الاسلام فى الشعر » وقد عرضت فيه لبعض القضايا التى أثيرت حول الشعر فى صدر الاسلام ، ورددت فيه على ما وجدته — فى نظرى — منافيا لما قرره الاسلام فى ذلك ، أو مجاوزا للحقيقة .

ثم عقدت فصلا تحدثت فيه عن الصدق الفنى ، ومنهج كعب الشعرى ، حتى أجعل القارىء يدرك — معى — دور هذا الشعر فى التعبير عن القضايا التى آمن بها الشاعر ، وهل أدى شعره ذلك الدور ، أم أخفق فيه .

واذا كان ذلك ضروريا فان موازنة الشعر بما قيل من شعر معاصر له — سواء فى ذلك ما سار على منهجه أو أنى معارضا له — تأتى أكثر لزوما ، وأقوى أثرا ، وبذلك يكتمل بنيان البحث الذى ما قصدت به الا خدمة تراث أحجم الكثير عن النظر فيه ، أو جرفهم تيار المعاصرة فأعرضوا عنه .

فان كنت قد وفقت فى ذلك فقد فزت بالحسنيين ، وان كانت الأخرى فعزائى أننى لم أقصر فى مواصلة المسيرة ، ولم أقعد عن تتبع مصـــادر المعرفة .

والله حسبى عليه توكلت واليه أنبت ، انه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى :
١٧ من جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ
٢٨ من ينـــاير ١٩٨٦ م

الدكتور/عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
بالمنوفيـــة

— ١ —

احتدم الصراع بين المسلمين ، والمشركين بعد هجرة الرسـول — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة المنورة ، ولم يقف ذلك الصراع عند الاختلاف فى الرأى ، أو مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وانما تعدى ذلك الى استعمال السيف ، وازاء ذلك التحفز المستمر من المشركين ، ومحاولاتهم الدائبة فرض سلطانهم على المسليمن بالقـوة فرض الله الجهاد على المسلمين : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهـــدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من ســـورة الحج) •

وعندما دارت رحى الحرب بين المســلمين والمشركين ، ووقعت غزوة بدر الكبرى ، وهزم المشركون فيها هزيمة نكراء حاولوا تخفيف وطأة الهزيمة عنهم فقام شعراؤهم : أبو ســفيان (١) بن الحارث ابن

---

(١) أبو ســفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ابن عم النبى — صلى الله عليه وسلم ، وكان أخا النبى من الرضاعة ، يقال ان الذين كانوا يشبهون رسول الله : جعفر بن أبى طالب ، والحسن بن على ، وقشعم بن العاص ، وأبو سفيان بن الحارث •

وكان أبو سفيان من الشعراء المطبوعين ، وكان سبق له هجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، واياه عارض حسان بن ثابت بقوله :

=

عبـــد المطـلب ، وعبـــد الله بن الزبعـــرى (١) ، وعمـــرو ابن

=

ألا أبلـغ أبا ســـفيان عنى

مغلغـلة فقـد برح الخفـــاء

هجوت محمـدا فأجبت عنـه

وعنـــد الله فى ذاك الجـزاء

أسلم أبو سفيان عام الفتح ، واعتذر مما كان مضى بقوله :

لعمـرك انى يوم أحمـــل راية

لتغلب خيل اللات خيل محمـد

كالمظلم الحــيران أظلم ليلـه   فهذا أوانى حين أهدى فأهتـدى

هدانى هـــاد غير نفسى ودلنى   عـلى الله من طردت كل مطـــرد

أصـد وأنأى جاهـدا عن محمد   وأدعى وان لم انتسب من محمد

وحضر مع رسول الله الفتح ، وشهد معه حنينا ، فأبلى فيها بلاء حسنا وتوفى أبو سفيان سنة عشرين هجرية » ٠

انظر ترجمته فى أسد الغابة ج ٦ ص ١٤٥ ـ ١٤٧ ـ ط الشعب ٠

(١) عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن ســـعد بن ســـهم ابن عمر بن هصيص القرشى السهمى كان من أشــد الناس على رســول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الجاهلية ، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه ، وكان يناضل عن قريش ، ويهاجى المسلمين ، وكان من أشعر قريش ، أســـلم بعد الفتح ، وحسن اسلامه قيل انه هرب هو وهبيرة بن أبى وهب بعد فتح مكة الى نجران ، فقال حسان بن ثابت فى ابن الزبعرى وهو بنجران ٠

لا تعد من رجلا أحلك بغضـــه   نجـران فى عيش أجـــد لئيم

فلما سمع ذلك ابن الزبعرى رجع الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وقال حين أسلم :

يارسول المليك ان لســـانى   راتـق ما فتقت اذ أنا بـــور

اذ أجارى الشيطان فى ســنن   الغى ومن مـــال ميله مثبـــور

=

العاص(١) بثلب أعراض المسلمين والهجوم عليهم بشعر يتداوله العرب، لأنه ديوانهم الذى طالما سجل مفاخرهم، ومآثرهم، فكان لابد أن يتصدى لهم جماعة من المسلمين يدافعون عن أعراضهم المثوبة، ويقارعون شعراء المشركين الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، وقد كان المسلمون يتطلعون الى من يتوم بذلك فتصدى لهم ثلاثة نفر من

آمن اللحم والعظام بما قلت فنفسى الشهيد أنت النذير
ان ما جئتنا به حق صدق ساطع نوره مضىء منير
جئتنا باليقين والبر والصدق وفى الصدق واليقين سرور
أذهب الله ضلة الجهل عنا وأتانا الرخاء والميسور

انظر أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٩ ط الشعب .

(١) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب القرشى السهمى كان أشد على رسول الله وأصحابه، أسلم قبل الفتح، وهاجر الى المدينة، قيل انه عندما حضرت عمرا الوفاة أخذ يبكى، فقال له ابنه عبد الله: لم تبكى؟ أجزعا من الموت؟ قال: لا والله ولكن لما بعد الموت، فقال له: كنت على خير، وجعل يذكر صحبته لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفتوحه فى الشام ومصر، فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك: شهادة أن لا اله الا الله: انى كنت على أطباق ثلاث: كنت أول شىء كافرا، فكنت اشد الناس على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلو مت حينئذ وجبت لى النار، فلما بايعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كنت اشد الناس حياء منه، فلو مت لقال الناس هنيئا لعمرو أسلم وكان على خير، ومات فترجى له الجنة، ثم تلبست بالسلطان، وأشياء فلا أدرى أعلى أم لى، فاذا مت فلا تبكين على باكية، ولا تتبعنى نائحة ولا نار».

انظر أسد الغابة ج ٤ ص ٢٤٤ — ٢٤٨ .

المسـلمين هم : حسـان بن ثابت (١) وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة (٢) ٠

« لقد كان يهجو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة

---

(١) حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى الخزرجى ، ينتهى نسبه الى مالك بن النجار ، وأمه الفريعة بنت خالد الأنصارية الخزرجية ، شاعر رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ، دافع عنه بشعره فقط ، وقد كان شعره أشد على المشركين من وقع النبال عاش حيـاة طويلة فى الجاهلية ومثلها فى الاسلام ٠

انظر ترجمته فى أسـد الغاية والأغانى وفى كتب التراجم وتاريخ الأدب ، فقد أولاه الباحثون عناية فائقة ٠

(٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس الأكبر ، ينتهى نسبه الى الحارث بن الخزرج الأنصارى الخزرجى ٠ شهد بيعة العقبة ، وكان نقيب بنى الحارث بن الخزرج ، وشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبر ، وعمرة القضاء ، والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه سـلم ـ الا الفتح ما بعده ، فانه كان قد استشـهد قبله وهو احد الأمراء فى غزوة مؤتة ، وهو خـال النعمان بن بشـير ، وكان عبد الله أول خارج للغزو ، وأول قافل ، وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن شعره فى النبى ـ صـلى الله عليه وسلم ٠

انى تفرسـت فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أن ما خـاننى البصر
أنت النبى ، ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسـن ... تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة ، قال هشام بن عروة فثبته الله أحسن الثبات ، فقتل شـهيدا ، وفتحت له أبواب الجنة فدخلها شهيدا ، انظر أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨ ٠

رهط من قريش : عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص،فقال قائل لعلى بن أبى طالب — رضوان الله عليه — اهج عنا القوم الذين هجونا فقال على — رضى الله عنه — ان أذن لى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعلت ، فقال رجل : يا رسول الله ايذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا ، قال : ليس هناك ، أو ليس عنده ذلك ، ثم قال للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بسلاحهم أن ينصروه بأقلامهم ؟ فقال حسان بن ثابت أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرنى به مقول من بصرى وصنعاء ، فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : انى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، قال : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر قال : فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) •

— ٢ —

لقد اشترك حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك — حسب الرواية المتقدمة — فى المنهج الذى سلكاه للدفاع عن الدعوة الاسلامية ، وقام كل منهما بدوره الرائد فى الذود عن حرمات المسلمين ، والرد على شعراء المشركين ، وكان لكل منهما من الآثار ما سجلته له كتب السير والتراجم ، فقد حفلت هذه الكتب بأشعار هذين الشاعرين ووضع كل منهما فى موضعه اللائق به •

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ٤ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ط التراث الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب •

غير أننا وجدنا كثيرا من الكتاب المحدثين يسلطون أضـــواءهم على حسان بن ثابت مغفلين صاحبيه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة بل ان ديوان حسان بن ثابت كان له من حظوة العناية به ، والعكوف على دراسته جانب لم يحظ به ديوان شاعر فى عصر صـــدر الاسلام ، حتى ان المتتبع لشعر كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة لا يجده الا فى ثنايا كتب السير والتراجم ، غير أن شعر كعب بن مالك قد جمـــع أكثره أخيرا على يد أحد الباحثين المحدثين فى بحث حصل به على درجة الماجستير من جامعة القاهرة ونشر فى العراق ، ولا توجد نســخة منــه الا فى دار الكتب المصرية •

ولعل الكتاب المحدثين بهرتهم شخصية حسان بن ثابت ، أو أنهم وجدوا أنفسهم أمام شاعر مخضرم جمع بين الجاهلية والاســلام ، فالمــادة وفيرة ، والزاد ميسور ، فأغفلوا فى خضم ذلك صاحبيه : كعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة •

وقد كان الواجب يقتضيهم أن يعكفوا على دراسة شعر هــذين الشاعرين بالقدر الذى عكفوا فيه على دراسة شعر حسان ، وسيجدون عندهما معانى وأغراضا قد لا يجدونها عند حسان بن ثابت ، وذلك أن هذين الشاعرين قاما بالدفاع عن الدعوة الاسلامية، لا باللسان فحسب — كما صنع حسان — وانما دافعا بلسانيهما وسيفيهما فاســـتشهد عبد الله بن رواحة فى مؤتة ، بعد أن حضر جميع الغزوات مع رســـول الله — صلى الله عليه وسلم — بينما حضر كعب جميع الغزوات ، ولم يتخلف الا فى بدر التى لم يكلف جميع المسلمين بالخروج اليها ، وفى تبوك التى تاب الله فيها عليه لصدقه ، ونزل فى شانه قرآنا — كمــــا سيأتى الحديث عن ذلك •

لهذا فقد رأيت أن أقدم هذين الشاعرين فى دراسة شاملة لشعر كل منهما بادئا اياها بكعب بن مالك الذى أرى أنه يأتى تاليا لحسان ابن

ثابت فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، وفى تسجيل الانتصارات التى انتصرها المسلمون على أعدائهم •

— ٣ —

لقد ثبت فى صحيح مسلم بشرح النووى فى رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لحسان : « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » وفى رواية أخرى يقول لحسان اهجهم أو هاجهم وجبريل معك •

فلما ذهب حسان الى أبى بكر وأعلمه مقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له أبو بكر كف عن فلانة ، واذكر فلانة (١) ، فقال حسان قصيدته التى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خلاء

وفيها يقول :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ، ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء

ولقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يستمع الى الشعر ، وكان يطرب عندما يسمع كعب بن مالك يقول شعرا يهدد به

(١) أبو الحسن على بن محمد الجزرى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة : المجلد الثانى ص ٥ ط الشعب •

المشركين ، فلقد روى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما سمع قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل ريب
وخيبر ، ثم أجمعنا السيوفا
نخبرها ولو نطقت لقالت
قواطعهن دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف .

فقال له الرسول — صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لهى أشد عليهم من رشق النبل (١) .

وعندما سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كعب بن مالك يعير قريشا بالألقاب التى كانت تتألم منها وهو قوله :

زعمت سخينة أن تغالب ربها
فليغلبن مغالب الغلاب

قال له : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا ، وفى رواية أنه قال له : يا كعب ما نسى ربك ، أو ما كان ربك نسيا بيتا قلته ، قال كعب : وما هو يا رسول الله ؟ فقال أنشده يا أبا بكر فأنشده البيت السابق (٢) .

يتضح لنا من سياق هذه الأحداث أمور ثلاثة :

---

(١) أسد الغابة المجلد الرابع ص ٤٨٨ ط الشعب .
(٢) لنا عود لتعميق هذا الجانب فى الباب الثالث من هذا البحث إن شاء الله ، وبيت كعب هذا وحديث الرسول معه ورد فى طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٢٢ تحقيق محمود محمد شاكر .

أولها : أن العرب قبل أن يدخلوا الاسلام كانوا يتأثرون بذكــر المثالب والعيوب ، وكان الهجاء بهذه المثالب والعيوب يعمل فيهم عمله، ومن أجل ذلك تأثروا بهجاء حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ٠

ثانيها : أن هؤلاء العرب أنفسهم — عندما اعتنقوا الاســلام ، وتفهموا تعاليمه تغيرت نظرتهم الى الشعر الذى قيل فى هجائهم ، فاذا بهم يتأثرون بشعر عبد الله بن رواحة ، لأنه شعر يهجو فيه الرذائل المنتشرة بينهم ، وأنهم بعيدون عن فهم الفضائل التى أتى بها الاسلام، ونادى بها محمد — صلى الله عليه وسلم — ، فكان فى ذلك الزمان أى قبل اسلامهم — كما يقول صاحب الأغانى — أشد القول عليهم قــول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا ، وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) ٠

ثالثها : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كما يقول الأستاذ طه أحمــد ابراهيم— لم يكن يتحرج من الشــعر ، ويتألم بالقــدر الذى يظنه كثير من الناس ، ولم يكن يستطيع أن يفعل ذلك ، فالشعر سلاح ماض من الأسلحة العربية ، لا يستغنى عنه صاحب دعوة ، وهو كتاب الجاهلية ، وديوان أخبارها ، والجاهلية قريبة العهد جدا ، والجاهليــة لا تزال قوية جياشة ، ولا يزال كثير من رجالاتها أحياء ٠ هذا الى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — فصيح يتــــذوق الكلام الجيد ، ويخوض فى الشعر مع الوافدين اليه من الذين أسلموا ، ويؤثر ما لاءم دعوته ، وأرضى مكارم الأخلاق ، فليس بدعا أن يتحـــــدث الناس فى الشعر بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يكثر اجتماع الشعراء بالرســول صلى الله عليه وسلم وليس بدعا من الرســول العــربى صــلى الله عليه وســلم أن يعجب بالشــعر العربى ، كمــا يعجب به

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٣٨ ط الشعب ٠

أصحاب الذوق السليم ، أعجب بشعر النابغة الجعـدى ، وقال له : لا يفضض الله فاك ، وبلغ من استحسانه لبانت سعاد أن صفح عن كعب وأعطاه بردته ، واستمع الى الخنساء واستزادها مما تقـول : وتأثر تأثرا رقيقا لشعر قتيلة بنت النضر ، وهو الذى دعا حسـان بن ثابت ليجيب وفد تميم ، وهو الذى قال : ان من البيان لسحرا (١) .

ولم يكتف المتذوقون للشعر فى عصر صدر الاسـلام أن تكون أحكامهم منصبة على المعاصرين لهم من الشعراء ، بل وجهوا هذه الأحكام المعتمدة على الذوق الأخلاقى الى شعراء الجاهلية فقد كان رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول عن امرىء القيس « انه أشـعر الشعراء ، وقائدهم الى النار » يعنى شـعراء الجـاهلية والمشركين ، قال دعبل بن على الخزاعى « ولا يقود قوما الا أميرهم » (٢) .

لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ نقـده الى امرىء القيس من منظور أخلاقى اسلامى ، فامرؤ القيس أشـعر الشـعراء ، لأنه قيد الأوابد ، ووقف واستوقف ، وبكى الديار والأطلال ، ورسم للشعراء بعده نظام القصيدة العربية ، ولكنه كان متعهرا فى شـعره ، ذكر أشياء ما كان يحق له أن يذكرها ، حتى فى المجتمع الجاهلى الذى كان يحث ــ أيضا ــ على رعاية حق الجوار ، وعدم الاعتداء عـلى الحرمات ، فقد أعجبوا بقول القائل :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى
حتى يوارى جـارتى مثـواها

---

(١) طه أحمد ابراهيم تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٨ ط دار الحكمة بيروت .

(٢) ابن رشيق القيروانى : العمدة ج ١ ص ٧٦ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤م .

وقيل ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه الا عنترة • وذلك عندما أنشد النبى — صلى الله عليه وسلم — قوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل (١)

— ٤ —

ولقد رأيت من خلال منظور تحليلى نقدى — أن أقـــدم لقراء العربية شخصية كعب بن مالك من خلال شعره الذى دافـــع فيه عن الدعوة الاسلامية فى سلسلة أتناول فيها هؤلاء الشعراء الذين تصدوا للدفاع عن الدعوة الاسلامية معرفا القراء بشعرهم وطبيعتـــه وآراء النقاد فى الشعر الاسلامى ، فقد رمى هذا الشعر باللين والضعف ، لأن الشعر فى نظر بعض النقاد نكد لا يقوى الا فى الشر ، فاذا طرق باب الخير ضعف ولان •

ولهذا فان شعر كعب بن مالك ومن سار على نهجه من شـــعراء الدعوة الاسلامية يحتاج منا — معشر الباحثين — الى مزيد من العناية وبذل الجهد ، حتى نقدمه للقراء تقـــدما يتفـــق ودوره فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، ورسولها محمد — صلى الله عليه وسلم — وسيجد القارىء لهذا البحث كثيرا من المعانى والأفكار التى تجيب على كثـــير من التساؤلات التى يحتاجها محبو الشعر ، والمهتمون بالدراســـات النقـــدية •

والله أسأل أن يهيىء لنا من أمرنا رشدا •• ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب •

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٤٣ المصدر السابق •

الباب الأول

شاعر وشعر



الفصل الأول

بيئة المدينة المنورة

المدينة المنورة هى تلك المنطقة التى عرفت فى التاريخ القـــديم باسم يثرب ، وسميت فيما بعد بالمدينة المنورة ، ويثرب أو المدينـــة المنورة من المدن التجارية التى يؤمها كثير من الناس اما للتجــارة ، واما للاقامة فيها لاستقبال التجار المارين بها ، واما للترويح عن أنفسهم من عناء الطبيعة الصحراوية فهى من المدن الآهلة والحافلة بكثير من ألوان المتعة والنعيم •

والقادم الى المدينة المنورة ــ الآن ــ يبهره ذلك المنظــر الــذى يختلف اختلافا بينا عن سائر المناطق التى مر بها ــ فى شــبه الجــزيرة العربية ، فبينما تقطع الطريق اليها فى مناطق صحراوية لا ترى فيهــا الا جبالا سوداء ، أو مرتفعات تجتازها بصــــعوبة اذا بك تنتهى الى المدينة المنورة ، فتجد مناطق قد تجلت عليها الطبيعة فألبســـتها ذلك اللون السنــدسى الذى يملأ النفس بهجــة ، والقلب متعــة ، والعين جمـــالا •

انها المدينة المنورة تلك البقعة التى أنعم الله عليها بالمـاء يأتيهـا من الأمطار ، أو من الوديان التى تحيط بها ، فاذا بها تمثل قطعـــة خضراء فى جسم الجزيرة العربية المغمور بالرمال الصفراء ، بل ان الله ــ سبحانه وتعالى ــ جعلها تنعم بأعظم الأشجار المعمرة التى لاينقطع ثمرها ، ولا ييبس ورقها ، بل يمثل ثمرها غذاء أساسيا فى حيـــاة العرب ، ان أشجار النخيل تعمها ، بل ان بها أنواعا عــدة من التمور لا توجد فى أى منطقة من المناطق التى تشتهر بأشجار النخيل •

ولا شك أن منطقة هذا شأنها لا يمكن أن يكون ذلك وليد العصر الحديث ، أو الحضارة التى نعيشها ، لأن وسائل الزراعة الحديثة لا تركز على زراعة هذه الأشجار التقليدية ، ان هذه الأشجار ضاربة فى التاريخ ، موغلة فى القدم ، ممتدة جذورها الى نشأة هذه المنطقة ، حتى أن البلاذرى يتحدث عن قدوم اليهود الى يثرب فيقول : « لما هدم بختنصر بيت المقدس ، وأجلى من أجلى ، وسبى من سبى من بنى اسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادى القرى وتيماء ويثرب ، وكان بيثرب قوم من جرهم ، وبقية من العماليق قد اتخذوا النخل (١) والزرع ، فأقاموا معهم ، وخلطوهم » (٢) •

فجرهم الذين سكنوا يثرب ، والعماليق قد سكنوا هذه المنطقة قبل اليهود ، وقد اتخذوا لهم زرعا ونخيلا ، ولا بد أن الذى ساعدهم على أقامة هذه الألوان من الزراعة وأشجار النخيل هو وجود الماء فى هذه المنطقة ، حتى ان البلاذرى يتحدث حديثا طويلا عن أرض المدينة الخصبة ووديانها وأشجارها ، ذاكرا تحريم الرسول — صلى

---

(١) ان اشجار النخيل موجودة منذ نشأت الحياة على هذه الأرض .
ولقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من الفواكه ، فالتين والزيتون ، والعنب والرمان فواكه واردة فى القرآن ، ولكنه لم يرد ذكر لأشجارها ، ولكن شجرة النخل مذكورة فى القرآن فقد قال تعالى للسيدة مريم عليها السلام وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فهل جاء ذلك دليلا على رعاية الله لمريم وأنها ستتمكن من انزال ثمار النخلة التى لا يحصل المرء على ثمرها الا بصعوبة ؟ أو لأن باقى أنواع الفاكهة أشجارها مسماة باسمائها فلا فرق بين الشجرة وثمرها ؟ أو لأن النخلة مذكورة لذاتها ؟

(٢) أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٧ ، ١٨ نشره د • صلاح الدين المنجد — مكتبة النهضة المصرية •

الله عليه وسلم ــ ما بين لابتيها ، فقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ان لكل نبى حرما ، وانى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم عليه السلام مكة ما بين حرتيها لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال ، فمن أحدث حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل » (١) .

وهو يذكر حكومة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى سيل مهزور ، فقد روى عن عبد الرحمن بن الحارث أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قضى فى سيل مهزور أن الأعلى يمسك على من أسفل منه ، حتى يبلغ الكعبين ، ثم يرسله على من أسفل منه (٢) .

وهذا دليل على وجود المـــاء بكثرة فى هذه المنطقة ، بل انهـــا منطقة سيول تغمرها بالماء ، حتى يصل الماء الى الكعبين ، وكذلك قضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى سيل مذينب ، وفى ســــيل بطحان بمثل ما قضى به فى سيل مهزور ، بل أنه يبـــدو لنـــا من بعض الروايات أن سيل بطحان كان يفيض دائما ، أو أن ماءه كان مستمرا ، فقد روى عن عروة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : بطحان على ترعة من ترع الجنة(٣) .

وكان الماء ــ أحيانا ــ يغمر المدينة فيتسبب فى اغراق أجزاء منها ، وقد أشرفت المدينة على الغرق فى عهد سيدنا عثمان من سيل مهزور ، حتى أتخذ له عثمان ردما(٤) .

هذه الوديان والسيول قد أخصبت تربة المدينة ، وجعلتها تتعـــم بزراعة منتظمة على عكس سائر المناطق فى شبه الجزيرة العربية ، بل

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ٦ ، ٧ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ٩ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٠ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٠ .

ان الروايات تذكر لنا كثيرا من المناطق التى أقطعها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لبعض الصحابة ، وهى مناطق زراعية كانوا يقومون على شأنها ، ويعطون لبيت المال نصيبه منها (١) •

لقد نبتت حول هذه العيون والآبار — كما يقول الدكتور شوقى ضيف — « جنات النخيل والأشجار فملأت البصر بهجة ورواء بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل التى تموج بها صحراء العرب ، ومن ثم كانت المدينة تبدو داخل الجزيرة العربيه كأنها واحة بديعة ، أو قل انها ابتسامة الطبيعة تبدو على محيا الصحراء الهامدة » •

« وجعلت هذه المياه والخضرة ، أو قل هذه العيون والجنات جو المدينة محتملا ، فهى على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ ، وهو الخط نفسه الذى يمر بمدينة الأقصر طيبة مصر الفرعونية تمتاز بجو ملطف ، وهو جو يزخر بظلال النخيل والأشجار ، وربما كان من أهم أسباب اعتدال جوها أنها تعلو سطح البحر بنحو ستمائة متر مما جعل جوها مقبولا ، وخاصة فى فصلى الشتاء والربيع اذ تسقط الأمطار » (٢) •

أما فصل الصيف فان اشتداد الحرارة بها قد يجعلها عرضة لانتشار بعض الأمراض ، وخاصة الحمى ، ولقد ذكرت كتب التاريخ أن والد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد مات متأثرا بحمى يثرب ، وهو مار بها لزيارة أخواله من بنى النجار ، حتى أن السيدة عائشة أم المؤمنين — رضى الله عنها — قالت : « لما هاجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة مرض المسلمون بها ، فكان ممن

---

(١) انظر فتوح البلدان فيما اقطع رسول الله وأبو بكر وعمر جـ ١ ص ١١ ، ١٢ •

(٢) د• شوقى ضيف : الشعر والغناء فى المدينة ومكة ص ٩ ، ١٠ ط دار المعارف •

اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة ، فكان أبو بكر — رضى الله عنه — يقول فى مرضه :

كل امرىء مصـــبح فى أهله
والموت أدنى مـــن شراك نعله

وكان بلال — رضى الله عنه — يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بفخ وحولى أذخر وجليـــل
وهل أردن يوما ميـــاه مجنـــــة
وهل يبدون لى شامةوطفيل(١)

وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجـــدت الموت قبل ذوقه
ان الجبان حتفه من فوقه
(كل امرىء مجاهد بطوقه)
كالثور يحمى جلده بروقـــه

(روقه : قرنه) •

فأخبر النبى — صلى الله عليه وسلم — بذلك فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة ، وبارك لنا فى مدها وصاعها(٢) •

ويايد ابن هشام قوله : « وانقل وباءها الى مهيعـــة ، ومهيعـــة الجحفـــة » (٣) •

ولقد ورد اسم يثرب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى يتحدث عن

---

(١) فخ : موضع خارج مكة : الأذخر : نبات طيب الرائحة • جليل تام • ومجنة : اسم سوق للعرب فى الجاهلية : وهو مكان قريب من مكة •
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان جـ ١ ص ١١ •
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٥٨٩ ط الحلبى •

موقف المنافقين فى غزوة الخندق ، ويكشف ادعاءاتهم الباطلة : « واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا » الأحزاب ١٣ .

ولقد سميت يثرب فيما بعد الاسلام المدينة ، وطيبة .

وأهل المدينة يعتمدون فى حياتهم على الزراعة والتجارة ، فهى من المناطق الآهلة التى أنعمت عليها الطبيعة — كما أسلفنا — بتربة خصبة، وأمطار وسيول جعلتها تنعم بجو متميز ، وأشجار يانعة ، ورياض مزدهرة ، وثمار شهية .

لقد خلق هذا الجو فى هذه المنطقة ألوانا من الاستقرار فى الحياة ، فلم يكونوا كغيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، بل انهم اتخذوا لأنفسهم حياة مدنية متحضرة ، وبنوا لهم بيوتا ، وأقاموا لهم قلاعا وحصونا ، حتى ان القرآن الكريم وصف اليهود بذلك فى قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون ، وتأسرون فريقا » . (الآية ٢٦ من سورة الأحزاب) .

وفى قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » (الآية ١٤ من سورة الحشر) .

وسكان يثرب قبل الاسلام كانوا أخلاطا ، أو قل جماعات متباينة فى كثير من سبل حياتها ، ووسائل معيشتها ، ومختلف اتجاهاتها ، ولقد روت لنا كتب التاريخ أن اليهود عندما حلت بهم نقمة بختنصر تفرقوا أيدى سبأ ، فحلت منهم جماعة على جرهم والعماليق بيثرب ، وكثروهم على مختلف العصور ، واستطاعوا طردهم من يثرب ، ثم حلت بأهل

اليمن نقمة السماء — بعد أن كفروا أنعم الله ، وجحدوا فضله فتهدم سد مأرب الذى كان يمد اليمن بالماء المنظم ، حتى سجل الله تعالى تلك النقمة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم،واشكروا له بلدةطيبة، ورب غفور ، فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم ،وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ، وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور » (الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة الأحزاب) •

فاذا بجماعة منهم يرحلون الى يثرب ، ويقيمون بها ، ويغلبون اليهود عليها ، فقد روى البلاذرى أن أهل سبأ أخذوا يتنقلون فى شبه الجزيرة العربية ، يتحسسون مناطق قد تشبه ما اعتادوا عليه من رخاء العيش ، ونعيم الحياة فلم يستقربهم المقام فى أى منطقة من مناطق الجزيرة العربية الا فى يثرب ، فقد سارت الأزد ، وهم بطن من بطون اليمن « حتى انتهت الى بلاد « حكم بنى سعد العشيرة » فقاتلوهم ، فظهرت الأزد على حكم ، ثم انه بدا لهم الانتقال عن بلادهم ،فانتقلوا وبقيت طائفة منهم معهم ، ثم أتوا نجران فحاربهم أهلها ، فنصروا عليهم ، فأقاموا بنجران ، ثم رحلوا عنها الا قوما تخلفوا بها لأسباب دعتهم الى ذلك ، فأتوا مكة ، وأهلها جرهم ، فنزلوا بطن قر ، وسأل ثعلبة بن عمرو مزيقياء جرهم أن يعطوهم سهل مكة فأبوا فقاتلهم حتى غلب على السهل ، ثم انه والأزد استوبئوا مكانهم ، ورأوا شدة العيش فتفرقوا ، فأتت طائفة منهم عمان وطائفة السراة ، وطائفة الأنبار والحيرة وطائفة الشام ، وأقامت طائفة منهم بمكة ، فقال جذع أكلما صرتم يا معاشر الأزد الى ناحية انخزعت منكم جماعة ؟ يوشك أن تكونوا أذنابا فى العرب ، فسمى من أقام بمكة « خزاعة » وأتى ثعلبة بن عمرو مزيقياء وولده ومن تبعه يثرب وسكانها اليهود فأقاموا بها خارج المدينة ، ثم

انهم غنوا وكثروا وعزوا حتى أخرجوا اليهود منها ، ودخلوها ،فنزلت اليهود خارجها ، فالأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمــــرو مزيقياء بن عامر ، وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو ، ويقال انها غسانية من الأزد ، ويقال انها عذرية »(١)

فرواية البلاذرى تجعلنا نطمئن الى ما ارتأيناه من أن أهل سبأ كانوا يبحثون عن مناطق تشبه اليمن فى رخاء عيشها ولين جانبها ،وكثرة ثمارها ، وغزارة مائها فلم يجدوا ذلك الا فى يثرب ، فكان مقامهم بهـــا طويلا ، وقرارهم بها مستمرا ، حتى جاء الاسلام فوجدهم سادة هذه البلاد والقائمين على شأنها .

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أسبق منهم فى الاقامةفىهذه البلاد الا أن الأوس والخزرج استطاعوا بما فطروا عليه من شجاعة وأقدام أن يجعلوا اليهود ينحازون الى مناطق فى ضواحى يثرب ، وان يعيشوا فى كنف الأوس والخزرج ، والدليل على ذلك آن يهود بنى قريظه كانوا يعيشون فى كنف الخزرج ، ولقد ارتضوا حكم سعد بن معاذ فيهم بعد غزوة الخندق ، ونقضهم العهد فحكم بقتل رجالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم .

« ويبدو أن اليهود لما شعروا بأنهم لا قبل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما ، وكانوا يمدونهمـــا بالأسلحة التى يستخدمونها فى حروبهما اذ كانوا يحترفون صـــنع الأسلحة » .

« وهكذا دارت رحى الحرب فى المدينة لأوخر العصر الجاهلى بين الأوس والخزرج وأخذت هذه الرحى تعركهم بثفالها عرنا عنيفا بحيث

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان جـ ١ ص ١٦ ، ١٧ المصدر السابق .

يظن الانسان أنه لم يعد من الممكن أن يعم السلم فى المدينة ، فدائما حرب ، ودائما رماح مشرعة ، وسيوف مسلولة ودماء مسفوحة »(١)

هذه الحروب وان كان لها جوانب سلبية الا أن جانبها الايجابى يتمثل فى تدريب هؤلاء الناس على القتال كما قال سعد بن معاذ للرسول يوم بدر « انا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك »(٢)

« فقد كان للأوس والخزرج قبل الاسلام وقائع تدربوا فيها بالحرب ، واعتادوا اللقاء ، حتى شهر بأسهم ، وعرفت نجدتهم ، وذكرت شجاعتهم ، وجل فى قلوب العرب أمرهم ، وهابوا حدهم فامتنعت حوزتهم ، وعز جارهم ، وذلك لما أراد الله من اعزاز نبيه — صلى الله عليه وسلم — واكرامهم بنصرته »(٣)

ويثرب كما رأينا من البلاد التى أضحت من حواضر الجزيرة العربية ، تستقبل الوافدين عليها ، والقادمين اليها ، فيجدون فيها كل ما فقدوه فى هذه الصحراء القاحلة ، ولا شك أن منطقة هذا شأنها لن تبقى بعيدة عن الفنون التى ألفها العرب ، وأحبوها ، فما الذى يجعل يثرب بعيدة عن الفنون والآداب وقد تهيأ لها ما لم يتهيأ لغيرهم من بلدان الجزيرة العربية ؟ ، بل ما الذى يجعلها كذلك وقد سعدت بطبيعة تفتق الذهن ، وتربى الذوق ، وتبعث على تنمية الشعور بالجمال ؟ ولعل ذلك يجعلنا نفرق بين شعر الحواضر ، وشعر البوادى ، فشاعر البادية لا يجد أمامه الا طبيعة قاسية قوامها الجبال والصخور ، والوحوش

---

(١) د. شوقى ضيف : الشعر والغناء فى المدينة ومكة ص ٩٢ المرجع السابق .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٦١٥ المرجع السابق .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٧ المصدر السابق .

والنسور ، يفتح عينيه على أغنام ترعى ، وماشية تسيح بين هذه الجبال باحثة عن عشب ومأوى ، فاذا به يجد حسه مشدودا اليها مأخوذا بها ، فتنطبع هذه البيئة على شعره فيصورها تصويرا ناطقا ، ففرس امرئ القيس ، وناقة طرفة ووحوش الشنفرى كل هذه الاشياء كانت مادة أولية للشعر الجاهلى البدوى ؛ أما شعر الحواضر فانه مثل الطبيعة الجميلة ، يقول قيس بن الخطيم(١) يوم بعاث :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب
لعمرة قفرا غير موقف راكب(٢)
ديار التى كادت ونحن على منى
تحل بنا لولا نجاء الركائب(٣)
تراءت لنا كالشمس تحت غمامة
بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم أر الا ثلاثا على منى
وعهدى بها عذراء ذات ذوائب
ومثلك قد أصبيت(٤) ليستبكنة
ولا جارة ولا حليئة صاحب(٥)

---

(١) قيس بن الخطيم : شاعر الأوس : ادرك الاسلام ، ولكنه بقى على شركه وكان يصد امراته عن الاسلام عندما اسلمت ، ولكنه رجع وكف عنها بعد أن كلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك وهو بمكة قبل الهجرة . انظر طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) الرسم : ما شخص من آثار الديار بعد البلى ، المذاهب : جمع مذهب بضم الميم : جلود تجعل فيها خطوط فيرى بعضها فى اثر بعض .

(٣) تحل بنا : تجعلنا نحل وننزل .

(٤) أصبى المرأة : فتنها ، وحملها على الصبوة واللهو : الكنة امرأة الأخ : حليلة الصاحب : امرأة الصديق .

(٥) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٢٨ قراه وشرحه محمود محمد شاكر مطبعة المدنى القاهرة .

فقد صور حبه لهذه المرأة، وامتلاكها ناصيته يوم الوقوف بمنى، وكان يتمنى لو طال المقام به هناك الا أن الجميع ينفرون من منى عائدين الى بلادهم ، ثم يصور جمال المرأة تصويرا متحركا محســوسا يبرز فيه بيئته التى عاش فيها ، فهى بيئة تعمها الغيوم ، وتغمرها الأمطــار واذا تلبدت السماء بالغيوم فانها تحجب قرص الشمس ، وقد تجــد الشمس منطقة قلت فيها الغيوم فيبدو منها جزء ويختبىء جزء آخر ، انها صورة تشبيهية رائعة تلك التى رسمها لنا قيس بن الخطيم لبيان جمال محبوبته فهو يقول :

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها ، وضنت بحاجب

وشعر حسان بن ثابت يصدق عليه ذلك ، والقارىء لقصائده فى بنى جفنة من بنى غسان ملوك الشام(١) فى العصر الجاهلى يرى فيهــا أثر الحضارة واضحا ، فهو يقول :

لله در عصــــابة نادمتهــم
يومــا بجلــق فى الزمــان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل (٢)

لقد كان شعراء المدينة يجيدون فن الشعر ، ويحسون نغمــــه ، ويتغنون به ، بل ان الغناء كانت له سوق رائجة فى يثرب قبل الاسلام، وقد كانت هناك أماكن للغناء ، قد جلبت لها المغنيات (٣) •

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢١٨ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر مطبعة المدنى القاهرة هامش ص ٢٢ •

(٢) جلق : دمشق • البريص : نهر بدمشق : صفق الشراب من اناء الى اناء : صفا الرحيق : أعتق الخمر وافضلها • السلسل : اللبن الصافى •

(٣) انظر كتاب الدكتور شوقى ضيف : الشعر والغناء فى المدينة ومكة ط دار المعارف •

ويتخذ الدكتور شوقى ضيف من واقعة الهجرة وغناء نســـاء الانصار المعروف :

طلــع البدر علينــــا من ثنيــات الوداع
وجب الشـــكر علينـــا مـــا دعـــا لله داع

يتخذ من ذلك منطلقا الى قوله ٠٠ وهذه النصوص تؤكد أن الغناء كان شائعا فى المدينة ، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو مــا صنع نساء الأنصار فى استقبال النبى — صلى الله عليه وسلم — ونجد بجانب هذه النصوص نصوصا أخرى تــدل على أن القيــان عرفن فى المدينة فى أثناء العصر الجاهلى ، ومعروف أن القيان كن أجانب ،وأنهن استخدمن فى الغناء حينئذ فى مــدن الجــزيرة العــربية ، وفى بعض القبائل ٠ »(١)

ونحن نوافق الدكتور شوقى ضيف على أن القيان عرفن فى المدينة وأنهن احترفن الغناء العاطفى الذى يتخذ فى المواخير والحانات لجلب المقبلين على ذلك اللون من الحياة اللاهية العابثة ، بل ان كتب الســير تحدثنا أن عبد الله بن أبى قد جلب بعض النساء للقيام بعملية البغاء ولكننا نخالفه فى أن نساء العرب كن يشتركن فيه ، وما أورده فى حادثة استقبال النبى — صلى الله عليه وسلم — لا يستقيم دليلا له ، ذلك أن الغناء الذى حدث يوم الهجرة ردده الرجال والنساء جميعا وهو من لون الرجز الذى كانت تردده العرب فى حروبها وفى حداء ابلها ، وكمـــا حدث مثل ذلك فى غزوة الخندق والمسلمون يحفرونه فقد ارتجز المسلمون برجل من المسلمين ٠٠ يقال له « جعيل » سماه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمرا ، فقالوا :

---

(١) د٠ شــوقى ضــيف : الشــعر والغناء فى المدينـــة ومكة ص ٤٠ ط دار المعارف ٠

سماه من بعد جعيل عمرا   وكان للبائس يوما ظهرا(١)

فاذا مروا بعمرو قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : عمرا، واذا مروا « بظهر » قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ظهرا(٢)

فنساء العرب كن يشتركن فى الأهازيج ، أو الأغانى الحماسية ، لأنهن كن يقدرن الحرمات ويراعين المقدسات ، وقد حدث أن قامت نساء قريش فى غزوة أحد بمثل ذلك فقد تقدمتهن هند بنت عتبة — وهن يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقلن :

ويها بنى عبد الدار   ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

ويقلن :

ان تقبلوا نعانق   ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق   فراق ذات وامق(٣)

فقد اتخذت هند بنت عتبة الغناء الحماسى لدفع المقاتلين نحو الحرب حتى يكونوا جديرين بحب النساء ، وخليقين برعايتهن (٤)

ولقد أورد ابن سلام الجمحى تلك القصة التى حدثت للنابغة الذبيانى عندما قدم المدينة وفى شعره اقواء ، ثم عاد منها وقد استقام له هذا الفن ، وهى دليل على أن الجوارى كن يحترفن الغناء ، ويرددن شعر الشعراء فى محافل عامة يرتادها محبو الغناء .

---

(١) الظهر : القوة والمعونة ، والضمير فى سماه و « كان » للنبى — صلى الله عليه وسلم .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٢١٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٦٨ .

(٤) انظر للمؤلف : صورة المرأة العربية فى السبع الطوال . عند حديثنا عن المرأة العربية فى طويلة عمرو بن كلثوم .

يقول ابن سلام : ولم يقو من هذه الطبقة ، ولا من أشباههم الا النابغة فى بيتين : قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتــدى
عجــــلان ذازاد وغــير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غــدا
وبذاك خبرنا الغداف الأســود

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه　　فتناولته واتقتنـــا باليــد
بمخضــب رخص كأن بنــانه　　عنم يكاد من اللطافة يعقــد

فقدم المدينة فعيب ذلك عليه ، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه اياه فى غناء ــ وأهل القرى ألطف نظرا من آهل البدو ، وكانوا يكتبــون لجوارهم أهل الكتاب ــ فقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فرتلى ، فلما قالت : « الغداف الأسود ، ويعقد وباليد علم وانتبه فلم يعد فيه، وقال : قدمت الحجاز ، وفى شعرى ضعة ورحلت عنهــا وأنا أشــعر الناس »(١)

وقول ابن سلام : «أهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو »يدلنا على أن أهل المدينة كانوا يجيدون فن الشعر ، ويعرفون قواعدهوأصوله بل يستطيعون نقده وتقويمه ،حقيقة أنه لم يكن فيهـــم من أصـــحاب المعلقات ، لأنهم صرفوا جهدهم للقصائد التى تستقيم لهذا الفن المألوف لديهم ، وهو فن الغناء ، أو أنهم أتوا فى مرحلة متأخرة فلم يتهيأ لهم قصائد تقف الى جانب المعلقات ، ولكن كان فيهم شعراء لهم مجالهم

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦٧ ــ ٦٨ المصدر السابق .

فى قول الشعر ، فحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحــة ، وقيس بن الخطيم وغيرهم من شعراء المدينة .

وقد كانت لحسان بن ثابت قصائد جيدة كما يقول ابن ســلام الجمحى . ومن شعره الرائع الجيد ما مدح به بنى جفنة من غسان ملوك الشام »(١)

فمن قصائده الجيدة فى الجاهلية تلك التى أثبتها أبوزيد القرشى(٢) ووضعها فى أول المذهبات ، وهى التى يقول فيها :

لعمرو أبيــك الخير حقا لما نبا
على لسانى فى الخطوب ولا يدى
لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى
وان أك ذا مال كثــير أجــدبه
وان يهتصر عودى على الجهد يحمد
فلا المال ينسينى الحياوحفيظتى
ولاواقعات الدهر يفللن مبردى(٣)

وقد كان حسان بن ثابت فى الجاهلية يرتاد الملوك ، ويتجــول فى البلاد ، مدح ملوك غسان بالحيرة ودمشق ، وقد كان الأوس والخزرج يعتبرون الغساسنة أبناء عمومة لهم ، وكان هؤلاء بدورهم يكرمون وفادة

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢١٨ المصدر السـابق .

(٢) أبو زيد القرشى : جمهرة أشــعار العــرب ص ٤٩٣ تحقيق على محمد البجاوى ط دار نهضة مصر .

(٣) المذود : اللسان . يهتصر : حصرت الغصن : املته . يفلل . الفل : الثلم .

حسان بن ثابت ويجزلون له العطاء ، وقد قال فيهم حسان قصيدته اللامية وفيها يقول :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم   شم الأنوف من الطراز الأول

وقد أجمع العرب — كما يروى صاحب الأغانى — على أن حسان أشعر أهل المدر »(١)

وقد أولى النقاد والأدباء حسان بن ثابت عناية فائقة .(٢)

المدينة بعد الهجرة :

هاجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مكة الى المدينة ، فعمل بعد هجرته على تكوين مجتمع مسلم تسوده المودة ، وتحدوه المحبة بين المسلمين ، وذلك لكى ينطلق بهم الى هدفه الأسمى ، وغايته المرجوة المتمثلة فى نشر الدعوة الاسلامية فى شتى بقاع الأرض ، ولن يستطيع مجتمع مفكك ممزق أن يحقق هذا الهدف .

ولقد عمل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على تحقيق هذه الرغبة من أول يوم وطئت قدماه المدينة المنورة ، واتخذ لذلك سبلا مختلفة ، وأسسا ثابتة ، فقد جمع شمل الأوس والخزرج أولئك الذين طحنتهم الحروب ، وأضعفتهم الخلافات التى عمل على توسيع هوتها اليهود المقيمون بالمدينة ، حتى يتمكنوا بعد اضعاف قوتهم من السيطرة عليهم ولم يتنبه العرب الى كيد اليهود لهم ، ومكرهم بهم الا بعد أن خاضوا حروبا طاحنة استمرت حتى ظن أنه لا نهاية لها الا بعد أن

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٤ ص ١٣٦ المصدر السابق .

(٢) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ، والأغانى ، والموشح للمرزبانى وطبقات فحول الشعراء .. الخ .

وانظر فى ذلك : تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٥ ترجمة عبد الحليم النجار .

تأكل الحرث والنسل ، هذا الأمر جعل الأوس والخزرج يترقبون من يستطيع وضع حد لهذه الحروب الدائرة بينهم ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت عرب هذه المنطقة يهرعون لاعتناق الدين الجديد الذى رأوا فيه منقذا لهم من هذه الصراعات التى استمرت عشرات السنين ، فقد روى ابن هشام عند حديثه عن بدء انتشار الاسلام بين الخزرج الذين لقيهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى موسم الحج فقال لهم « من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى اليهود ؟ قالوا: نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال : وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتب وعلم ، وكانوا هم — أى الأوس والخزرج — أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا — أى اليهود — اذا كان بينهم شىء قالوا : ان نبيا مبعوث الان قد أظل زمانه نتبعه لنقتلنكم معه قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله انه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ، وتعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك »(١)

ولقد أوفد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع أولئك النفر مصعب بن عمير ، ليدعو الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ففتح الله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ط الحلبى .

على يديه الخير ، وأقبل عليه أهل يثرب يعلنون اسلامهم ، وينضمون الى ذلك النفر الذين أسلموا فى مكة ، ولم يمض العام حتى كان الاسلام قد انتشر فى يثرب انتشارا واسعا ، فاذا كان القوم الذين بايعوا رسول الله فى بيعة العقبة الأولى لم يتجاوز عددهم اثنى عشر رجلا ، فان القوم الذين ذهبوا فى العام التالى موفدين من قبل أخوانهم المسلمين فى يثرب ، ليلتقوا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، وهو عدد يشير الى مدى انتشار الدعوى الاسلامية فى المدينة ، وتقبل أهلها لمبادىء الاسلام وتعاليمه.

وكانت بيعة العقبة الثانية(١) بداية لانطلاقة جديدة ، وايذانا بعهد جديد تنتقل به الدعوة الاسلامية من مكة تلك المنطقة التى وقف أهلها حجر عثرة فى سبيل الدعوة الاسلامية الى يثرب ، أو المدينة المنورة التى استقبلت المسلمين المهاجرين اليها استقبال حفاوة وتكريم .

هاجر المسلمون المستضعفون فى مكة الى يثرب ، ليجدوا فيها الأمن والأمان ، وكان أول المهاجرين كما يروى ابن هشام « أبو سلمة ابن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم »(٢) وتتابعت هجرة المسلمين الى المدينة المنورة ، ثم أذن الله لرسوله — صلى الله عليه وسلم — بالهجرة الى المدينة المنورة ، فتسامع بذلك سكان المدينة، فكانوا يخرجون اذا صلوا الصبح ينتظرون رسول الله — صلى الله

---

(١) من اعتبر حديث الرسول الى جماعة العرب فى موسم الحج بيعة سمى بيعة الرجال الاثنى عشر البيعة الثانية وعلى ذلك فان بيعة الرجال الثلاث والسبعين فى نظره تعتبر البيعة الثالثة ، ومن لم يعتبر ذلك سمى بيعة الرجال الاثنى عشر الأولى ، وبيعة الرجال الثلاث والسبعين الثانية . انظر ابن هشام .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٦٨ ط الحلبى .

عليه وسلم ــ قال بعضهم : فو الله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا ، دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ علينا ، فصرخ بأعلى صوته يابنى قيله : هذا جدكم قد جاء ، قال فخرجنا الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ فى مثل سنه ،وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك »(١)

يقول الرواة : لم يعرف أحد الترحيب بقادم كما عرف ترحيب الأنصار بمقدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقد خرج الرجال والنساء والأطفال ينشدون ، ويفرحون بمقدمة ــ صلى الله عليه وسلم ــ واذا كان الرسول قد أقام فى الأيام الأولى بقباء فانه تركها الى المدينة المنورة ، وهنا بدأ الناس يتسابقون لنيل شرف اقامة الرسول بينهم ، وكل قبيلة كانت تحاول جاهدة الأخذ بزمام ناقته ــ صلى الله عليه وسلم ــ كى يقيم بينهم فى العز والمنعة والرجال والسلاح ،ولكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراحهم من هذا الجهد المضنى ، وأعلن لهم أن ناقته مأمورة من السماء ، ليقيم فى مكان معين ، وهى موجهة توجيها الهيا ، فخلوا سبيلها معاشر المسلمين ، واتركوا اختيار المكان لله ــ سبحانه وتعالى ــ فترك القوم زمام الناقة ، حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٤٩٢ ط الحلبى .

وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار ، فلما بركت ، ورسول الله — صلى اللله عليه وسلم — عليها لم ينزل ، ووثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — واضع لها زمامها لايثنيها به ، ثم التفتت الى خلفها فرجعت الى مبركها أول مرة فبركت فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ، فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ ابن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجدا .(١)

واذا كان المسجد فى نظرنا — اليوم — مقصورا على العبادة ، وبعض غير كثير يدرك له رسالته العظمى فان مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان المدرسة والجامعة ، بل كان دار القضاء ، وملتقى الوفود ، ربى فيه أمة ، وكون من خلاله رجالا ، وبنى حضارة عرفها القاصى والدانى ، وكان عليه — صلى الله عليه وسلم — أن يوحد بين المسلمين — أولا — حتى ينطلق بهم الى هدفه الأسمى ، ثم يأمن غائلة جيرانه من اليهود — ثانيا — حتى لا يتعرض لمكرهم وخداعهم ، ولقد روت لنا كتب السير أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما قدم المدينة كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وكان من قوله فيه « بسم الله الرحمن الرحيم — هذا كتاب من محمد — صلى الله عليه وسلم — بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس »(٢)

ولقد أحدث ظهور الاسلام فى المدينة تحولا هائلا ، وعاد على هذه المنطقة بخيرات عميمة ، فبعد أن كانت الأنظار متجهة الى مكة قبلة

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٩٦ ط الحلبى .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٥٠١ ط الحلبى .

العرب ، وموطن تجارتهم ، ومنتدى رؤساء قبائلهم اذا بأنظارهم تتحول نحو المدينة المنورة عاصمة الاسلام ، ومقر الدعوة ، فقد انطلقت منها الجيوش الاسلامية ، تحمل عبء تبليغ الدعوة الى جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية ، بل انطلقت بعد ذلك لتبليغ الدعوة الى العراق والشام وفارس وافريقيا .

ولقد أصبحت المدينة المنورة بعد الاسلام من أعظم المراكز العلمية يسعى اليها طلاب العلم من شتى الدنيا ، وقد فاقت مكة فى هذه الناحية، لأنها صارت مهاجر جميع المسلمين من قريش وغيرها ، وبعد انتقال الرسول عليه السلام الى جوار ربه صارت مقر الخلافة ومركز كبار الصحابة ، وبعد الفتوحات جلبت اليها الأسرى من جميع البلدان المفتوحة فتنوعت الثقافة فيها ، وازدهرت الفنون ،وقد أولى العلماء اهتمامهم الأول الى القرآن ومدارسته ، وتفسيره فخلف كثير من الصحابة آثارا فى ذلك ، وكانت العناية بعد القرآن متجهة الى الحديث النبوى ، وقد كتب كثير من الصحابة صحفا خاصة بهم من الحديث كعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك وغيرهم » .

« وتدارس المسلمون ، وحفظوا كل ما يعينهم على تفسير القرآن الكريم والحديث وفهمهما ، فرددوا الشعر الجاهلى وحفظوه قال ابن عباس : « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله ، فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب ، وكان اذا سئل عن شىء من القرآن أنشد فيه شعرا »(١)

« وتدارسوا أنساب العرب وأيامهم ، فقد كان عقيل بن أبى طالب يجمع اليه فى علم النسب وأيام العرب ، وكان أبو بكر رضى الله عنه من أعلم العرب بالأنساب » .

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة جـ ١ ص ١٧ المصدر السابق .

« أما الكتابة فى العصر الاسلامى ، فقد تقدمت الى درجة كبيرة فى يثرب لما وجدت من تشجيع لدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه ، وقصة فداء الأسرى بعد تعليم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة خير دليل على ذلك » .

وقد وصلت الكتابة فى عهد رسول الله الى درجة من الرقى فى المدينة بحيث صنف من كان يكتب له من المسلمين مراتب كل صنف اختص بنوع من الكتابة فكتاب يكتبون الوحى ، وكتاب يكتبون لما يعرض له من الأمور والحوائج ، وآخرون يكتبون بين القوم فى قبائلهم ومياههم وأموالهم ، وكاتب يكتب فرس الحجاز وآخر يكتب مغانم الرسول عليه السلام ، وثالث يكتب الى الملوك ، ويجيب رسائلهم ، ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية »(١)

أما الشعر فى صدر الاسلام فقد كان له جانب من الاهمية لاينكره أحد ، ذلك أن الدعوة الاسلامية فى أول عهدها بالمدينة تعرضت لهجوم ضار من شعراء المشركين الذين قاموا بحملة شعواء كان الغرض منها رمى الدعوة الاسلامية ومعتنقيها بتمزيق وحدة العرب ، وهم فى ذلك لا يكفون عن سلب أعراض المسلمين ، والنيل من صاحب الدعوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

كان لابد — والحال كما نرى — من وجود شعراء يردون على شعراء المشركين ، ويدافعون عن أعراض المسلمين ، وقد أستجاب لرغبة المسلمين كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت وقام كل منهم بدور رائد فى ذلك ، غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن حسان بن ثابت لديه القدرة على الدفاع عن أعراض المسلمين بلسانه الذى يمكنه أن يرد عليهم بنفس ما استخدموه من شتائم وسباب فهو

---

(١) انظر ديوان كعب بن مالك الأنصارى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وانظر فى ذلك أيضا : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية . للدكتور ناصر الدين الأسدى ط دار المعارف وحديث له عن الكتابة .

أقدر الثلاثة فى مضمار ذكر المثالب ، أما كعب وعبد الله ، فلهما جانب آخر من الشعر برزا فيه ، لذلك فان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لحسان : قل وروح القدس معك ، ثم أرشده بأن يذهب الى أبى بكر حتى يعلم منه مناطق الضعف التى يمكن أن ينفذ منها حسان لينـــال من أعراض المشركين ، وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول لحسان : كف عن فلانة واذكر فلانة حتى ان المشركين عندما سمعوا شعر حسان قالوا: لم يعد ذلك أبا بكر ، والقارىء لشعر حسان فى أبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب يرى ذلك واضحا ، فعلى الرغم من أن أبا سفيان ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الا أنه استطاع أن يبحث له عن جانب يعيره به ، فالحارث بن عبد المطلب ليس شقيقا لعبد الله : ان امه غير امه ولذلك فقد انطلق حسان يكشف هذا الجانب ويجعله مهجنا، لأن أمه ليست كأم عبد الله ابن عبد المطلب ، واليك ما قاله حسان فى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وان سنام المجد من آل هاشم
بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبنـــاء زهرة منكـــم
كرام ولم يلحق عجائزك المجد
وان امــرأ كانت ســمية أمه
وسمـــراء مغلوب اذا بلغ الجهد
وأنت هجين نيط فى آل هاشم
كما ينط خلف الراكب القرح الفرد
ولست كعبـــاس ولا كابن أمه
ولكن هجين ليس يورى له زند(١)

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

ولم يكن الشعر متجها الى مشركى قريش فقــط ، بل ان بعض القبائل كانت تفد على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــتحب أن تفاخره بخطبائها وشعرائها ، فكان حسان بن ثابت يقوم باجابة هــؤلاء الشعراء ، كما حدث مع وفد تميم عندما أقبلوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفيهم شاعرهم الزبرقان بن بدر . فى تلك القصــة التى ترويها كتب السير ، والتى نزل فيها قوله تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » . (الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الحجرات)

قام الزبرقان بن بدر شاعر بنى تميم وقال :

نحن الملوك فلا حى يقاربنــــا
منا الملوك وفينا يؤخــذ الربع
تلك المكــارم حــزناها مقارعة
اذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نشدنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العز يتبــع
وننحر الكوم عبطا فى منــازلنا
للنازلين اذا ما استطعموا شبعوا
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا
من العبيط اذا لم يظهر الفزع
وننصر الناس تأتينــا سراتهم
من كل أوب فنمضى ثم نتبــع

فأرسل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى حسان بن ثابت فجاء فأمره أن يجيبه فقال حسان :

ان الذوائب من فهر واخــوتهم
قد بينوا سننا للنــاس تتبــع

يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
او حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غـير محـدثة
ان الخلائق ــ فاعلم ــ شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
عند الرقاع ولا يوهون مارقعوا
ان كان فى الناس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبـع
أعفـة ذكرت فى الوحى عفتهم
لا يطمعون ولا يزرى بهم طمع

حتى قال :

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
اذا تفرقت الأهواء والشـيع

فقال الأقرع بن حابس : والله ان هذا الرجل لمؤتى لـه : والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا أعطنى يا محمد فأعطاه .... الخ »(١)

ولقد كان موقف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الشعر وتشجيعه لشعراء الاسلام دافعا الى قيام نهضة شعرية فى المدينة ،بل كان ذلك دافعا الى أن يجد الشعراء عطفا من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ طالما أنهم التزموا منهجا مستقيما فى الدفاع عن الدعوة

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٩ ــ ١٥١ المصدر السابق .

الاسلامية ، لقد كان ذلك الموقف دافعا لكعب بن زهير — على الرغم من توعد الرسول اياه — أن يأتى الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وينشده شعراً ، « فقد قدم كعب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فبدأ بأبى بكر ، فلما سلم النبى — صلى الله عليه وسلم — من صلاة الصبح جاء به وهو ملتثم بعمامته ، فقال : يارسول الله : هذا رجل جاء يبايعك على الاسلام ، فبسط النبى — صلى الله عليه وسلم — يده ، فحسر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير فتجهمته الأنصار ، وغلظت عليه .. فأمنه الرسول واستنشده :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين اذ عرضت
الا أغن غضيض الطرف مكحول
وما تدوم على العهد الذى زعمت
كما تلون فى أثوابها الغول
ولا تمسك بالود الذى زعمت
الا كما تمسك الماء الغرابيل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيد الا الأباطيل
نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مبذول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ال
قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

فلما بلغ قوله :

ان الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا : زولوا
زالوا فمازال أنكاس ولا كشف
يوم اللقاء ولا سود معازيل

« فنظر رسول الله — الى من عنده من قريش كأنه يومىء اليهم أن يسمعوا » .

بل ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تعطف على كعب بن زهير : « فكساه بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم »(١)

لقد أثرت هذه النهضة الشعرية الشعر العربى بقصائد لها جلالها وجمالها فى تسجيل تلك الغزوات التى وقعت على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى مدحه صلى الله عليه وسلم — ومدح صحابته .

ولقد تحرز الرواة والمشتغلون بالأدب فى أول الأمر عن رواية هذه القصائد بعد أن عم نور الله الجزيرة العربية ، وانتشر الاسلام ، ولم يبق فى حواضر الاسلام كافر أو مشرك ، وخاصة أن سيدنا عمر بن الخطاب كان قد أمر الناس أن يبتعدوا عن رواية هذا الشعر ، حتى لا يثيروا احقاد وضغائن قديمة ، ولكن بعض شعراء مكة استثاروا حسان بن ثابت فى تلك القصة التى يرويها صاحب الأغانى فقد كان سيدنا عمر « نهى الناس أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ،

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف .

ومشركى قريش وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الاسلام ، فقدم المدينة عبد الله ابن الزبعرى السهمى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، ثم المحاربى ، فنزلا على أبى أحمد بن جحش ، وقالا له نحب أن ترسل الى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فارسل اليه فجاءه، فقال له : يا أبا الوليد : هـذان أخـواك ابن الزبعـرى وضرار قـد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما ، قال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ان شعرك كان يحتمل فى الاسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك ، وتسمعنا ، فقال حسان : أفتبدآن أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن • قال : ابتدئا ، فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضبا ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب فقص عليه قصتهما ، وقصته ، فقال له لو لم تدركهما الا بمكة فارددهما على ، وخرجا ، فلما كان بالروحاء رجع ضرار الى صاحبه بكرة ، فقال له يا بن الزبعرى : أنا أعرف عمر ، وذبه عن الاسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأنى به قد جاء وشكا اليه ما فعلنا ، فأرسل فى آثارنا ، وقال لرسوله : ان لم تلحقهما الا بمكة فارددهما على فأربح بنا ترك العناء ، وأقم بنا مكاننا ، فان كان الذى ظننت فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وان أخطأ ظنى فذلك الذى نحب ، ونحن من وراء المضى ، فقال ابن الزبعرى :نعم ما رأيت • قال : فأقاما بالروحاء ، فما كان الا كمر الطائر حتى وافاهما رسول عمر فردهما اليه ، فدعا لهما بحسان ، وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما فوقف ، فقال له عمـر : أفرغت ؟ قال : نعم • فقال له : أنشداك فى الخلا ، وأنشدتهما فى الملا، وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا ، وقال لمن حضره

انى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فأما اذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به فدونوا ذلك عندهم »(١)

وقد حافظ المسلمون على نتاج هذه الفترة ، حتى جاء عصر التدوين فدون هذا النتاج ولكن الكتاب المسلمين لم يدونوا كل ما قاله شعراء المشركين ، لأنهم وجدوا فيه نيلا من الاسلام والمسلمين ، أما الشعر الاسلامى فانه شعر يمجد الفضيلة ، ويدفع الى مكارم الأخلاق .

وقد كانت المدينة المنورة على عصر الخلفاء الراشدين حاضرة الدولة الاسلامية الأولى ، وكان الجميع يهرع اليها ، ليرى فيها صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وليشارك فى النهوض بالدعوة الاسلامية ، وليقف على ذلك التراث الفكرى والأدبى الذى كانت المدينة مسرحا له .

واستمر عطاء المدينة المنورة رائدا فى علوم القرآن وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى جاء العصر الأموى ، لتعود المدينة مرة أخرى حاضرة للغناء وللمجالس الأدبية التى رادها كثير من الشعراء ومحترفى الغناء .(٢)

---

(١) أبو الفرج الاصفهانى : الأغانى ج ٤ ص ١٤٠ ، ١٤١ المرجع السابق .

(٢) انظر كتاب الشعر والغناء فى المدينة ومكة للدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف .

الفصل الثانى

كعب بن مالك : نسبه وبلاؤه فى سبيل الدعوة

كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى الخـزرجى الذى قال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما سمع قوله :

زعمت سخينة أن تغالب ربها فليغلبن مغـالب الغلاب

« لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا ، وفى رواية أنه قال له : يا كعب ما نسى ربك أو ما كان ربك نسيا بيتا قلته . قال كعب : وما هو يارسول الله ؟ فقال : أنشده يا أبا بكر فانشده البيت السابق »(١)

لقد كان كعب بن مالك دعامة من دعائم الدفاع عن الدعوةالاسلامية فى فترة كانت الدعوة فيها تحتاج الى لسان الذائدين عنها ، كما تحتاج الى سنان المنافحين عن مبادئها ، ولم يكن كعب بن مالك ينفرد بناحية من الناحيتين ، ولكنه كان يجمعهما معا ، فهو الذائد بلسانه المنـافح بسنانه .

وهذا ليس بدعا على رجل مثل كعـب بن مالك الذى كان أحـد السباقين الى الاسلام ورجل هذا شأنه لابد وأن يكون متفانيا فى خدمة الاسلام مؤمنا بأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ وعـد المؤمنين احـدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، واذا آمن الانسان بهذه الحقيقة فانه سيبذل قصارى جهده فى نيل واحدة منها .

والشعر والفروسية لبسا جديدين على كعب بن مالك ، فهو شاعر الخزرج فى الجاهلية والاسلام ، قد عركته الحرب التى دارت رحاها بين

---

(١) ابن سـلام الجمحى : طبقات فحول الشـعراء ج ١ ص ٢٢٢ المصدر السابق .

أبناء العمومة فى يثرب ، واستمرت سنين عددا ، ولم يكن الشـعر ولا انفروسية بحائلة دون كعب والمبادرة الى اعتناق الاسلام الذى رأىفيه برجاحة عقله أنه المنقذ لهذه المنطقة من هول الحرب وويلاتها ، وأنه انغارس أشجار المحبة تؤتى أكلها ، ويعم عبقها يثرب والعالم كله بعد أن بذرت فيها الحروب بذور العداوة والبغضاء ، فلم تنتج لهم الحرب الا غلمان أشأم كأحمر عاد .

ولقد نشأ كعب بن مالك فىيثرب فهو خزرجى يمانى ، اسمه كعب ابن مالك أبى كعب ، واسم أبى كعب عمرو بن سواد بن غنم بن كعب ابن سلمة بن سعد بن على الأنصارى الخزرجى ، وكنيته أبو عبد الله ، وقيل أبو عبد الرحمن ، وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بنى سـلمة أيضا »(١) فهو أنصارى خزرجى سلمى ، ثم هو عقبى .

وهذه الكلمات لها دلالتها فى حياة كعب بن مالك ، وهى تعطينـا تصورا لحياة ذلك الصحابى الذى كان من السابقين الى الاسلام ،فهو من هؤلاء القوم الذين نصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، لقد آثروا اخوانهم المهاجرين على أنفسهم على الرغم مما بهم من شدة العيش ، وقسوة الحياة .

ولم يكن كعب بن مالك أنصاريا فحسب انه أنصارى عقبى ، فقد شهد بيعة العقبة الثانية باجماع المؤرخين ، انه كان ضمن هذا الوفـد الذى ذهب الى مكة ، ليبايعوا رسول الله ، بل أنه التقى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت الله الحرام قبل بيعة العقبة ، فقـد روى ابن هشام ان كعب بن مالك خرج الى الحج مع جماعة من قومه وكان معهم البراء بن معرور سيد الخزرج ، فلما توجهوا الى مكة رأى أن يصلى الى الكعبة تعظيما لها وتشريفا ، وقال لهم : « قد رأيت أن لا أدع هذه البنية منى بظهر ـ يعنى الكعبة ـ وأن أصلى اليها ، لكن القوم لم يوافقوه على ذلك ، وقالوا : ما بلغنا أن نبينا ـ صلى الله

---

(١) ابن الأثير الخزرجى :أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٨٧ المصدر السابق .

عليه وسلم — يصلى الا الى الشام فكانوا اذا حضرت الصلاة — صلوا الى الشام ، وصلى البراء بن معرور الى الكعبة ، فلما وصلو مكة سألوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — كى يسألوه عن هذا الأمر — قبل بيعة العقبة يقول كعب بن مالك : « فخرجنا نسال عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من اهل مكة فسألناه عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قال: فقلنا نعم • قال : وكنا نعرف العباس ، وكان لا يزال يقدم علينا تاجرا قال : فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد فاذا العباس جالس ورسول الله — صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا اليه ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم • هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك • قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « الشاعر » ؟ قال نعم »

ولم يلتصق لقب الأنصارى بشاعر مثل ما التصق بكعب بن مالك الأنصارى ، فان الرواة عندما تحدثوا عن حسان : قالوا حسان بن ثابت ولم يوردوا كلمة الأنصارى ، فعل ذلك صاحب الأغانى ، فقد أورد فى الجزء الرابع من كتابه أخبار حسان بن ثابت تحت عنوان « أخبار حسان ابن ثابت ونسبه ، وكذلك فعل صاحب أسد الغابة عندما ترجم لحسان قال : حسان بن ثابت (١) ، أما عندما ترجم صاحب الأغانى لكعب ابن مالك قال : أخبار كعب بن مالك الأنصارى ونسبه أما صاحب أسد الغابة فقال : كعب بن مالك الخزرجى (٢) •

---

(١) انظر الأغانى ج ٤ ص ١٤٣ وما بعدها ، وأسد الغابة ج ٢ ص ٥ وما بعدها •

(٢) انظر الأغانى ج ١٦ ص ٢٢٦ وما بعدها ، وأسد الغابة ج ٤ ص ٤٨٧ وما بعدها

والخزرجى نسبة الى قبيلة الخزرج بن حارثة بن ثعلبة ، وقبيلة الخزرج هى تلك القبيلة التى تقاسمت المجد والشرف مع قبيلة الأوس، وهما القبيلتان اللتان تكون منهما سكان يثرب قبل الاسلام ، وقبيلة الخزرج — أيضا — هى القبيلة التى أصهر اليها هاشم بن عبد مناف فكانوا أخوال عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأن أم عبد المطلب هى سلمى بنت عمرو النجارية(١) ، وهى القبيلة التى أقام فى كنفها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد هجرته الى المدينة وأقام مسجده على أرض كانت لهم (٢) .

والسلمى نسبة الى بنى سلمة بن سعد بن على بن أسد ، وهم خزرجيون يمانيون .

وكعب بن مالك له قدم راسخة فى قول الشعر ، حتى ان ابن سلام الجمحى وضعه تاليا لحسان بن ثابت ، فقد عنون لهم بقولهم « شعراء القرى » ووضع شعراء المدينة على رأس شعراء القرى الخمسة « المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين » ثم قال : « أشعرهن المدينة » ووضع شعراء المدينة مرتبين فقال : « شعراؤها الفحول خمسة : « ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس (٣) .

ثم وضع كعب بن مالك تاليا لحسان بن ثابت الذى وضعه على رأس شعراء الخزرج فقال : « وكعب بن مالك شاعر مجيد » (٤) .

غير أنه لم يذكر له شعرا قاله فى الجاهلية ، فقد أورد له جزءا من قصيدته التى قالها فى غزوة أحد ، ثم قول رسول الله — صلى الله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٦٨ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٩٥ المصدر السابق .

(٣) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢١٧ المصدر السابق .

(٤) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٢٠ المصدر السابق .

عليه وسلم — فى كعب الذى صدرنا به الفصل ثم حديثه عن تخلف كعب يوم تبوك ، فهل صنع ذلك ابن سلام ، لأنه لم يجد لكعب شعرا فى الجاهلية ؟ ، واذا كان الامر كذلك فهل تفتقت قريحة كعب بعد اسلامه ، فيكون قد قال الشعر وهو كبير ؟ واذا كان كعب قال الشعر بعد اسلامه فلماذا قال عنه الرسول — صلى الله عليه وسلم — ساعة أن التقى به فى المسجد الحرام الشاعر ؟ ان هذا القول من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعنى أن كعبا قد كان يقول الشعر وهو فى الجاهلية حتى ان شهرته وصلت الى مكة وتسامع عنها الجمية ، ثم ماذا نصنع بقول صاحب الأغانى : « وكان كعب من شعراء أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المعدودين وهو بدرى عقبى ، وأبوه مالك بن أبى كعب بن القين شاعر ، وله فى حروب الأوس والخزرج التى كانت بينهم قبل الاسلام آثار وذكر ، وعمه قيس بن أبى كعب شهد بدرا وهو شاعر أيضا ، وهو الذى حالف جهينة على الأوس » •

ثم يقول : « ولكعب بن مالك أصل عريق ، وفرع طويل فى الشعر ، ابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، والزبير بن خارجة بن عبد الله بن كعب شاعر ، ومعن بن عمرو بن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب أبو الخطاب شاعر ، ومعن بن وهب بن كعب شاعر ، وكلهم مجيد مقدم » (١) •

والأمانة العلمية تقتضينا أن نقف قليلا عند قول صاحب الأغانى : « أنه بدرى عقبى » فقد عرفنا من قبل أنه عقبى ، لأنه بايع الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليلة العقبة مع النفر المتقدم ذكرهم ، والوارد فى السيرة النبوية لابن هشام الذى ذكر أسماء جميع من بايع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى هذه الليلة ، أما كونه بدريا فلم يقل أحد بهذا الرأى ، حيث ان كعب بن مالك لم يحضر بدرا ، فقد

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ١٦ ص ٢٢٦ المصدر السابق

روى صاحب أسد الغابة بسنده أن كعب بن مالك قال : « لم أتخلف عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة غزاها حتى كانت تبوك الا بدرا ، ولم يعاتب النبى — صلى الله عليه وسلم — أحدا تخلف من بدر » (١) .

وهذا الكلام — كما يقول محقق أسد الغابة وارد فى الترمذى ومسند الامام أحمد ، فهو اذن ليس بدريا ، وكعب نفسه يعترف بذلك ، فهو يود لو أنه لم يحضر العقبة ، وحضر بدرا فأهل بدر قد وعدهم رسول الله الجنة عندما قال : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة(٢) فشرف حضور بدر شرف عظيم لم يرق اليه الا أولئك النفر الذين اختارهم الله اليه .

يقول كعب بن مالك عند حديثه عن تخلفه فى بدر ، ولم يعتب النبى — صلى الله عليه وسلم — أحدا تخلف عن بدر ، انما خرج يريد العير ، فخرجت قريش مغوثين لعيرهم ، فالتقوا عن غير موعد،ولعمرى ان أشهر مشاهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الناس لبدر ، وما أحب أنى كنت شهدتها مكان بيعتى ليلة العقبة حيث توافقنا على الاسلام .

وهناك أمر آخر وهو أن صاحب الأغانى لم يرو لكعب بن مالك شعرا جاهليا — كما صنع ابن سلام الجمحى ، ويبدو أن ذلك الأمر اشترك فيه شعراء يثرب الا حسان بن ثابت ، فقد كانت له شهرة قبل الاسلام ، ويبدو أن هذه الشهرة أتته من اتصاله بالغساسنة ، ومدحهم بقصائد بلغت حد الجودة أنه كان يعرضها فى سوق عكاظ كما

---

(١) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٨٨ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٦٢٧ المصدر السابق .

كان يصنع ذلك شعراء العصر الجاهلى ، أما الشعراء الآخـــرون فلم يهيأ لهم ما هيىء لحسان بن ثابت ، فلم يذع نتاجهم أو يتسامع به أحد، فهل يمكننا أن نستنتج أن شعر كعب فى الجـاهلية لم يرو لســبب أو لآخر ؟ أم أن كعب بن مالك قد تحرج من شعره الذى قيل فى الجاهلية ، فصرف النظر عنه ؟ انها افتراضات يملبها علينا موقف مؤرخى الأدب من شعر كعب فى الجاهلية لكن الأمر الثابت أنه قال الشعر قبل اسلامه، وهذا ما يقرره قول الرسول له : « الشاعر » ؟ .

وبعد أن هدأت نيران المعارك التى دارت على عهد رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اشتغل كعب بن مالك برواية الحديث ، فقد روى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أحاديث كثيرة ، وروى أبناؤه وأحفاده عنه هذه الأحاديث (١) .

ولم يغفل كعب بن مالك جانب الشعر ، فقـــد صرفه للأمور الاجتماعية ، فقد ورد فى الأغانى أن كعب بن مالك كان عثمانى النزعة، وهو أحد الذين عاونوا عثمان على المصريين ، وشهر سلاحه ، فلمـــا ناشد عثمان الناس أن يغمدوا ســيوفهم انصرف ، ولم ير أن الأمر يخلص اليه ، ولا يجرى القوم على قتله ، فلما قتل وقف كعب بن مالك على مجلس الأنصار فى مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنشـــدهم :

من مبلغ الأنصار عنى آية
رسلا نقص عليهم التبيانا
أن قد فعلتم فعلــة مذكــورة
كسف الفضوح وأبدت الشنآنا

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٤ ص ٤٨٨ المصدر السابق .

بقعودكم فى دوركم وأميركم
تحشى ضواحى داره النيرانا
بينا يرجى دفعكم عن داره
ملئت حريقا كابيا ودخانا
حتى اذا خلصوا الى أبوابه
دخلوا عليه صائما عطشانا
يعلون قلته السيوف وأنتم
متلبثون مكانكم رضوانا
الله يعلم أننى لم أرضه
لكم صنيعا يوم ذاك وشانا
يا لهف نفسى اذ يقول ألا أرى
نفرا من الأنصار لى أعوانا(١)

وقد كان كعب بن مالك من أولئك النفر الذين ظفروا بشرف المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين ، وهو شرف رفيع ، ذكره الله ـ سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

قال تعالى فى حق الأنصار : « والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » (الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحشر) .

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٢٣٨ المصدر السابق .

ولقد كان كعب بن مالك أخا لطليحة بن عبيد الله(١) وهى أخـوة فى الله أوجبتها عليهم الظروف ، وفرضـتها عليهم محبتهم فى الله — سبحانه وتعالى — وقد كانت هذه المؤاخاة لها حقوق وواجبات مثل ما للأخ من الصلب ، واستمر أمرها كذلك حتى نزل قوله تعالى : «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (سورة الأحزاب الآية ٦) .

ولقد كان الرجل قبل نزول آيات الميراث يوصى لأخيـه فى الله بماله ان حدث له أمر كما صنع حمزة بن عبد المطلب — رضى الله عنه — يوم أحد حين حضره القتال ان حدث به حادث الموت أن يرثه زيد بن حارثة الذى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قـد آخى بينهمـا (٢) .

واذا كان المؤرخون لم يذكروا شيئا عن حياة كعب قبل الاسلام، أو عن ميلاده ، بل لم يذكروا شيئا عن شاعريته الا ما كان من قـول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المتقدم فانهم لم يحددوا أيضـا تاريخا ثابتا لوفاته ، فقد قيل أنه توفى سنة خمسين للهجرة فى خـلافة معاوية بن أبى سفيان ، وقيل توفى سنة ثلاث وخمسين للهجرة ، وقد كانت سنه عند وفاته سبعا وسبعين سنة .

بلاؤه فى سبيل الدعوة :

واذا كانت حياة الناس تقاس بمدى تأثرهم وتأثيرهم ، أو تقاس بمدى تفاعلهم مع مجتمعهم قبولا لمـا يصلحه ، ورفضـا لمـا يسىء اليه ، أو تقاس بما أسدوه لهذا المجتمع من عمل على نهضته ورقيه ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٥٠٥ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٥٠٥ المصدر السابق .

وسعى به نحو حياة آمنة مستقرة فان كعب بن مالك قــد نال من ذلك نصيبا يذكر فيشكر ، وحظى بدور رائد فى سبيل رفعة مجتمعه ، فقــد استطاع مع جماعة الأنصار الذين بايعوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلة العقبة أن يجنب مجتمعه ويلات الحرب التى أكلت الأخضر واليابس ، وتمكنت من تحطيم قوة الأوس والخزرج ، بل انها مكنت لليهود فى يثرب وجعلتهم فى وضع يهدد أبناء العم الذين أنهــــكتهم الحرب ، وقضت على كثير من مواردهم •

وبيعة العقبة أحدثت تحولا خطيرا فى مجال الدعوة الاسلامية ، وفتحت أمامها آفاقا جديدة ، وجعلت المسلمين فى مكة يتطلعون لليوم الذى يتمكنون فيه من الهجرة الى يثرب واتخاذها مقرا لدعــــوتهم يمنحهم الله فيه الأمن والأمان ، ويجعلهم يعبدون الله دون أن يتعرضوا لأذى المشركين ، أو ينالوا منهم منالا ، ولم تمر فترة زمنية طويلة حتى تهيأ للمسلمين ذلك فهاجروا الى يثرب ، ومكن الله لهم ولدينهم فيها ، وأبدلهم الله من بعد خوفهم أمنا يعبدونه لا يشركون به شيئا •

وهكذا قام كعب بن مالك مع جماعة الأنصار بعمل بطولى سجلته لهم كتب السيرة ، وأبرزت هذا الدور بداية لانطلاقة ايمانية لها جمالها وجلالها ، ولعل كعب بن مالك قد أدرك خطورة هذا الدور ، وعظمــة هذا العمل ، فكان يعلن دائما أنه ود لو شارك فى غزوة بدر مكان بيعة العقبة ، والمفاضلة هنا توضح قيمة هذا العمل وعظمته •

ولقد مر بك آنفا أن كعب بن مالك قد نال شرف المؤاخاة ، فقــد آخى رسول الله ــ صلى الله عليــــه وسلم ــ بينه وبين طليحة بن عبيد الله ، وهو شرف لم ينله الا الصفوة من الأنصــــار الذين كانوا يتسابقون للحصول عليه ، حتى ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما وجد منهم ذلك التسابق أجرى القرعة بينهم حتى لا يتألم أحد

من حرمانه ذلك الشرف العظيم ، وكأن عناية الله وقفت الى جوار كعب، ليفوز بهذه المنزلة العظيمة •

ويستمر كعب بن مالك فى أداء دوره — كما ينبغى الأداء — ، حتى تكون غزوة بدر التى خرج اليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دون أن يلزم جميع المسلمين بذلك ، لأنه كان خارجا للعير لا للنفير ، فاذا بالجمعين يلتقيان ، وتأتى البشرى بالنصر العظيم وعندئذ يتألم جميع المسلمين الذين لم يشاركوا فى القتال ، ويصرح كعب بذلك ، بل يتحسر لما أصابه ، وكأنهم علموا أن أهل بدر قد غفر لهم ، وأنهم نالوا شرفا لا يرقى اليه أحد ممن بقى فى المدينة ، وعندئذ يكون الصراع الداخلى ، وتكون الآلام النفسية التى جعلتهم يعقدون العزم على أن يخوضوا كل معركة تحدث بين المسلمين والمشركين ، بل ان كعب بن مالك يقدم على عمل بطولى فى غزوة أحد •

فقد أحب كعب بن مالك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بقلب مؤمن ، وطبع لا تكلف فيه ولا استكراه ، صاحبه فى السلم والحرب ، حتى قيل ان مظهر كعب عن بعد كان يشبه الرسول — صلى الله عليه وسم — ففضل كعب بن مالك أن يكون هدفا لسهام المشركين فى أحد بدلا من الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « فلبس لأمته وكانت صفراء ، ولبس النبى لأمة كعب ، فجرح كعب أحد عشر جرحا، وعندما ظن الناس أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قتل فى أحد كان كعب بن مالك أول من عرف النبى سالما » قال عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر ، ولم يتمالك كعب من الفرح فراح ينادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأشار رسول الله أن أنصت » (١) •

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٨٣ المصدر السابق •

ولكن كعب بن مالك الذى كان له هذا الدور فى أحد ، وفى كل غزوة غزاها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وجدناه يتخلف عن غـــزوة تبوك التى تحدثت عنها كتب السير وكتب التفسير ، والروايات كلهـــا تتضافر على أن كعب بن مالك تخلف عن رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — دون عذر مقبول ، وكل الروايات تجمع — أيضا — على أن كعب بن مالك كان صادقا مع نفسه ساعة أن لقيه رسول الله يســـأله عن سبب تخلفه ، فقد جاء المتخلفون لرسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — يعتذرون له ، ويصفح عنهم ، وكان الرسول اذا قدم من سفر « بدأ بالمسجد فركع ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جـــاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله » (١) .

ولم يكن كعب من أولئك الذين دأبوا على النفاق ، وحـــاولوا استرضاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالأعـــذار الكاذبة ، والكلمات الخادعة ، لأنه يعلم أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يوحى اليه وقد تنزل الآيات تكشف أمر هؤلاء المنافقين ، وتفضـــح خداعهم ، يعلم كعب ذلك ويؤمن به ، فهل يصنع صنيع المنافقين ؟ أم يلزم جانب الصدق وهو جانب قد يغضب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ ولكنه لا مناص من اختيار الجانب الأخير ، لأنه يعـــلم أنه يخاطب موحى اليه ، فقال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما سأله : ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت يا رسول الله : انى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخـــرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لئن حدثتك اليوم حديث

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ عند تفسير سورة التوبة — ط الشعب .

كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه انى لأرجو فيه عقبى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك « (١) .

هكذا يكون صدق الرجل مع نفسه ، ويكون تعامله مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلمات كعب يتبين منها قدرة كعب على الجدل والغلبة على الخصوم ، لأنه أوتى جدلا وقدرة على الخروج من المآزق ، ولكنه لا يستخدم ذلك مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعلمه أنه يوحى اليه .

ولقد علم الرسول صدقه ، فقال — صلى الله عليه وسلم — أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » (٢) .

ويقوم كعب من حضره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونفسه تتقطر حسرة وألما ولكنه الصدق الذى يتحمل المرء فى سبيله ما يتحمل ، ولقد شاركه هذا الصدق رجلان من الأنصار هما : مرارة ابن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى وهما من صالحى الأنصار شهدا بدرا ، فوجد فيهما كعب تعزية وسلوى .

ولقد نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسلمين من التعامل مع هؤلاء الرجال الثلاثة بل وأمرهم بمفارقة أزواجهم،وتنعقد الأحداث ، وتتشابك الظروف ، وتعظم الأمور على كعب وصاحبيه ، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت ، وتضيق صدورهم بأنفسهم ، ويهرعون الى الخلاء والى قنن الجبال يناجون الله — سبحانه وتعالى — عله يمن عليهم بفيض من عنده ، فتشملهم رحمته ، ويعمهم رضوانه ،

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ٤ عند تفسير سورة التوبة .
(٢) انظر تفسير القرطبى ج ٤ عند تفسير سورة التوبة .

وبعد خمسين ليلة تنزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سورة التوبة ، وفيها حديث طويل عن المتخلفين من المنافقين ، ثم حديث عن قبول توبة أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم » (الآية ١١٧ من سورة التوبة) .

ثم حديث عن قبول توبة هؤلاء النفر الثلاثة قال تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » (الآية ١١٨ من سورة التوبة) .

والذى يقرأ ذلك فى كتب التفسير والسير يدرك مدى الغم الذى أصاب هؤلاء النفر الثلاثة ، ثم مدى الفرح والسرور الذى شملهم ساعة أن تاب الله عليهم » (١) .

ان هذا الدرس الذى لقنه كعب بن مالك جعله يلزم جانب الصدق فى حياته ، ويعلم أن الصادقين لهم فضل كبير عند الله — سبحانه وتعالى — .

وكعب بن مالك الذى شهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الغزوات كلها ذائدا عن الاسلام بسيفه مدافعا عن مبادئه بقوسه ، لم يكف عن مناصرة الاسلام بلسانه ، فكان فى مقدمة أولئك النفر الذين اختيروا للدفاع عن أعراض المسلمين ، والرد على أولئك المشركين الذين ثارت ثائرتهم عندما انتصر عليهم الرسول — عليه الصلاة والسلام — فى بدر ، بل أنهم لم يكتفوا بالحديث عن المعارك

(١) انظر تفسير القرطبى ج ٤ تفسير سورة التوبة ، وسيرة ابن هشام ج ٤ عند حديثه عن غزوة تبوك .

العسكرية ، وابراز قوتهم المـادية وانما راحوا يسلبون أعـــراض المسلمين ، ويسبون أولئك النفر الذين تغلبوا عليهم فى بدر فمـا كان من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا أن جنـــد لهم نفرا من الأنصار : حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، عبد الله بن رواحة فحملوا هذه المسئولية ، وأدوا دورهم أداء يجعلهم عند حسن ظن الاســلام والمسلمين بهم ، حتى ان صاحب الأغانى يروى بسنده « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف بباب كعب بن مالك فخـــرج فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أية فأنشـــــده ثم قال له ايه فأنشده ، ثم قال : ايه فأنشده (ثلاث مرات) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذاأشد عليهم من مواقع النبل » (١) .

ومن يقرأ قصائد كعب بن مالك يتبين منها مدى التـــأثير الذى أحدثته فى صفوف المشركين فعندما وقعت غـــزوة قـام شـــعراء المشركين يخففون وقع الهـزيمة على قريش ، ويعلنون لهم أن الحرب سجال وأن الدائرة ستدور على الأوس والخــــزرج ، فقال ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار ان كان معشر
أصيبوا ببدر كلهم ثم صـابر
فان تك قتلى غـودرت من رجالنا
فانا رجال بعدهم سـنغادر (٢)

فرد عليه كعب بن مالك بقوله :

عجبـت لأمر الله والله قــادر
عـلى ما أراد ، ليس لله قاهـر

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٢٣٣ المصدر السابق .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣ ، ١٤ المصدر السابق .

قضى يوم بـــدر أن نلاقى معشرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جــائر

ثم يقـــول :

وقد عريت بيض خفاف كأنها
مقاييس يزهيها لعينيك شــاهر

بهن أبدنا جمعهم فتبــــددوا
وكان يلاقى الحــين من هو فاجر

فكب أبوجهــل صريعــا لوجهـــه
وعتبــة قد غادرنه وهو عاثر

وشــيبة والتيمى غادرت فى الوغى
وما فيهما الا لذى العــرش كـافر

فأمسوا وقود النار فى مستقرها
وكل كفــور فى جهنم صـــائر (١)

وهكذا يقوم كعب بن مالك بدوره الرائد فى ســـبيل الدفاع عن الدعوة الاسلامية بسيفه ولسانه ، ويستمر كعب فى أداء هــذا الــدور حتى انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخــلافة ثم عمر — رضى الله عنهما ، فلم يذكر المؤرخون لكعب دورا فى هذه الحقيقة، حتى كان الصراع الذى احتدم بين عثمــان — رضى الله عنه — وبين الثوار فاذا بكعب بن مالك ينحاز الى جانب عثمان ، بل ويطالب عليا بن أبى طالب — كرم الله وجهه — بدمه بعد مقتله ، ثم يقول شعرا يحث فيه الأنصار على اداء دورهم والقصاص من قتلة عثمان ، رحم الله كعب ابن مالك ورضى عنه ، وجزاه الله عن دفاعه عن الاسلام أحسن الجزاء وأوفاه .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ المصدر السابق .

الفصل الثالث

أغراض شعره

قال معاوية يوما لجلسائه : أخبرونى بأشجع بيت وصف به رجل قومه ، فقال روح بن زنباع : قول كعب بن مالك :

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها اذا لم نلحق

فقال معاوية : صدقت(1) .

لقد اعتمد العرب فى نقدهم للشعر فى عصر صدر الاسلام ، وعصر بنى أمية على الذوق الذى اكتسبوه من سماعهم الشعر والشعراء ، ومن حبهم للنهوض بهذا الفن الذى اعتبروه بحق عنوان مجدهم ، ودليل عظمتهم .

ومعاوية بن أبى سفيان واحد من أولئك العرب الذين كانوا يعتمدون فى نقدهم على تلك النقدات التى كانت توجه الى أشعر بيت قالته العرب ، أو أشجع بيت قالته العرب ، أو أشعر الشعراء ، وكل ينظر الى زاوية يرى فيها لونا من ألوان المفاضلة .

فقد سأل عكرمة بن جرير أباه جريرا : من أشعر الناس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألنى أم الاسلام ؟ قال : ما أردت الا الاسلام فاذ ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم ، قلت : فالاسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر فى يده ، قلت : فالأخطل ؟ قال :

---

(1) الأغانى ج ١٦ ص ٢٣٦ المصدر السابق .

يجيد مدح الملوك ، ويصيب صفة الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟
قال : دعنى فانى نحرت الشعر نحرا » (١) •

فقد نظر جرير الى أشعر الشعراء من منظور خاص ، وقرر أن زهيرا أشعر شعراء الجاهلية ، وهو فى نظرته هذه يسير فى نفس الخط الذى سار فيه كثير من النقاد الذوقيين قبله حتى انهم قالوا ان سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فضل زهيرا على سائر شعراء الجاهلية ، عندما قال لابن عباس — رضى الله عنهما — أنشدنى لأشعر شعرائكم • قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال زهير • قلت : وكان كذلك • قال : كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه » (٢) •

وسيدنا عمر — رضى الله عنه — نظر الى زهير من منظور الصدق الفنى ، فهو لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع وحشية ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه ، وهى دلالات لها دورها فى تعميق دور الشعر ، وفى تفضيل من يتحلى بها على غيره الا أن هناك فريقا ممن لم ينظروا الى الشعر بالمنظور الأخلاقى كانوا يفضلون أمرأ القيس على غيره من الشعراء « فقد كتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء فى الجاهلية ، وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس ، وأضربهم مثلا طرفة ، وأما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم وجرير أهجاهم والأخطل أوصفهم »(٣) •

فالمفاضلة هنا لم تعتمد على المنظور الأخلاقى ، وانما اعتمدت على اجادة هذا الفن ، والتفاعل معه ، وقد كان امرؤ القيس من أوائل

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة جـ ١ ص ٧٩ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد • الطبعة الأولى •

(٢) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٦٣ المصدر السابق •

(٣) ابن رشيق : العمدة جـ ١ ص ٧٦ المصدر السابق •

الشعراء الذين لم يقولوا الشعر متكسبين به ، أو مدفوعين الى قوله بدافع خارجى ، وانما قال الشعر تنفيسا عن مكبوت صدره ، ومخبوء قلبه فجاء شعره صورة حية لما يعتمل فى صـــدره ، وما يجيش به فـؤاده .

ولقد سئل الحطيئة عن أشعر الشعراء فقـال : أبو دؤاد حيث يقـول :

لا أعد الاقتار عدما ولكـن
فقد من قد رزئته الاعدام

يقول ابن رشيق : « وهو وان كان فحـلا قديما ، وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ، ويروى شعره ، فلم يقل أحد من النقاد مقـالة الحطيئـة .

ومسألة ابن عباس « أى الحطيئة » مرة أخرى فقـال الـذى يقـول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وليس الذى يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

بدونه ، ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جـرولا ، والله لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، أما الباقون فلا شك أنى أشعرهم ، قال ابن عباس كذلك أنت يا أبا مليكة »(١) .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٧٩ المصدر السابق .

فالحطيئة — أيضا — نظر الى المفاضلة من زاوية خاصة قد تكون الظروف التى عاشها هى التى أملت عليه هذه المفاضلة ، لكننا لو نظرنا الى الشعر بالمنظور الفنى فان الأمر يتطلب منا أن ننظر الى الشاعر نفسه ، فهل كان الشاعر صادقا مع نفسه ساعة القيام بهذا العمل الأدبى ؟ وهل عايش تجربته كما تنبغى المعايشة ؟ وهل استحضر صوره وأخرجها اخراجا يوحى بأصالتها ؟ وهل ظهر فى عمله ما يوحى بعمق التجربة ، وما ينبىء عن تصويرها لما يعتمل فى صدور محبى فنه ؟

كل هذه الأسئلة يجب أن توجه الى الشاعر ، وأن يجد القارىء اجابة عنده • فاذا أمعنا النظر فى شعر كعب بن مالك فاننا نستطيع أن نتبين فيه الملامح المتقدمة ، ونستطيع أيضا أن نعده من شعراء صدر الاسلام الفحول كما عده ابن سلام فى مقدمة شعراء الحواضر ، ولا يمكن للقارىء أن يأخذ كلامنا قضية مسلمة ، أو يقبل منا أحكاما عامة ولن يؤمن بقولنا هذا حتى نقدم له الشعر ، ونعرضه على عينه عرضا يتبين فيه ملامح الأصالة ، ودلائل التمكن ، وقد رأيت أن أعرض شعر كعب عرضا مجملا فى صورة الأغراض التى برزت فى شعر كعب ، ومن خلال هذا العرض يستطيع القارىء أن يحكم على هذا النتاج قبولا أو رفضا •

لعل كثيرا من النقاد يتفقون على أن الشعر يعنى ذلك اللون من التعبير عما يجيش بأحاسيس الانسان وعواطفه ، ويعتمل فى صدره من تجارب شعورية تخدم المجتمع فى صورة فرد ، ولا يمكن لشاعر أن يخلد فنه الا اذا رأى فيه مستمعوه صورة حية لواقعهم ، وتبينوا من خلال قوله أنه يعبر عن مشكلاتهم التى يحتاجون المشاركة فيها ، فاذا انفصل الشاعر عن بيئته ومجتمعه مات ساعة ميلاده •

وهناك صنفان من الشعراء صنف يتخذ من الشعر صناعة ، ومن الفن تجارة يروجها فتدر عليه أموالا طائلة ، ومنحا كثـــيرة ، وصنف آخر لا يقول الشعر الا اذا آمن بما يقول ، أو أحب ما يشـــدو به من ألحان ، فان نال بذلك تقديرا أو أصاب شهرة ومالا فلا ضـــير عليه فى ذلك .

وقد كان كعب بن مالك من الصنف الثانى لم يتخذ الشعر صناعة، ولم يقل كلماته ينتظر من ورائها مالا أو عطية ، وانما قال الشعر تلبية لـــا يحس به نحو الدعوة الاسلامية التى احتاجت فى فترة من فتراتها الى ألسنة المؤمنين بها ؛ ليدافعوا من عقيدتهم بلسانهم كما دافعـــوا عنها بسيوفهم ، فصدر الشعر من قلب كعب وفكره صدورا طبعيـــــا لا تكلف فيه ولا استكراه ، وجاء نتاجه صورة حية لـــا يجيش بصدره من قضايا وأفكار ، واذا فتشت فى شعره فلن تجد الا هـــذه المؤثرات التى تأثر بها قلبه ، وتحركت بها عواطفه وأحاسيسه ، فأخـــرجها الى الوجود كائنا حيا ينم عن قدرة فنية ، وملكة شعرية لا يمكن لها أن تكون وليدة فترة زمنية محدودة .

لقد وضع العرب نظاما تعارفوا عليه للقصيدة العربية ، وساروا عليه منذ أن فتق لهم امرؤ القيس فن الشعر ، ومنـــــذ أن هلهله لهم المهلهل بن ربيعة وأصبح ذلك النظام قاعدة ينطلق منها كل من يريد قول الشعر ، حتى ان امرأ القيس قد اعترف بأنه يسير فى ذلك النظام على منهج السابقين عليه ، فهو يقول :

عوجا على الطلل المحيـــل لعلنا
نبكى الديار كما بكى ابن خـــــذام

وابن خذام هذا شخصية ضاربة فى القدم لم يذكر عنها التاريخ شيئا ، أو لعلها هى الشخصية التى تسامع العرب بها وبدورها فى أولية

الشعر العربى ، حتى ان عنترة بن شداد يعترف — أيضا — أن القدماء قد قعدوا لهم القواعد فوصل نظام القصيدة اليهم على صورة لا يمكن لأحد أن يزيد عليها شيئا ، فهو يقول فى مطلع طويلته :

هل غادر الشـــعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

يتمثل ذلك النظام فى بدء القصيدة بذكر الأطلال ووصف الديار ، والتشبيب بالظاعنات ، ثم طرح القضايا التى يريد الشاعر الحـديث عنها ، ثم ذكر شيء من الحكم تختتم به القصيدة ، وكل الشــعراء فى العصر الجاهلى ساروا على هذا النظام لم يشـذ منهم أحد الا ما كان من بعض الشـــعراء الذين دخلوا دخولا مبـاشرا الى الغرض الذى أرادوا التعبير عنه •

ولم يتحرج أحد من الشعراء أن يذكر الأطلال والديار أمام أى مجتمع أو أية شخصية ، فهو نظام متعارف عليه لديهم ، حتى ان كعب ابن زهير عندما قال قصيدته التى اعتذر بها لرســول الله — صلى الله عليه وسلم — بدأها بذلك البدء التقليدى فقال :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبــول
متيم اثرهــا لم يفــد مكبـــول

وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبــد الله بن رواحة كانوا حريصين على التزام نهج السابقين ، لأنهم يؤمنــــون بما يؤمن به الجميع من أن هذا الشعر هو ديوان العرب وسجل مفاخرهم ، والمعبر عن أخبارهم ومآثرهم •

ولكن هذا النهج الذى سلكوه هو النهج الذى يعطيهم القدرة على التعبير عن أفكارهم بنفس الوتر الذى ضرب عليه سابقوهم ، أما أن

يصنعوا مثل ما صنع امرؤ القيس أو الأعشى أو النابغة فهـــذا أمر مرفوض من قبلهم ، ذلك أنهم عبروا عن مثل وآخلاقيات تنفر من تلك الأغراض التى قال فيها الجاهليون من وصف المرأة ، والتبذل فى التغزل بها ، لكنهم بدأوا قصائدهم بما بدأ به غيرهم ، فذكروا المرأة ، ولكنـــه الذكر الذى لا ينم عن تعهر أو تبذل ، فحسان مثلا يقـــول فى أول قصيدته التى تحدث فيها عن غزوة بدر :

عرفت ديار زينب بالكثيب
كخط الوشم فى الورق القشيب

وقال حسان فى قصيدة ثانيه فى بدر أيضا :

تبلت فؤادك فى المنـــام خريدة
تسقى الضجيع ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة
أو عاتق كدم الذبيح مدام (١)

أما كعب بن مالك فقد هزه النصر الذى نصره المسلمون فى بدر ، وهزه أيضا ذلك النهج الذى سلكه المشركون للتقليل من قيمة هـــذا النصر فدخل فى غرضه دون مقدمات فقال :

عجبت لأمـــر الله والله قـــادر
على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جائر (٢)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٦ ، وسبل الهدى والرشـــاد جـ ٤ ص ١٩٨ . وتبلت : أسقمت ، والخريدة : الجارية الحســـنة الناعمة ، العاتق : الخمر القديمة ، والمدام : اسم من أسماء الخمر .

(٢) السـيرة النبوية جـ ٣ ص ١٤ ، وســبل الهدى والرشـــاد جـ ٤ ص ١٩٨ .

وقال فى مطلع قصيدته التى يرثى بها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب بعد غزوة أحد :

طرقت همومك فالرقاد مسهد
وجزعت أن سلب الشباب الأغيد(١)

أما الأغراض التى غلبت على شعر كعب فهى أغراض يخدم من خلالها الدعوة الاسلامية فقد يقول الشعر يصف به معركة من المعارك، أو غزوة من الغزوات ، وهذا الغرض غالب على شعره ، فقد سجل المعارك لتى خاضها المسلمون تسجيلا رائدا وما ذلك الا لأنه — كما قلت سابقا — شاعر فارس لم يتخلف عن معركة من المعارك الا عن غزوة بدر وتبوك ، وحتى بدر قال فيها قصيدة ، وان كان لون النقائض باديا عليها الا أنها تصف ما حل بالمشركين فى بدر فهو يقول :

فلما لقيناهم وكل مجاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره
وان رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها
مقاييس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعا لوجهه
وعتبة قد غادرنه وهو عاثر (٢)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٥٧ ، وسبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٤ .

وإذا كان كعب قد صرف شعره للرد على المشركين ، وابراز الدور البطولى الذى قام به الصحابة فى المعارك التى خاضوها فانه يمكننا من خلال استعراضنا لهذا الشعر أن نتعرف على أبرز الأغراض التى تناولها كعب والتى تتمثل فى الفخر والمدح والهجاء والرثاء والنقائض .

١ — الفخـــر :

الفخر من الأغراض التي تناولها كثير من الشعراء ، فهو الغرض الذى يسجل به الشاعر مآثر نفسه ، أو مآثر قومه ، ومن هنا فان العرب — كما يقول ابن رشيق — كانوا اذا نبغ فيهم شاعر أتت القبائل فهنأتها، وأقامت الأفراح أياما كثيرة كما يصنع فى الأعراس ، وما ذلك الا لأن الشاعر لسان القبيلة الناطق وعقلها المفكر ، وقلمها المعبر يحدو شبابها فى الحرب ، ويحمس فتيانها عند التقاء الجمعين .

ولقد رأينا شعراء انطبع على شعرهم ذلك اللون من الفخر لكنهم اختلفوا فى تناوله فمنهم من قصر فخره على نفســه يمجد بطولتهــا ، ويسجل مآثرها ، ويذكر دورها فى القتال وفى ساحة النزال ، ومنهم من جعل فخره متوجها الي قبيلته يضع على رؤوس رجالها هالات من الورود وأكاليل من الزهور .

لقد مثل الصنف الأول عنترة بن شداد العبسى الذى أشاد بمجده الشخصى فكان صورة للشاعر الذى صرف شعره لذاته ، لأنه لم يجــد من قومه منصفين يحترمون ذاته ، ويعترفون بآدميته فهو يقول مفتخرا بنفسه :

هلا سألت الخيل يابنة مالك
ان كنت جــاهلة بمـــا لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعـــة أننى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فعنترة لا يذكر قومه ، ولا يتحدث عن دورهم فى المعارك معه ،و انما يبرز دوره البطولى فى خوض المعارك ، ثم عفته ساعة تقسيم الغنائم ، لأنه لم يحارب من أجلها ، وانما حارب حبا للبطولة ، ورغبة فى المجـد والرجولة •

أما عمرو بن كلثوم فانه مثل الصنف الثانى من الشعراء الذين افتخروا بقبائلهم وسجلوا مآثر قومهم فى كل المحافل ، لأنه أحس أنه عظيم بقومه ، سـيد بنصرتهم زعيم باقدامهم ، فهو فرد فى أمه يندمج فيها ، ويتفاعل معها ، حتى ان القارىء لشعره يراه يسـتخدم ضـمير انجمع كثيرا فهو يقول فى بدء معلقته :

ألا هبى بصحنك فاصـبحينا
ولا تبقى خمـور الأندرينـا

ثم يقـول :

بأى مشـيئة عمـرو بن هند
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

ثم يقـول :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كـدرا وطينـا

واذا ذهبنا نتصفح شعر كعب بن مالك فاننا نجده قد سلك النوع الثانى من الفخر وهو الفخر الجماعى ، لكنـه لم يصرفه الى التغنى بأمجاد قبيلته ، أو بطـولة قومه ، وانمـا صرفه الى التغنى بأمجـاد المسلمين ، وابراز ما أحدثه الدين الجديد فى قلوب هؤلاء الناس من محبة واخاء واذ كان ينزع أحيانا الى الفخر بقومه من الأوس والخزرج فانما يصنع ذلك عندما يرى من شعراء قريش حطا من دور الأنصار ،

ونقليلا لشأنهم ، وسخرية بقتالهم ، فهو يقول فى الرد على ضرار بن الخطاب بعد غزوة بدر الذى قال :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
عليهم غدا والدهـر فيـه بصـائر
وفخر بنى النجـار ان كان معشر
أصيبـوا ببـدر كلهـم ثم صـابر

ثم يقـول :

فان تظفـروا فى يوم بدر فانمـا
بأحمد أمس جـدكم وهو ظـاهر

ثم يقول بعد أن يذكر دور المهاجرين فى هذه الموقعة ، وأنهم هـم الذين أحرزوا النصر لا أولئك النفر من الأوس والخزرج :

أولئك لا من نتجت فى ديارها
بنوالأوس والنجارحين تفاخر(١)

يقول كعب بن مالك فى الرد على ضرار بن الخطاب :
وفينا رسول الله والأوس حوله

له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه
يمشون فى الماذى والنقع ثائر

فهو لم ينكر دور رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقيادته للمعركة ، ولكنه لم يهمل ذلك الدور الذى قام به الأوس والخزرج فيقول:

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٣ — ١٤ المصدر السابق .

فلما لقيناهم وكل مجـــاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره
وأن رسول الله بالحق ظاهر(١)

ولقد سلك ذلك المنهج شعراء الرسول — صلى الله عليه وسلم — فهم يبرزون دور المسلمين فى المعركة ، وينحون باللائمة على المشركين الذين فروا من المعركة وولوا الأدبار بقول حسان بن ثابت فى الرد على الحارث بن هشام :

لقد علمت قريش يوم بدر
غداة الاسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر العـــوالى
حماة الحرب يوم أبى الوليد
قتلنا ابنى ربيعة يوم ســارا
الينـــا فى مضـــاعفة الحديد
وفر بها حكيم يوم جـــالت
بنو النجار تخطر كالأســـود
وولت عند ذاك جموع فهر
وأسلمها الحويرث من بعيد
لقد لاقيتـــم ذلا وقتـــلا
جهيزا نافذا تحـــت الوريد
وكل القوم قد ولوا جميعـــا
ولميلووا علىالحسب التليد(٢)

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٤ ، ١٥ المصدر السابق .
(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٩ المصدر السابق .

فالفخر عند شعراء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وظفوه للفخر بالدين الجديد ، والفخر بقيادة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والفخر بنصر الله سبحانه وتعالى لهم ، يقول كعب بن مالك من قصيدة يرد فيها على هبيرة بن أبى وهب الذى عير المسلمين بهزيمتهم يوم أحد:

اذا جاء منا راكب كان قوله
أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع
فمهما يهم الناس مما يكيدنا
فنحن له من سائر الناس أوسع
فلو غيرنا كانت جميعا تكيده الـ
برية قد أعطوا يدا ، وتورعوا
نجالد لا تبقى علينا قبيلة
من الناس الا أن يهابوا ويفظعوا(١)

ثم يذكر دور رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويفتخر بنزول جبريل عليه وهو فخر ــ لا شك ــ له دلالته ، وله جدته فيقول :

وفينا رسول الله نتبع أمره
اذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه
ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصدنا
اذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا
الى ملك يحيا لديه ويرجع(٢)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٢ ، ١٣٣ المصدر السابق .
(٢) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٣ المصدر السابق .

وهكذا يجد الدارس لشعر كعب أن الفخر عنده مثل حياة المسلمين فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الاسلام أصدق تمثيل ، وأظهر حب المسلمين لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهم يقتدون به ، ويطيعون أمره ، ويعتزون برئاسته ، ولعله فى ذلك يرد على المشركين الذين لا يتمتعون بهذه الأخلاق وتلك السجايا ، واذا قرأت شعر كعب فانك تجده كثيرا ما ينزع الى هذا اللون من الفخر الجماعى ، بل قل ان ذلك سمة غالبة على شعراء الدعوة الاسلامية الذين افتخروا بدينهم وبطولة اخوانهم •

٢ — المدح :

اما المدح فانه لم يكن من الأغراض التى يطرقها الشعراء كثيرا ، وخاصة فى العصر الجاهلى ، ذلك أن العربى معتز بنفسه ، وهو لا يمكن له أن يجعلها تذوب فى شخص غيره ، ولم نجد من الشعراء المداحين الا قلة قليلة طرقت باب الملوك ، ومدحتهم كالنابغة الذبيانى الذى مدح النعمان بن المنذر ، والأعشى الذى كانت مدائحه تذوب رقة وعذوبة ، حتى انهم قالوا انه قال قصيدة مدح فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولكن قريشا صدته خوفا من ذيوع قصيدته •

ولقد مدح زهير بن أبى سلمى هرم بن سنان والحارث بن عوف عندما تحملا ديات القتلى فى حرب داحس والغبراء فقال فيهما :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وهو مدح كما ترى يبدو فيه ابراز العظمة التى من أجلها استحق هرم بن سنان والحارث بن عوف مدح زهير لهما ، فهما قد قاما بعمل بطولى سجله لهم الشعر ذلك العمل يتمثل فى العمل على انهاء تلك الحرب التى وقعت بين عبس وذبيان والتى راح ضحيتها كثير من الأبرياء .

ولا يعاب على زهير ذلك النهج الذى سلكه فى مدح هذين الرجلين، فهو لم يتخل عن شخصيته ، أو لم يذبها فى هذين الرجلين — كما يصنع الشعراء المداحون — وانما يتخير النماذج التى اثرت فى مجتمعها ،والتى تمثل الصورة المضيئة ، والنموذج الذى يجب أن يحتذى .

واذا كان حسان بن ثابت قد مدح الغساسنة — قبل الاسلام — بفرائد شعره ، فمنحوه هباتهم وجوائزهم فانه لم يسلك ذلك النهج فى حياته الاسلامية بل انه اتخذ من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الأنموذج الذى جعله هدفا لمدحه ، وابراز فضائله وعظمته ، وهو جانب مضىء فى شعر حسان بنثابت ، ومن يقرأ رده على وفد تميم يرى فيه ذلك الجانب مشرقا .

لقد بدأت الدعوة الاسلامية تأخذ طريقها الى قلوب الناس وعقولهم فلم يكن أمامهم بعدئذ الا شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى كان يتعامل معهم كواحد منهم ، وكان يطلب منهم دائمـا أن لا يعظموه كما كانت تعظم الأعاجم ملوكها ، بل روى عنه قوله : « ما أنا الا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ، ومن هنا فان الشـعراء صرفوا جهدهم كله لنصرة الدعوة الاسلامية ، جاء ذلك واضحا فى مدح كعب بن زهير لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد جاء كعب معتذرا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — معلنا له ولاءه واسلامه ، فى تلك القصة التى روتها كتب الأدب والسير ، وألقى بين يدى رسول الله قصـيدة

« بانت سعاد » فاذا بكعب لا يمدحه كما كان يمدح الملوك والأمراء ، وانما مدحه بأنه رسول الله ، وان رسالته نزلت تحمل معجزة القـرآن الكريم ، وأنه يجلس بين هالة من رجالات قريش تحملوا عبء الـدفاع عن الدعوة الاسلامية :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب وان كثرت فى الأقاويل

ثم يقـول :

ان الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقـــاء ولا ميل معـازيل
شـم العرانين أبطال لبوسـهم
من نسج داود فى الهيجا سرابيل(١)

ولقد سار كعب بن مالك فى نفس الطريق التى سار فيها غيره من شعراء صدر الاسلام فلم يوجه مدحا لرسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ الا ما كان مناسـبا لرسـالته ، وتبليغها الى الناس ، وتلك المثـاليات التى جاءت بهـا الدعوة الاسـلامية ، ثم مـدح كعب تلك البطولة والشجاعة التى كان يبديها الأبطال من المسلمين فى هذه الغزوات

(١) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ١٠١ ، وانظر السـيرة النبوية جـ ٣ ص ٥٠١ ـ ٥١٣ .

التى غزاها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو مدح شبيه بالفخر الجماعى الذى سبق الحديث عنه ، يقول فى غزوة الخندق يرد على ضرار بن الخطاب :

صبرنا لا نرى لله عدلا
على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبى وزير صدق
به نعلو البرية أجمعينا
فقاتل معشرا ظلموا وعقوا
وكانوا بالعداوة مرصدينا

ويقول متحدثا عن سعد بن معاذ الذى أصيب فى هذه الغزوة .

فاما تقتلوا سعدا سفاها
فان الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات
تكون مقامة للصالحينا(١)

لقد كان — اذن — مدحا يبرز هذا الدور الذى قام به المسلمون فى نصرة الدعوة الاسلامية ، وليس مدحا بتلك الصفات التى يحب الملوك أن يمدحوا بها ، حتى ان مدحهم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان مدحا يتمثل فيه روح الاسلام ، وما جاءهم به — صلى الله عليه وسلم — من خيرى الدنيا والآخرة ..

يقول كعب بن مالك بعد غزوة بدر مفتخرا ومادحا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ المصدر السابق .

لعمــرو أبيكما يابنى لــؤى
على زهو لديكم وانتخاء(١)
لمــا حــامت فوارســكم ببــدر
ولا صبروا به عند اللقاء(٢)
وردناه بنـــور الله يجــلو
دجى الظلماء عنا والغطــاء
رســول الله يقــدمنا بأمر
من أمر الله أحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببــدر
وما رجعوا اليكم بالســواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب
جياد الخيل تطلع من كداء(٣)
بنصر الله روح القدس فيها
وميكال ، فيا طيب الملاء(٤)

فالمدح اذن — عند كعب — ليس مدحا تقليديا يذكر فيه المــادح مآثر الممدوح • ومناقبه ، وانما هو مدح ممزوج بالفخر توخي فيه كعب هنا أن يذكر أنهم انتصروا ، لأن الله بدد أمامهم الظلمات ، ولأن رسول الله يقدمهم — منفذا أمر الله — سبحانه وتعــالى • ثم انه يبرز دور الملائكة فى هذا النصر العظيم ، وهو جانب له جدته ، ودلالته على مدى ما أحدثه المسلمون من تغيير فى بناء القصيدة العربية •

---

(١) الانتخاء : الاعجاب والتكبر •
(٢) حامت : امتنعت من الحماية وهى الامتناع •
(٣) كداء : موضع بمكة •
(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦ ، والملاء : أراد به الملأ وهم أشراف الناس وسادتهم •

٣٠ ــ الهجـــاء :

اذا كان المدح ذكر المآثر والاشادة بها فان الهجاء سلب هـــــذه المآثر والحط منها ، انه الصاق النقائص بالمهجو ، والهجاء قد يتوجـــه الى فرد ، أو الى جماعة ، فمن الأول قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

ومن الثانى قول الشاعر :

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبـــا بلغـــت ولا كلابا

والهجاء من الأغراض التى لم ترد فى شعر شاعر فى صورة مستقلة فهو لا يشبه الوصف أو المدح أو الفخر ، وانما ترد أبياته متناثرة من خلال شعر الوصف أو شعر الفخر أو شعر النقائض كما يأتى الحديث عن ذلك ، ولقد تقدم رد حسان بن ثابت على أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عندما هجا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال لـــه حسان :

أتهجـــوه ولســـت له بكفء
فشركما لخـــير كمـــا الفداء

ولقد جاء هجاء كعب بن مالك صورة لذلك ، فقد وجه هجاءه الى بعض الأشخاص الذين كانوا يهجون رسول الله والمسلمين ، وأحيانا كان يوجه للمشركين جميعا ، أولئك الذين حاربوا المسلمين ، وقاوموا الدعوة الاسلامية ، فمن الأول قوله يهجو عبد الله بن الزبعرى الشاعر الذى وجه كثيرا من شعره لهجاء المسلمين .

فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى
لكم طلب من آخـر الليل متبـــع

فســـل عنك فى عليـــا معــد وغيرها
من الناس من اخزى مقاما وأشـــنع
ومن هو لم نترك له الحرب مفخـــرا
ومن خـــــده يـــوم الكريهـــة أضرع
شددنا بحـــــول الله والنصر شـــدة
عليكم وأطـــراف الأســـنة شرع(١)

وقال كعب يهجو جماعة المشركين الذين قتلوا فى بدر :

فكب أبو جهل صريعا لوجهـــه
وعتبة قد غادرنه وهو عـــاثر
وشيبة والتيمى غادون فى الموفى
وما منهما الا لذى العرش صائر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها
وكل كفور فى جهنـــم صـــائر
تلظى عليهم وقد شب حميهـــا
بزبر الحديد والحجارةساجر(٢)

وقد كان كعب بن مالك عفا فى هجائه لا يذكر الفاحش من القول كما كان يصنع حسان بن ثابت ، ولذلك فانه اقتصر على المعانى السلبية التى تقابل المثل والمناقب وهذا الأسلوب ــ كما يقول ابن قتيبة ــ هو أهجى الأساليب ، فكلما كثرت الأضداد فى شعر الهجاء كان أهجى .

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٣٥ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٥ المصدر السابق وزبر الحديد : قطع الحديد .

ولقد كان كعب يخلط هجاءه بالفخر والتهديد والوعيد ، ولقـــد مر بك قوله :

قضينا من تهـامة كل ريب
وخيبر ، ثم أجمعنا السيوفا
تخبرها ولو نطقت لقـالت
قواطعهن دوسـا أو ثقيفـا

فقالت قبيله دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف ٠

وكان كعب أحيانا يسلك طريق التعيير بالشرك وعبـادة الأصنام والأوثان وسوء المنقلب كما مر بك فى قصيدته فى غزوة بدر ، وحديثـه عن أبى جهل وعتبة وشيبة ، ومن قتل فى هذه الغزوة من المشركين ٠

ولعل أبرز ما يظهر لنا فى أسلوبه ـ أيضا ـ حديثه عن اليهـود من بنى النضير وعن زعيمهم كعب بن الاشرف ، فقد ناقشهم فى قضايا دينية تتمثل فى أن الله أنزل عليهم كتابا ، وأن هذا الكتاب حدثهـم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنهم حرفوا الكلم عن مواضعه فقال :

لقـد خـزيت بغـدرتها الحبـور
كذاك الدهـر ذو صرف يدور
وذلك أنهـم كفـروا برب
عـزيز أمـره أمر كبـير
وقد أوتوا معا فهمـا وعلمـا
وجـاءهم من الله النـذير(١)

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٩ المصدر السابق ٠

وهكذا يعطينا كعب بن مالك تصورا للهجاء الاسلامى الذى يعتمد فيه الشاعر على ذكر بعض المثـالب التى يراها جديرة بالذكر خليقـة بالذيوع والانتشار ، فاليهود يعلمون بعثة رسول الله ، وقد ذكرت لهم كتبهم ذلك ، ولكنهم كفروا أمر ربهم ، وخالفوا تعاليمه •

٤ ــ الرثاء :

الرثاء ذكر محاسن الميت ، وتعداد مآثره ، وهو ضرب من المدح ، ولكنه مدح الأموات الذين رحلوا عن الدنيا ، وعاطفة الرثاء ــ كمـا يقولون ــ أقوى من عاطفة المدح ، ذلك أن المادحين يمدحون للرجاء ، أما الراثون فانهم يرثون للوفاء ، وفرق بينهما ، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والاستعظام ان كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا كما قال النابغة فى حصن بن حذيفة بن بدر •

يقولون حصن ، ثم تأبى نفوسهم
وكيف بحصن والجبال جنـوح
ولم تلفظ الموتى القبور،ولم تزل
نجوم السماء ، والأديم صحيح
فعما قليـل ثم جـاء نعيـه
فظل ندى الحى وهو ينوح(١)

ولقد وعى التاريخ مراثى الخنساء فى أخيها صخر فهى تقول :

وان صخرا لها دينـا وسـيدنا
وان صخرا حين نشتو لنحار
وان صـخرا لتـأتم الهـداة به
كـأنه علـم فى رأسـه نار

(١) ابن لشيق : العمدة ج ٢ ص ١٤٠ المصدر السابق •

ولقد رثى كعب بن مالك ، ولكن رثاءه وقفه على أولئك الشـــهداء الذين استشهدوا فى الحروب الدائرة بينهم ، وبين المشركين ، فلقد رثى حمزة بن عبد المطلب سيد شهداء أهل الجنة الذى استشهد فى غزوة أحد فقال :

ولقد هددت لفقد حمـــزة هدة
ظلت بنات الجـــوف منها ترعد
ولو أنه فجعت حـــراء بمثلـــه
لرأيت رأسى صخرها يتبهـــدد
قرم تمكن فى ذؤابة هاشــــم
حيث النبوة والندى والسؤدد

ويتخذ كعب بن مالك من قرابة حمزة للرسول منطلقـــا لتحميس الجنود فى أن أقرب المقربين لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قد نال الشهادة فيقول :

عم النبى محمـــــد وصفيه
ورد الحمام فطاب ذاك المورد
وأتى المنية معلما فى أسرة
نصروا النبى ومنهم المستشهد

ثم يتخذ من ذلك منطلقا لتذكير المشركين بما نزل بهم فى بدر ، وكأنه يقول لهم لا تغتروا بهذا النصر الوقتى ، فلقد انتصرنا عليكم من قبل فى بدر ، ويعدد قتلى المشركين من عتاتهم فيقول :

وببئر بدر اذ يرد وجـــوههم
جبريل تحت لوائنـــا ومحمــــــد
فأقام بالعطن المعطن منهم
سبعون عتبة منهم والأسود

وبعد أن يعدد هؤلاء القتلى يختم القصيدة بأن قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار فيقول :

شــتان من هو فى جهنم ثاويا
أبدا ومن هو فىالجنان مخلد(١)

وله شعر كثير فى رثاء شهداء المسلمين • سيأتى الحديث عنــه فى موضعه ، من ذلك قصيدته فى رثاء شهداء مؤتة يقول فى مطلعها :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحاكما وكف الطباب المخصل(٢)

وعلى ذلك نستطيع القول بأن الرثاء عند كعب بن مالك لم يوجــه لأحد من ذويه ، بل كان وقفا على من تمثلت فيهم فكرته الدينيــــة ، واردته الخيرة كالرسول ــ صلى الله عليه وســلم ــ وعثمان وحمزة ، ومن استشهد من الصحابة فى معارك الاسلام الأولى •

٥ ــ النقـــائض :

على الرغم من أن هذا المصطلح لم تتضح معالمه الا فى عصر بنى أمية على يد الشاعرين الكبيرين الفرزدق وجرير الا أنه يمكننا أن نعد ذلك امتدادا لمــا حدث فى صدر الاسلام ، فقد تقدم الحــديث عن أن هناك شعراء كانوا يقومون بهجاء المسلمين ويثلبون أعراضــهم ، فقام حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة يدافعــون عن المسلمين . ويذكرون مثالبهم والرد عليهم بمثل ما يصنعون •

حقيقة أن كثيرا من شعراء المشركين قد أسلم وحسن اســـلامه كعمرو بن العاص ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فحذفوا كل

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٥٧ ، ١٥٨ المصدر السابق •
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ المصدر السابق •

شعر قالوه فى مرحلة ما قبل الاسلام لكن شعر المسلمين قد بقى دليلا على أنه شعر تصدى للدفاع عن الدعوة الاسلامية ، لكن سيرة ابن هشام قد حملت لنا أيضا بعض القصائد التى قيلت والتى رد عليها شعراء الدعوة الاسلامية ، فقد تقدم الحديث عن قصيدة ضرار بن الخطاب ابن مرداس فى يوم بدر والتى يقول فيها :

عجبت لفخر الأوس والحين داثر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار ان كان معشر
أصيبوا ببدر كلهم ثم صائر (١)

والقصيدة كلها مدونة فى سيرة ابن هشام ، وكذلك رد كعب بن مالك الأنصارى عليه فى قصيدته التى يقول فى مطلعها :

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد ليس لله قاهر (٢)

وعندما قال عبد الله بن الزبعرى يبكى قتلى بدر من المشركين وهى قوله :

ماذا على بدر وماذا حوله
من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها
وابنى ربيعة خير خصم فئام (٣)
والحارث الفياض يبرق وجهه
كالبدر جلى ليلة الاظلام

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٣ ، ١٤ ٠
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٤ ، ١٥ ٠
(٣) الفئام : الجماعات من الناس ٠

والعـــــاصى بن منبه ذا مرة
رمحا تميما غير ذى أوصام (١)
تنمى به أعـــرافه وجـــدوده
ومآثر الأخـــوال والأعمـــام
واذا بكى باك فأعـــول شجوه
فعلى الرئيس الماجد ابن هشام
حيا الاله أبا الوليـــد ورهطه
رب الأنام وخصهم بسلام(٢)

أجابه حسان بن ثابت الأنصارى فقال :

أبك بكت عينـــاك ثم تبـــادرت
بدم تعل غـــروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تتابعـــوا
هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدا ذا همة
سمح الخلائق صادق الاقـــدام
أعنى النبى أخا المكارم والندى
وأبر من يولى على الاقســـام
فلمثله ولمثل ما يدعـــو له
كان المدح ثم غير كهام (٣)

وكلتا القصيدتين مدونتان فى سيرة ابن هشام وكذلك صـــــنع ابن هشام فى كثير من القصائد التى ذكرها لحسان بن باثت أو كعب بن

(١) المرة : القوة والشدة ، والتميم : الطويل ٠ الأوصام : العيوب ٠
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٥ ، ١٦ المصدر السابق ٠
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ١٦ المصدر السابق والكهام : الضعيف ٠

مالك ، وفى ذلك دليل منه على الحيدة التامة ، لكن هناك نصوصا تورع الشعراء أنفسهم من ذكرها فحذفوها ، لأن فيها نيلا من رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

هـــذه هى الأغراض التى غلبت على شـــعر كعب بن مالك ، لكن الأمر الذى يجب التنبيه عليه هو أن هذه الأغراض لم تأت فى قصائد كاملة ، بل انك تجد كل قصيدة يمكن أن تحمل المدح والرثاء والهجاء والفخر والوصف ، لأن شعر كعب وجهه لنصرة الدعوة الاســـلامية ، فهو يتخذ من المواقف التى يقول فيها منطلقا لوصف الحرب وللفخـــر على المشركين أو هجائهم ولمدح رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ومن معه من جند المسلمين ، ولهذا فان الأمر يقتضينا أن نقف عـــلى بعض القصائد التى قيلت فى مناسبات مختلفة وأن نتبين ما جاء فيها من هذه الأغراض السابقة ،وهو أمر سيخرجنا عن الخطة التىوضعناها للبحث والتى تتمثل فى العرض السريع ، للوصول الى شـــعر الغزوات عند كعب بن مالك حتى نتبين من خلاله دوره فى تسجيل هذه الغزوات.

الباب الثانى

الغزوات فى شعر كعب بن مالك



الفصل الأول

تسجيله لأحداث الغزوات

لقد أدى الشعر العربى دوره المنوط به فى كل مناحى الحيـاة ، حتى أضحى الشعر وكأنه ريشة الفنان يمسكها بيده فيرسم بهـا كل ما تقع عليه عينه . أو أنه مثال يقوم باستنطاق شخوصه ، وجعلها دائبة الحركة لتجعل من يراها يدرك مدى تفاعلها مع أحداثها .

والشعر العربى — أيضا — له دور رائد فى تسـجيل المعارك الحربية ، واضفاء لون من الفخر بهذه البطولة الرائعة التى كان أبطال العرب يقومون بها ، وسواء صدر هذا الشعر من شعراء فرسان كعنترة، وعمرو بن كلثوم أم صدر من شعراء وصفوا المعارك عن بعد كما صنع الأعشى فان هذا الشعر كله يرسم صورة حية لتلك البطولة العـربية ، وهذه الأيام التى عدها العرب أيام فخر ، وعنوان نصر .

لقد تحدث عنترة مفتخرا بدوره فى المعارك التى خاضـها قومه مذكرا صاحبته عبلة بما يجب عليها نحوه قائلا لها :

هـلا سـألت الخيـل يابنة مالك
ان كنت جاهلة بمـا لم تعلمى
يخبرك من شـهد الوقيعة أننى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم (١)

ثم يقول عندما قتل فى حرب داحس والغبراء ضـمضما المرى أبا الحصين بن ضمضم ، وأبا أخيه هرم :

ولقـد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابنى ضمضم

---

(١) انظر ابن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ وابن الأنبارى شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٩٥ وانظر كتابنا صورة المرأة العربية ص ١٣٩ — ١٦٦ ط مطبعة الأمانة ١٩٨٥ م

الشانئي عرضي ولم أشـــتمهما
والناذرين اذا لم ألقهمـا دمي
ان يفعلا فلقد تركت اباهمـــا
جــزر الســباع وكل نسر قشعم

هذا لون من الشعر قاله شاعر شهد المعارك ، وسـبر أغوارها ، واصطلى بنارها فجاء شعره صورة حية لمـا دار فيها ، لكنه حاول أن يجعل من نفسه بطلها المعلم وفارسها المقدم فاختلط شعره بفخره على أقرانه ، وابراز دوره البطولي ، فلم يأت وصفه للمعركة الا في ثنـايا الحديث عن نفسه •

أما الأعشى فانه وقف في يوم ذي قار (١) يصـــف ما قام به الشيبانيون والبكريون عندما هـزموا الفـرس ، وردوهم الى ديارهم يحملون ذل العار ومرارة الهزيمة يقول :

---

(١) يوم ذي قار من أعظم أيام العرب في الجاهلية ، فقد أراد الفرس أن يخضعوا العرب تحت سطوتهم وسلطانهم ، فتمكنوا من تأسيس امارة الحيرة ، وأقاموا عليها المناذرة اللخميين ليحموهم من كل مغير أو مهـاجم من الصحراء •

ثم ان هؤلاء اللخميين كانوا يضيقون أحيانا بتصرفات الفرس ، وقـد يعصون أوامرهم عندما تحكمهم شخصية قوية كما حدث مع النعمان بن المنذر الذي أبى أن يخضع لسلطان كسرى ، فغضب عليه ، وأراد الانتقام منه ، وعندما علم النعمان بهذه التهـديدات ترك الحـيرة ولجأ الى قبيلة شيبان بن بكر ، واستجار بهانيء بن قبيصة الشيباني فأجاره •

وعندما علم كسرى بذلك احتال للأمر فأمن النعمان وطلب منه القدوم عليه ، ولكن النعمان تشكك في وفاء كسرى بما وعد فأودع هانيء بن قبيصة دروعه وسلاحه ، وذهب الى فارس وكان ما توقعه فأمر كسرى به فقيد وأودع السجن حتى مات •

طلب كسرى من هانيء بن قبيصة تسليمه ودائع النعمان فأبى هانيء =

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا كتائب تزجى الموت فانصرفوا
جحاجح ، وبنو ملك غطارفة
من الأعاجم فى آذانها النطف
اذا أمالو الى النشاب أيديهم
منا ببيض فظل الهام يختطف
وخيل بكر ، فما تنفك تطحنهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
لو أن كل معد كان شاركنا
فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف(١)

واذا كان الأعشى قد سجل معركة ذى قار فى حينها فان البحترى وقف من بعده بزمن طويل يصف ما نحت على ايوان كسرى من صورة معركة انطاكية التى وقعت بين الروم والفرس ، حيث ان البحترى أعجب بهذا الرسم الناطق الذى تمثل فيه كل مظاهر القتال ، فقام الشعر ينقل هذه الصورة المرسومة على جدران ايون كسرى الى صورة شعرية فاقت صورة المثال الذى رسمها ، لقد أتت الصورة الشعرية غاية فى الدقة ، ونهاية فى البيان فهو يقول :

=

وفاء للنعمان ، فغضب كسرى وجرد جيشا لتأديب العرب فى شخص هانىء بن قبيصة ، وعلمت بنو شيبان بذلك عن طريق لقيط بن يعمر الذى أرسل اليهم كتابا يحذرهم فيه مغبة هذا الأمر قائلا لهم فى نهاية رسالته :

هذا كتابى اليكم والنذير لكم   لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

فتجمعت شيبان ، ومعهم قبيلة بكر ، وعند بطحاء ذى قار التقى العرب بالفرس ، ودارت المعركة التى أسفرت عن هزيمة الفرس هزيمة نكراء ، وعرفت هذه الموقعة بموقعة ذى قار ، أو يوم ذى قار .

(١) ديوان الأعشى ص ٥٢ ، ٥٣ ط دار صعب بيروت . تحقيق فوزى عطوى .

واذا ما رأيت صـــــورة انطـــــا
كية ارتعت بين روم وفـــرس
والمنايا مواثل ، وأنو شر
وان بزجي الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من الثياب على اصـــفر
يختـــــال فى صـــــبيغة ورس
وعـــراك الرجـــــال بين يديه
فى خفوت منهم واغماض جـــــرس
من مشيح يهـــــوى بعامل رمح
ومليــــح من الســـــنان يترس
تصف العين أنهم جـــد أحيـــا
ء لهم بينهم اشـــــارة خـــــرس
يغتلى فيهـــم ارتيـــــابى حتى
تتقـــراهم يـــداى بلمس (١)

فقد أظهر البحترى ما تنطق به الصورة ، ففيها ترى المنايا تتحفز لخطف الأرواح وترى فيها كسرى أنو شروان يقود الجيـــوش تحت رايته المطرزة ، بل انك ترى ملابسه الخضراء التى ارتداها ، وقد ركب جودا أسود يتحرك مزهوا بكسوته الصفراء المصبوغة بالورس ؛ ثــم يحاول البحترى أن يجعل الصورة موحية بهذا العـــــراك الدائر أمام كسرى فى جدية .

فالكلام همس ، لأن الصورة لا تظهر الصوت ، ولكنها تظهـــــر الحركة ، فهذا فارس ينقض برمحه على عدوه ، وهو ينظر بطرف خفى وراءه حتى لا يؤخذ على غرة ، وذلك فارس آخر حريص توقى الطعـــن

---

(١) ديوان البحترى ج ٢ ص ١١٥٢ ــ ١١٦٢ تحقيق حسن كامل الصيرفى ط دار المعارف .

والضرب بترسه • اذا رأتهم العين فى الصورة حسبتهم أحيــــاء يتحركون ، ولكنهم خرس لا ينطقون ، بل يتفاهمون بالاشارة ، وحينما وقف البحترى أمام هذه الصورة حسبهم أحياء ، وزاد شــكه فى ذلك فلم يتبين الحقيقة الا بعد أن لمسهم بيده •

ولعلك تدرك معى انه لولا خيال البحترى ، ورسمه الدقيـــق لهذه الصورة لبقيت ماثلة على جدران الايوان لم يتسامع بها الا أولئك الذين عاصروها ، أو شاهدوا أحداثها ، أما الآن فقــد أضحت الصورة ذائعة ذيوع شعر البحترى •

ان وصف المعارك العسكرية الذى جاء فى شــعر الأعشى ، أو فى شعر البحترى ، أو فى شعر أبى تمام الذى وصف موقعة عمورية ، أو فى شعر المتنبى الذى وصف موقعة قلعة الحدث وغيرها من معـــارك سيف الدولة كل هذا الوصف أتى من شعراء احترفوا الشعر واتخذوه صناعة وصولا به الى ما يريدون من مكاسب مادية ، أما وصف الغزوات عند كعب فانه يمثل لونا آخر من الشعر ، ان كعب بن مالك ــ كمــا قدمت ــ شاعر فارس خاض المعارك ، وسبر أغوارها وشـــــاهد ضراوتها ، واصطلى بنارها ، فكان وصفه لها عن قرب ، وتعبيره عنها وليد الخبرة والتجربة •

ان شعره صورة حية لمــا قام به المسلمون من بطولات فى سبيل نصرة الدعوة الاسلامية ، وهو تسجيل لهذا الدور الــــذى قام به المسلمون خلف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسيجد القــارىء لهذا البحث أن شعر كعب لم يقف عند الغزوات التى انتصر فيهــا المسلمون ، بل انه سجل أفراح المسلمين بالنصر ، وأتراحهم فيما سوى ذلك ، وسيرى القارىء لهذا الشــعر أن روح الايمان تغمــره فى كلا الأمرين ، وأن عمق اليقين بنصر الله يتجلى فيه •

اولى الغزوات التى سجلها شعر كعب بن مالك غـزوة بدر التى وقعت أحداثها فى العام الثانى الهجرى ، ويقال لها العظمى وبدر القتال، ويوم الفرقان : كما رواه ابن جرير وابن المنذر ، وصححه الحـاكم عن ابن عباس قال : لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل ، وهى الوقعة التى أعز الله تبارك وتعالى بها الاسلام ، ودفع الكفر وأهله ، وجمعت الآيات الكثيرة ، والبراهين الشهيرة ، وليحقق الله تعـالى ما وعدهم من احدى الطائفتين ، وما أخبرهم به من ميلهم الى العـير دون الجيش ، ومجىء المطر عند الالتقاء ، وكان للمسلمين نعمة وقوة، وعلى الكفار بلاء ونقمة ، وامداد الله تعالى المؤمنين بجند من السماء ، حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا : أقدم حيزوم ، ورمى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المشركين بالحصـا والتراب حتى عمت رميته الجميع ، وتقليل المشركين فى أعين المسلمين ، ليزيل عنهـم الخوف ، وتشجيعهم على القتال ، واشارة المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى مصارع المشركين بقوله « هذا مصرع فلان وهـذا مصرع فلان ، فرأى المسلمون ذلك على ما أشار اليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وذكره ، وقوله لعقبة بن أبى معيط ان وجدتك خارج جبـال مكة قتلتك صـبرا ، فحقق الله تعالى ذلك ، واخبـار عمه العباس بمـا استودع أم الفضل من الذهب ، فزالت شبهة العباس فى صـدقه ، وحقيقة نبوته فازداد بصيرة ويقينا فى أمره ، وتحقيق الله تبـارك وتعالى وعده للمؤمنين(١) • اذ يقول «ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم » •

---

(١) الامام محمد بن يوسف الصـالحى الشـامى : سبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٣٠ تحقيق الأستاذ ابراهيم الترزى ، والأستاذ عبد الكريم العزباوى ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٧٩ م •

ولقد نزلت سورة الأنفال تبين أمر هذه الغزوة بدءا بقوله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأن فريقا من المؤمنين لكارهون » ، ونهاية بقوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .

ان الله — سبحانه وتعالى أيد المؤمنين بنصره ، حتى تجلت هذه المعركة عن هزيمة ساحقة للمشركين الذين غرتهم قوتهم ، فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون ، وكان هؤلاء القتلى كما سيذكر ذلك كعب بن مالك من عظماء رجال مكة وسادتهم ، وصدق الله وعده ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

وقصيدة كعب بن مالك قالها يرد بها على قصيدة قالها ضرار بن الخطاب فى يوم بدر ، وقد اثبت ابن هشام قصيدة ضرار التى يقول فيها :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار ان كان معشر
أصيبوا ببدر كلهم ثم صائر
فان تلك قتلى غودرت من رجالنا
فانا رجال بعدهم سنغادر

وتقع قصيدة ضرار فى خمسة عشر بيتا يحاول بها ضرار تهوين هذا الخطب الذى نزل بالمشركين فى بدر ، ويتوعد الأوس والخزرج فى لقاء قريب ، ثم يذكر لهم أن هذا النصر لم تنله الأوس والخزرج الا بفضل أولئك الرجال من قريش ، وكأنه يرمى الأنصار بضآلة دورهم فى هذا القتال ، وأن قتلاهم لقوا حتفهم بيد ابناء عمومتهم يقول :

فان تظفروا فى يوم بدر فانمــــــا
باحمد أمسى جـــــدكم وهو ظـاهر
وبالنفر الأخيــار هم أوليـــــاؤه
يحــامون فى اللأواء والمــوت حاضر
يعــد أبو بكــر وحمــزة فيهـــم
ويدعى عـــلى وسط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمـــان منهم
وسعد اذا ما كان فى الحرب حاضر
أولئــــك لا من نتجت فى ديارها
بنو الأوس والنجار حين تفاخـــر
ولكن أبوهم من لؤى بن غــــالب
اذا عدت الأنساب كعب وعـــامر
هم الطاعنون الخيل فى كل معــرك
غداة الهياج الأطيبــون الأكاثر (١)

وضرار بن الخطاب يحاول كسر حدة الفخر عند الأوس والخزرج، فيقول لهم ان هذا النصر الذى حصلتم عليه ، وهـــذه المعركة التى انتصرتم فيها لم تكن بفضل رجالكم ، أو استبسال أبطالكم ، وانمـا كان ذلك بفضل أولئك الرجال من أتباع محمد — صلى الله عليـــه وسلم — وهم من رجالات مكة الأشداء الأقوياء ، ويبدو أنه أراد أن ينفث سمه فى صدور المسلمين حتى تتزعزع وحدتهم بالدخـــول فى مناقشات لا طائل تحتها فى نسبة هذا النصر لبعضهم دون بعض ، ولكن كعب بن مالك فوت عليه غرضه ، وقطع عليه الطـــريق فاذا به ينسب النصر الى واهب النصر ، بل ويجعل ذلك فى صدر قصيدته فهو يقول :

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣ ، ١٤ المصدر السابق ٠

عجبت لأمر الله والله قـــــادر
على ما أراد ليس لله قاهـــر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشـــرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جائر(١)

والقارىء يدرك أن كعبا قد صدر قصيدته بالايمان بقـــدرة الله تعالى الذى اذا أراد أمرا قال له كن فيكون ، وقدرته لا يســـتطيع البشر الوقوف أمامها ، ولعل القارىء يدرك الفرق بين التعجب الذى بدأ به ضرار والتعجب الذى بدأ به كعب ، فبينا ضرار يتعجب من فخر الأوس والخزرج اذا بكعب يتعجب من أمر الله وقدرته وارادته ، وهو تعجب له ما يبرره حيث ان قدرة الله هى التى زلزلت عروش هــؤلاء القوم الذين أتوا يسخرون من المسلمين ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن قوة قريش لا تقهر لكن قدرة الله فوق قدرتهم ، وقهره للظالمين لا يشك فيه مؤمن .

لقد قضى الله أن تكون هذه المعركة بين قوتين مختلفتين عــددا وعدة ، ومختلفتين ـــ أيضا ـــ ايمانا وكفرا ، فالتقى الجمعــان فى بدر وهزم المسلمون أولئك القوم المتصفين بالبغى ، والعقلاء يعلمــون أن سبيل البغى لا توصل الى فلاح .

ثم يذكر كعب جموع المشركين الذين جمعتهم قـــــريش ، بل وحرضتهم على الخروج للقتال ولم يقتصر ذلك على رجالهم ، بل انهم استنفروا من كان قريبا منهم أو مواليا لهم ، ثم عدد كعب قبائل كعب وعامر التى شاركت فى هذه المعركة ، وقد خصص لذلك بيتين فقط فهو يقـــــول :

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٤ المصدر السابق .

وقد حشدوا ، واستنفروا من يليهم
من الناس حتى جمعهم متـــكاثر
وسارت الينا لا تحـاول غـــيرنا
بأجمعها كعب جميعا وعـــامر (١)

وبعد أن يفتخر كعب بقوة المسلمين ، وسيرهم خلف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما سيأتى بيانه فى الفصل التالى يتحـدث عن نتيجة هذه المعركة فيقول :

فكب أبو جهل صريعـــا لوجهـــه
وعتبة قد غادرنه وهـــو عـــاثر
وشـــيبة والتيمى غادرن فى الوغى
وما منهما الا لذى العـــرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مســـتقرها
وكل كفـــور فى جهنم صـــائر
تلظى عليهم وهى قد شـــب حميها
بزبر الحـديد والحجـارة ساجر (٢)

فى حديث كعب عن تجنيد قوى الشرك لقتال المسلمين بيان لقـوة هؤلاء المشركين ، وكأنهم كانوا يتصورون أنهم لن يرجعـوا الا بنصر محقق،فقد حشدوا جموعهم،واستعدوا للمعركة استعدادا تمثل فىجمع قوتهم ، واستنفار كل من يمت اليهم بصلة ، حتى جمعوا قوات كثـيرة قاربت الألف كما هو وارد فى كتب السير ، وهذا العدد لا يتناسب مـع عدد المسلمين الذين خرجوا للعير لا للنفير ، لقد سارت هذه الجيوش للمسلمين لا تريد غيرهم ، حتى ان هـذه البطون التى عاونتهم كانت تنشد نفس الهدف .

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٤ .
(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٥ .

غير أن الله ـــ سبحانه وتعـــالى ـــ خيب آمالهم ، وأخلف ظنهم فدارت الدائرة عليهم ، فقتل منهم فى هذه المعركة أشخاص ليســـوا عاديين ، لقد كان الموت فى انتظار هؤلاء الفجرة ، بل تلاقى وأياهم فى هذه الساحة ، وتخطفهم الواحد تلو الآخر ، حتى يكونوا عبرة لغيرهم، ومثلا لمن بعدهم •

ولا يفوت كعبا أن يذكر أسماء بعض الأشخاص الذين قتلوا فى هذه المعركة ، أن رؤوس الشرك قد لقوا حتفهم فى هذه المعركة ، اولئك الذين يحدثنا التاريخ عن موقفهم المتصلب ازاء الدعوة الاســلامية ، لقد قتـــل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وقتـــل أيضـــا عمرو بن عبد الله بن جدعان(١) وغيرهم كثير ، ولكن كعبا اكتفى بذكر من رأى أنه كان يمثل خطورة على الدعوة الاسلامية ، فأبو جهل اعدى أعداء رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأشدهم عنادا وكفـــرا قد لقى مصرعه ، وكب على وجهه وعتبة وشيبة قد لقيا حتفهما ، وكذلك رفيقهم فى الكفر والعناد ، وقرينهم فى التصلب مع الاسلام عمـــرو بن عبد الله ابن جدعان ، وكل واحد من هؤلاء لم يظلمه الله ـــ ســـبحانه وتعالى ـــ فما منهم الا كافر ومعاند لله سبحانه وتعالى ـــ فحرى به أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولو أنهم استراحوا بالقتل لكان ذلك سهلا ، لكنهم بعد قتلهم أصبحوا وقودا للنار •

لقد قتلوا بسيوف المسلمين ليتحولوا بهذا القتل الى وقود تأكله النار ، وكل كفور سيكون مصيره نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ؛ ان هذه النار قد أوقدت فعلا وشب حميها بقطع الحديد والحجارة الملتهبة ، انها صورة مخيفة للنار قصد بها كعب مزيدا مـــن الحسرة والألم على هؤلاء القتلى الذين رفضوا مبادىء الايمان وساروا وراء الشيطان •

---

(١) السيرة النبوية جـ ٢ ص ٧١٥ المصدر السابق •

ثم يختم كعب قصيدته بهذين البيتين اللذين يقول فيهما :

وكان رسول الله قــد قال أقبلــوا
فولوا وقالوا : انما أنت ســـاحر
لأمـــر أراد الله أن يهلـــكوا به
وليس لأمر حمه الله زاجـــر (١)

لقد أقام عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الدليل واقنهم الحجة ، ولا يستطيعون ــ بحال ــ انكار دور رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيهم ، فقد بقى فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعوهم الى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصــمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولكن هؤلاء المشركين رفضوا هذه الدعوة ، بل انهم رموا رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالسحر ، فقالوا : ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر •

ولو ان الله ــ سبحانه وتعالى أراد لهؤلاء القوم خيرا لهيــأهم لقبول الدعوة الاسلامية ، ولكن الله ــ سبحانه وتعالى ــ الذى قال لرسوله ــ صلى الله عليــه وســلم ــ « انك لا تهــدى من أحببت ولكــن الله يهـــدى من يشـــاء » ــ أراد لهــؤلاء المشركين أن يظــلوا على عنــادهم ، لأنه يعــلم أنهــم مخلوقون لذلك وهـــذا مصـــداق قوله تعــالى « ولو علم الله فيهم خـيرا لأســمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » الآية ٢٣ من سورة الأنفال •

وهكذا يسجل كعب بن مالك فى هذه القصيدة أحداث غــزوة بدر فى تلك الأبيات التى تحدث فيها عن استعداد المشركين للمعركة وجمعهم جموعا كثيرة ، كى يحاربوا المسلمين ، ثم دور المسلمين فى هذه المعركة،

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٥ المصدر السابق •

ثم النتائج التى أسفرت عنها غزوة بدر ، فقد قتل فيها صناديد قريش وحق عليهم أن يكونوا وقودا للنار ، لأنهم لم يلبوا نداء الاسلام ، ولم يجيبوا داعى الله .

لقد تحدث شعراء آخرون عن غــزوة بدر ، وأهم هــؤلاء — جميعا — هو حسان بن ثابت ولكن القارئ لشعر حسان فى هـذه الغزوة لا يجد فيه تلك الصورة التى يراها عند كعب بن مالك فمن يقرأ قول حسان بن ثابت فى الرد على عبد الله بن الزبعرى يتبين أن حسانا صرف جهده الى ذلك اللون من الهجاء الذى تفوق فيه فهو يقول عندما بلغه قول ابن الزبعرى :

ماذا على بدر وماذا حــوله
من فتية بيض الوجــوه كـرام

يقــول حسان :
أبك بكت عيناك ثم تبــادرت
بدم تعل غروبها سـجام (١)

ولحسان قصائد أخرى فى غزوة بدر ، ولكنها لا تلمس الجوانب التى لمستها قصيدة كعب بن مالك والتى عرضنا للجانب الذى سجل فيه كعب أحداث هذه الغزوة .

واذا كانت فرحة النصر بادية على قصيدة كعب بن مالك السابقة فان ألم الهزيمة يطالعك عندما تقرأ قصيدته فى غزوة أحد التى وقعت فى العام الثالث لهجرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو عــام التمحيص كما جاء فى قوله تعالى « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » . الآية ١٤١ من سورة آل عمران .

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٦ وسيأتى حديث عن ذلك فى الباب الثالث ان شاء الله تعالى .

والسبب فى ذلك أنه لما قتل من قتل من كفار قريش يوم بدر ، ورجع فلهم الى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيرهم ، فأوقفهـــا بدار الندوة ، وكذلك كانوا يصنعون ، فلم يحركها ولا فرقها ، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشـا لقتال رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحارث ابن هشام ، وحويطب بن عبد العزى ، وصفوان بن أمية فى رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا ابا سفيان ومــن كانت له فى تلك العير تجـارة من قريش فقالوا : ان محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، فقال أبو سفيان : انا أول من أجـاب الى ذلك وبنـــو عبد مناف(١) .

ولما كان العام التالى لغزوة بدر جمــع المشركون جمـــوعهم ، واستنفروا القبائل المجاورة لهم ، وخرجوا متجهزين لحرب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين ، وعلم رسول الله بخــروجهم ، وجمع المسلمين فى المسجد يشاورهم فى امر المشركين.يقول ابن هشام: قال ابن اسحاق : « فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . كان هذا رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « وكان رأى عبد الله ابن أبى بن سلول مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرى رأيه فى ذلك ، وألا يخرج اليهم ، وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم بالشهادة يوم أحد، وغيره ممن فاته بدر : يا رسول الله اخرج بنا الى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضـــعفنا ، فقال عبد الله بن أبى بن سلول : يا رســول الله

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٢٧١ المصدر السابق .

أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فو الله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فان أقاموا أقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ، فلم يزل الناس برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيته فلبس لأمته ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة(١) .

ورغم أن الناس حاولوا بعد ذلك الاعتذار لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا : لقد استكرهنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الا أنه قال لهم : « ما ينبغى لنبى اذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ألف من أصحابه ، ولكن المنافقين تخلفوا بعد ذلك ومعهم ثلث الجيش ، وتابع الرسول المسيرة ، ليلتقى بالمشركين فى أحد ، وليجد هناك أن قريشا قد أقبلت وساقت خلفها نساءها تتقدمهن هند بنت عتبة يضربن بالدفوف يقول ابن هشام : فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللائى معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم، فقالت هند فيما قالت :

ويها بنى عبد الدار
ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار (٢)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٣ المصدر السابق .
(٢) ابن هشام السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٨ .

ثم قالت أيضا :

نحــن بنــات طــارق
نمشى عــلى النمــــارق
الـــدر فى المخـــانق
والمســـك فى المفـــارق
ان تقبلـــوا نعـــانق
أو تـــدبروا نفـــــارق

فــراق غــير وامق (١)

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذا سمع ذلك يقول: « اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيــك أقاتل ، حســبى الله ونعــم الوكيل »(٢)

بدأت غزوة أحد فى هذا الجو الملىء بالأحقاد القــديمة ، والترات التى حدثت فى غزوة بدر ، فقد قتل فى بدر عتبة بن ربيعة والد هند بنت عتبة ، وقتل عمها شيبة بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة ، وكان القاتل لهؤلاء ، أو المشارك فى قتلهم حمزة بن عبد المطلب ، وعلى الرغم من أن الدائرة دارت على المشركين فى أول الأمر ، وتفرقت جموعهم ، وبدأوا يخلون ساحة المعركة الا أن الله — سبحانه وتعالى — أراد أن يعطى المسلمين درسا فى أن النصر لابد له من أمور تعضده ، فلابد للجند من اتباع أمر القائد ، والسير على تعاليمه بكل دقة ، والمسلمون لم يلتزموا بذلك ، فقد ترك الرماة مواقعهم وانكشف ظهر المسلمين ، ووجدالمشركون الفرصة سانحة لهم ، فقام جماعة منهم بضرب المسلمين من الظهــر ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٢٨٤ المصدر السابق .
(٢) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٢٨٥ المصدر السابق .

فاختلط أمر المسلمين ، وتخلخلت صفوفهم ، وتبدد شـملهم ، وكانت النتائج التى أشارت اليها كتب السير والأخبار •

واذا كانت المعركة العسكرية قد انتهت باستشهاد عدد غير قليل من المسلمين فى مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير فان المعركة الشـعرية بدأت بعـد ذلك بين المشركين الذين غرتهم زهوة النصر ، وخدعهم بريقه المؤقت ، وبين المسلمين الذين حاولوا تخفيـف وطـأة الهزيمة على نفوس المسلمين ، وحاولوا اخبارهم أن الحرب سجال ،وأن الدهر يومان ، وهكذا تأتى قصيدة كعب بن مالك التى رد بها على هبيرة ابن ابى وهب الذى قال بعد موقعة أحد :

ما بال هم عميـد بات يطرقنى
بالود من هند اذ تعدو عواديها(١)

فأجابه حسان بن ثابت :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم
الى الرسول فجند الله مخـزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية
فالنار موعدها والقتـل لاقيهـا
جمعتموها أحابيشا بلا حسـب
أئمة الكفر غـرتكم طواغيهـا
ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت
أهل القليب ومن ألقينه فيهـا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٢٩ المصدر السـابق ، والقصـيدة كاملة فى السيرة النبوية •

كم من أســـير فككنـاه بلا ثمن

وجز ناصية كنا مواليها (١)

واذا كان حسان بن ثابت قد هالته المعركة ، وهو لم يشهدها فان كعب بن مالك الذى شهدها وكان مرتديا لأمة رسول الله ، وأدى فيهادوره الذى سجل فى سجل الجهاد والنضال قال قصيدته التى وصـلت الى ثمانية وأربعين بيتا بدأها بقوله :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم

من الأرض خرق سيره متنعنع (٢)

صـحار وأعـلام كأن قتـامها

من البعد نقع هامد متقطـع (٣)

تظل به البزل العراميس رزحا

ويخلو به غيث السنين فيمرع (٤)

به جيف الحسرى يلوح صليبها

كما لاح كتان التجار الموضع (٥)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٣١ المصدر السابق .

(٢) غسان : بنو عم الأنصار ــ الخرق : الفلاة الواسعة التى تنحرق فيها الرمح . متنعنع : مضطرب .

(٣) الأعلام : الجبال المرتفعة ، القتـام : ما مال لونه الى السـواد . النقع : الغبار . الهامد : المتلبد .

(٤) البزل : الابل القـوية واحدها بازل . العراميس : الشـديدة ، الرزح المعيبة ، يمرع : يخصب .

(٥) الحسرى : المعيبة . الصليب : الودك . الموضع بتشديد الضاد المبسوط المنفرش .

به العين والآرام يمشين خلفة

وبيض نعـــام قيضه يتقلع(١)

بدأ كعب قصيدته ببث حزنه وألمه الى بنى عمومته الغساسنة الذين ذكر أن بينه وبينهم من الأرض مسافات شاسعة ، ومهامه واســـعة ، وجبالا مرتفعة يميل لونها الى السواد كأنك لا ترى شيئا أمامك لبعـــد هذه المسافات ، انها مسافات لا تقطعها النوق القوية الا بعد اعياء وتعب ان الناظر اليها يرى ما لحق بها من اجهاد واعياء لطول سيرها ، وهذه الجبال لقلة السير فيها كثرت فيها النباتات لكثرة ما ينزل عليهـــا من أمطار •

ان هذه الأماكن ترى بها الجيف المعيبة يبدو لك ودكها ، ويظهر لك ما تفرزه من دسم ورائحة منتنة ، وقد استخدم أسلوب التشبيه ليوضح الصورة التى أراد رسمها لهذا الدسم وتلك الرائحة الناتجة من هـــــذه الجيف فقال • كما لاح كتان التجار الموضع ، ثم ضمن بيته الخـــامس شطر بيت زهير بن أبى سلمى الذى يقول فيه :

بها العين والآرام يمشين خلفة

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٢)

واذا كان زهير قد وصف لنا ما يلم بهذا الوادى من بقر الوحش والغزال وهى تروح وتغدو فى حركات غير منتظمة ، وهو دليل على الفها هذا المكان وعدم مرور أحد به ينغص عليها حياتها فان كعب بن مالك قد أعطانا صورة أخرى فى الشطر الثانى من بيته حيث جعل هذا المكان مليئا ببيض النعام المتشقق نتيجة فقسه وعدم الاقتراب منه •

---

(١) العين : بقر الوحش : الآرام : الظبـــاء البيض البطون السمر الظهور • خلفة : يمشين جماعة عكس جماعة أخرى • القيض : قشر البيض الأعلى • يتقلع : يتشقق • وهذه القصـــيدة مثبتة فى ابن هشام الســـيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣١ ، وفى سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٢٤٠ •

(٢) شرح المعلقات السبع • ص ١٠٠ ط دار الجيل بيروت لبنان •

وكعب بن مالك بذلك يبين لنا مدى بعد المسافة بينـه ، وبين بنى أعمامه من الغساسنة ولكنه يخلص من هذه المقدمة فى سرعة فائقة ، وكان هذا الخطب الذى أصابه جعله لا يستطرد فى مقدمات معروفة ، فأين هؤلاء القوم منه ؟ انه فى المدينة المنورة ، وهم فى بلاد الشام ، فالشقة بعيدة ، والسفر طويل ، وعليهم أن يدافعوا عن دينهم ، وأن يقع هـذا الدفاع من داخلهم لهذا كله جاء قوله :

مجالدنا عن ديننـا كل فخمـة
مدربة فيها القـوانس تلمـع(١)
وكل صموت فى الصوان كأنهـا
اذا لبست نهى من الماءمترع (٢)

هكذا يبدأ كعب بن مالك الحديث عن موقفهم فى غزوة أحد ، فهم يعدون الكتائب العظيمة لهذا الغرض ، وهم يقومون باعداد السلاح كى يردوا كيد أعدائهم ، ثم يعدون دروعا أحكم نسجها ، حتى اذا لبست هذه الدروع أحاطت بجسم لابسها كما يحيط الماء بالمكان الذى يغمره، وكان كعب بن مالك — كما قال ابن هشام — قد قال :

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة

فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم : أيصلح أن تقـول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب : نعم ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو أحسن ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا (٣)

---

(١) مجالدنا : دفاعنا • كل فخمة : كتيبة عظيمة • القوانس : جمع قونس : بيض السلاح أو رؤوس بعض السلاح •

(٢) الصموت : الدرع الى أحكم نسجها ، وتقارب حلقها فلا تسمع لها صوت : الصوان : ما يصان فيه الدروع • النهى : موضع تجمع الماء ، المترع الملء •

(٣) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٦ المصدر السابق •

وبعد أن يفتخر كعب بن مالك على قــريش بهــزيمتهم فى بدر وشجاعة الأنصار وقوتهم يسجل لنا ما حدث قبل الغــزوة من اصرار القوم على الخروج لملاقاة الأعداء ، وهو الموقف الذى استشار الرسول فيه أصحابه عندما علم بمقدم قريش ، والذى رأى فيــه الرسول أن الغالبية من الشباب يودون الخروج لملاقاة عدوهم ، فسجل كعب بن مالك هذا الموقف وسجل كذلك حث الرسول لجنوده فى أبيات تتضح فيهــا أمارات الايمان بالله وبرسوله ودلائل اليقين الذى ملأ قلوبهم بحــب رسول الله وطاعة أمره ، لأنه يتدلى عليه وحى الله من السماء يقــــول كعب :

ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنا
علام اذا لم نمنع العرض نزرع(١)
وفينا رســـول الله نتبــع أمره
اذا قال فينا القول لا نتطلع(٢)
تدلى عليه الروح من عنــد ربه
ينزل من جــو الســماء ويرفع(٣)
نشاوره فيمــا نريد وقصــدنا
اذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع(٤)
وقال رسول الله لما بدوا لنــا
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا(٥)

---

(١) ابتنوا : نصبوا أبنيتهم • العرض بكسر العين : موضــع خارج المدينة • سراتهم : أخيارهم •

(٢) لا نتطلع : لا ننظر اليه اجلالا له •

(٣) تدلى : نزل • الروح : جبريل عليه السماء • جو السماء : ما بين السماء والأرض •

(٤) قصدنا : غايتنا ، اشتهى : أحب •

(٥) ذروا : اتركوا • المنيات جمع منية : الموت • اطمعوا فى ثواب الله عنده حياة طيبة •

وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا
الى ملك يحيا لديه ويرجع(١)
ولكن خذوا أسـيافكم وتوكلوا
على الله ان الأمر لله أجمـع(٢)

سجل كعب بن مالك الأحداث التى وقعت قبل غزوة أحد ، فقـد قدم المشركون الى المدينة ، وضربوا خيامهم بمنطقة يقال لها العرض ، ويبدو أن هذه المنطقة كانت منطقة زراعية أو منطقة محمية لأهل المدينة، وواجب الدفاع عن الحياض • والذب عن الحرمات يقتضيهم أن يواجهوا أى عدو يقبل على هذه المنطقة ، أو يحاول الاقتراب منها والسيطرة عليها حتى ان سراة الأنصار عندما علموا بذلك هبوا للدفاع عن ممتلكاتهم ،بل انهم ردوا على من يرى بقاءهم داخل المدينة : علام اذن نزرع ، ونستثمر الأرض ان لم نستطع حمايتها •

ثم عاد كعب يتحدث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ حديثا ينم عن ايمان كامل بكل ما يأمر به رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعبر عن ذلك الكلمات التى أتى بها كعب بن مالك ، فقـوله . « وفينا رسـول الله » ايحاء بأن وجود الرسـول فيهم يمنحهم الأمان والاطمئنان ، وهو ايحاء ـ أيضا ـ أشار اليه قول الله تبارك وتعالى : « وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسـوق والعصيان أولئك هم الراشدون »(٣) •

---

(١) يشرى : يبيع • الى ملك : الى الله • يحيا لديه : يحيا الشـهيد عنده حياة طيبة •

(٢) خذوا أسـيافكم : استعدوا للقاء الأعداء • توكلوا على الله • اعتمدوا عليه بعد أخذ الأسباب •

(٣) الآية ٧ من سورة الحجرات •

ثم قوله « لا ننتطع » دليل حى على طاعتهم التامة لكل ما يأمر به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم هو يحاول توضيح الموقف الذى وقفه القوم عندما شاورهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — فهو يقول : « أن رسول الله بيننا ، ونحن نطيعه فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه ، فاذا تحدث الينا لا ينظر أحد اليه حياء منه ، واكبارا له ،وتعظيما لشأنه ، وما ذلك الا لأن الوحى يتنزل عليه ، ان حديث السماء متصل بينه ، وبين ربه — سبحانه وتعالى — عن طريق جبريل عليه السلام ، حقيقة أننا نشاوره فيما نريد ، فالكل منا يتخذ من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هاديا ومرشدا ، لكننا ان شاورناه ، وتحدثنا اليه فان القصد من ذلك أننا نبين له الأمر ، ونوضح امامه الصورة فاذا أشار علينا بشىء اطعناه فيما يأمر به دون تعقيب منا على هذا الأمر ، وهذه لفتة كريمة من كعب يرد بها على أولئك المنافقين الذين تركوا الجيش ورجعوا مولين وجوههم نحو المدينة ، فقد كان عبد الله بن أبى يرى أن يقيموا فى المدينة ، لأنهم تعودوا أن لا يخرجوا من المدينة لقتال عدو •

ثم يحدثنا كعب عن تلك الخطبة التى قالها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند التقاء الجمعين ، فقد طلب منهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يقدموا على حرب أعداء الله غير خائفين ولا وجلين، وطلب منهم أن يطمعوا من وراء قتال الأعداء فى الشهادة ، فهى الأمل الذى يراود المؤمن ، حتى يكون فى الجنة يحيا حياة الشهداء ، وما أجملها من حياة تلك التى يحياها الشهيد عند ربه « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » •

ويختم كعب حديثه باشارة عظيمة من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وذلك أن المؤمن الحق هو الذى يأخذ بالأسباب ، ثم يترك النتائج الى الله — سبحانه وتعالى — فالمؤمن يتوكل على الله ، ولايتكل على غيره ، لذا فان الرسول يقول لهم : عليكم أن تستعدوا للقاء الأعداء ، وأن تتسلحوا بالسلاح الذى يكفل لكم مواجهة هؤلاء المعتدين،

ثم بعد ذلك توكلوا على الله ، فهو الذى بيده ملكوت كل شىء واليـه ترجعون •

ويستمر كعب بن مالك يتحدث عن استعداد المسلمين للمعركة ،وعن عدد المشركين وعدد المسلمين ، وعن هول هذه المعركة حديثا مفصـلا فيقول :

فسرنا اليهم جهرة فى رحـالهم
ضحيا علينا البيض لا نتخشع(١)
بملمومة فيها السنور والقنـا
اذا ضربوا أقدامهـا لا تورع(٢)
فجئنا الى موج من البحر وسطه
أحـابيش منهم حاسر ومقنـع (٣)
ثـلاثة آلاف ونحن نصـيه
ثلاث مئين ان كثـرنا وأربع (٤)
نعاورهم تجرى المنيات بيننا
نشارعهم حوض المنايا ونشرع(٥)
تهادى قسى النبـع فينا وفيهم
وما هـو الا اليثربى المقطـع (٦)

---

(١) رحالهم : منازلهم • ضحيا : وقت الضحى • البيض : السيوف • لا نتخشع : لا نخضع وتذل •

(٢) الملومة : الكتيبـة المجتمعة • السـنور : السـلاح • لاتورع : لا تكف •

(٣) الحاسر : من لا درع له ، المقنع : من لبس القناع وهو المغفر •

(٤) النصى : الخيار من القوم •

(٥) تعاور القوم : اذا تنازعوا ، نشارعهم : نشاربهم ، حوض المنايا: الموت ، نشرع : نشرب •

(٦) تهادى : تمايل من ضعفه • النبع : شجر تصـنع منه القسى ، اليثربى : أوتار تنسب الى يثرب : المقطع : المقطوع •

ومنجــوفة حــرمية صــاعدية
يذر عليها السم ساعة تصــنع (١)
تصوب بأبدان الرجــال وتارة
تمر بأعراض البصار تقعقــع (٢)
وخيل تراها بالفضــاء كأنهــا
جــراد صــبا فى قــرة يتربع (٣)
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى
وليس لأمــر حمــه الله مدفع (٤)
ضربناهم حتى تركنــا سراتهم
كأنهم بالقاع خشــب مصرع (٥)
لدن غدوة حتى استفقنا عشــية
كأن ذكــانا حــر نار تلفــع (٦)
وراحوا سراعا موجفين كأنهم
جهام هراقت ماءه الريح مقلع (٧)

---

(١) المنجوفة : السـهام المنحوتة المقشورة . حرمية : منسـوبة الى الحرم . صاعدية : نسبة الى صاعد ، يذر : يوضع .

(٢) تصوب : تقع . البصار : أحجار لينة . تقعقع : تصوب .

(٣) الفضاء : متسع الأرض . الصبا : ريح شرقية ، القرة : البرد . يتربع : يجيء ويذهب .

(٤) دارت رحى الحرب : بدأت تطحن ما بين شقيها ، حمه الله : قدره

(٥) سراتهم : خيارهم . القاع : المنخفض من الأرض .

(٦) غدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس . ذكانا : التهابنا فى الحرب ، تلفع : يشمل حرها من دنامنها .

(٧) موجفين : مسرعين . الجهـام : السـحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء .

ورحنــا وأخرانا بطــاء كأننــا
أسود على لحــم ببيشــة ظلــع (١)
فنلنا ونال القــوم منا وربمــا
فعلنا ولكن ما لــدى الله أوســع
ودارت رحانا واستدارت رحاهم
وقد جعلوا كل من الشر يشــبع (٢)

هذه صورة واقعية لما حدث فى غزوة أحد يقدمها كعب بن مالك فى هذا الثوب الوصفى التحليلى الذى يجعل المتتبع له يعلم حقيقة ما جرى فى هذه الغزوة ، فقد تحدث عن استعداد المسلمين للمعركة ، وتمثل ذلك فى أنهم ساروا أيهم فى وضح النهار يلبسون ثياب الحرب ويحملــون سيوفهم البيضاء لا يرهبون احدا ، ولا يخشون عدوا ، وقد ســاروا اليهم فى كتيبة قوية يلتف بعضها فى بعض ، وهذه الكتيبة قد تســلحت بالأسلحة القوية ، انهم شجعان لا يخافون لقاء عدو ، ولا يرهبــون الموت ، لكنهم فوجئوا بتلك الأمواج المتلاطمة من البشر ، انهم أخلاط متباينون ننظر اليهم فنرى فيهم الأحابيش الذين برزوا وسطهم ، وقد انقسموا فريقين فريقا قد تخلى عن الدروع والمغافر وفريقا آخر قــد وضع المغافر فوق رأسه .

ولا ينسى كعب تحديد الأعداد التى دخلت المعركة ، فقد بلغ عدد المشركين ثلاثة آلاف أما عدد المسلمين فلم يتجاوز السبعمائة على أكثر تقدير وقد عبر عن ذلك بقوله عن عدد المشركين « ثلاثة آلاف » أما عدد المسلمين فقال عنه « ثلاث مئين ان كثرنا وأربع » وهذه الدقةفىالتحديد تعطينا تصورا لتسجيل كعب أحداث الغزوات ، وأن شعره يمثل الصورة الواقعية لتلك الأحداث .

---

(١) بيشة : موضع تنسب اليه الأسود . ظلع : جمع ظالع من الظلع وهو العرج .
(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٣٥ المصدر السابق .

بدأت المعركة بهذه الصيحات التى انطلقت من حناجر الفريقين ، فالمسلمون يصيحون صيحة الحرب المعروفة لديهـــم « أمت — امت » والمشركون يتصايحون « يالهبل » وهذه الصيحات يقصدون من أحداثها بث الرعب فى صفوف الأعداء ، وقد بدأت المعركة باستخدام الأقواس المنسوبة الى يثرب ، والسهام الصاعدية ،ويبدو أن شهرة صاعد بصناعة هذه السهام جعلت كعبا يحرص على نسبتها اليه ، انه يضع عليها الدم ساعة صناعتها •

وهذه السهام ان أحكم رميها وقعت بأبدان الرجال ، وان جاوزتها سمعت لها صوتا هائلا مفزعا ، واذا كانت الخيول لها دورها فى المعارك فان الخيل التى حشدت لهذه المعركة كانت من الكثرة فقد شبهها بجراد ريح شرقية دفعته لينطلق دون توقف •

ان كعب بن مالك يصور لنا مدى الاستعداد الذى قام به الجانبان وأى استعداد هذا الذى حشدت له الجنود الكثيرة ، والقسى القوية ، والسهام المريشة والسيوف البتارة ؟ انه أمر جلل ، وحادث عظيم ،واذا كان المسلمون قد فرضت عليهم هذه الحرب فانهم مؤمنون بأن كل ذلك مقدر من عند الله — سبحانه وتعالى — ولن يستطيع الانسان دفع أمـــر قدره الله وأراده •

وقد استخدم كعب فى هذا الجزءكثيرا من الكلمات الدالة على هول المعركة ، فالأقواس اليثربية ، والسهام الصاعدية ، والخيول الكثيفة ، فقد عبر بقوله : « دارت بنا الرحى » عن هول هذه المعركة ، وأنها تطحن من يقع تحت شقيها ، ثم سجل لنا أن بداية المعـــركة كانت فى صـــالح المسلمين وقد تمثل ذلك فى قوله : « ضربناهم حتى تركنــــا سراتهم » فالمسلمون فى أول المعركة كانوا ملتزمين أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعندئذ كان المسلمون يصرعون أبطال المشركين الواحد تلـــو الآخر ، حتى انكشف المشركون وكـــادت الدائرة تدور عليهـــم ويولون

الأدبار ، لقد ترك المشركون ساحة المعركة مسرعين خوفا وفزعا ــ كما يقول الرواة ــ من قوة المسلمين ، واستبسالهم فى المعركة ، لقد قتلوا عظماء المشركين من الذين تقدموا للمبارزة ، او ممن كانت السهام تصيبه ، لكن المشركين وجدوا أن ظهر المسلمين قد انكشف بنزول الرماة المكلفين بذلك لجمع الغنائم ، فطوق المشركون المسلمين وأعملوا السيف فى ظهورهم •

ولو أنك استعدت قراءة الأبيات الأخيرة من هذا الجزء تبينت النتائج التى أسفرت عنها المعركة ، وهو ما توحى به تلك النغمات الحزينة ، والكلمات المختارة لما آل اليه أمر المسلمين ، فقوله « نلنا ونال القوم منا » أسلوب يوحى بأن النصر لم يكن حليف المسلمين فى هذه الموقعة ، وهو يوحى أيضا بأن أول المعركة كان لنا وآخرها كان علينا ثم قوله « ولكن ما لدى الله أوسع » فيه ايحاء بأنهم لم ينتصروا ولم يغنموا شيئا ، فهم ان لم يصيبوا شيئا من الغنائم فان ما عند الله خير وأبقى ، وقوله « دارت رحانا واستدارت رحاهم » فيه ايحاء بأن الحرب قد أخذت مأخذها من الجانبين وهو تعبير استخدمه الشاعر لتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين ، فان كان قد استشهد منا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه • فقد قتل من المشركين رجال أيضا ، فلا تجعلوا هذه الهزيمة تضعف من قوتكم ، وتفت فى عضدكم ، وتعبيره بقوله •• وقد جعلوا كل من الشر يشبع •• يدل على أن القتلى من الجانبين كثيرون ، فقد شبع الشر وأخذ حظه من الجانبين ، وهو تعبير يوحى أيضا بالنتيجة التى انتهت بها المعركة ، ونغمات كعب ــ كما قلت سابقا ــ فى هذا الجزء نغمات حزينة مؤلمة لا تلمس فيها فرحة النصر ، أو الفخر الذى ألفناه فى قصيدته السابقة فى غزوة بدر ، بل انه يحاول ــ كما قلت آنفا ــ تخفيف وطأة المعركة على نفوس المسلمين حتى ينطلقوا مرة أخرى الى هدفهم الأسمى ، وغايتهم النبيلة •

وهذا جانب آخر من قصيدة كعب فى غزوة أحد يوحى أيضا بنتيجة المعركة يتمثل فى قوله :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمى الذمار ويمنع(١)
جلاد على ريب الحوادث لا نرى
على هالك عينا لنا الدهر تدمع(٢)
بنو الحرب لا نعيا بشىء نقوله
ولانحن مما جرت الحرب نجزع(٣)
بنو الحرب ان نظفر فلسنا بفحش
ولانحن من أظفارها نتوجع (٤)
وكنا شهابا يتقى النـــاس شره
ويفرج عنه من يليه ويســـفع(٥)

يحاول كعب فى هذا الجزء تفويت الفرصة على المشركين ، فيرميهم بأنهم عندما هزموا فى غزوة بدر أخذوا يصرخون ، ويعولون . أما نحن — معاشر المسلمين — فان لنا أخلاقا تغاير أخلاقهم ، ومبادىء تختلف عن مبادئهم ، لأننا لا نرى القتل سبة لهؤلاء الرجال الذين آلوا على أنفسهم حماية الذمار ، والدفاع عن الأعراض ، والتصدى لمن ينال من عقيدتنا ، أو يحاول اثناءنا عن ديننا .

---

(١) سبة عارا وعيبا . الذمار : ما يجب على الرجل حمايته .
(٢) جلاد جمع جليد : الصبور . ريب الحوادث : صروفها .
(٣) بنو الحرب : كناية عن خوضهم للحرب كثيرا . نعيا : من العى . لا نقول شيئا غير بين . نجزع : نخاف .
(٤) بفحش : أى لا نقول قولا فاحشا ، أى لا يغرنا النصر ، أظفار الحرب : ويلاتها .
(٥) الشهاب : القطعة من النار . يسفع : يحرق ويغير .

وهنا يجد كعب بن مالك فرصة للحديث عن عزيمتهم التى لا تقهر، وارادتهم التى لا تغلب ، فهم صبر عند الحرب ، وهم صبر على صروف الحوادث ، ونكبات الأيام . وهم لا يذرفون الدمع على من استشهد فى سبيل الدفاع عن وطنه ودينه ، كل ذلك ضمنه كعب قوله : لا نرى على هالك عينا لنا الدهر تدمع .

فهم أبناء الحرب ، وهم أربابها المجربون لها ، وهم يتمتعون بطلاقة اللسان يفصحون به عن كل ما يريدون ، ثم هم لا يجزعون لما تجره الحرب من ويلات ، لأن المجربين للحرب يعرفون انها دول ، وأنها أيام ، يوم لك ، ويوم عليك ، أما أولئك الأغرار فانهم يفرحون بنصر سريع ، لأنهم لم يجربوا الحرب كما جربناها ، والمجرب للحرب يكون راقى الخصومة ، عظيم القتال ، فان ظفر فلا يفحش فى قوله،ولايتفاخر على خصومه ، وكذلك هم ، وهم — أيضا — لا يتوجعون من شراسة المعارك ، وكل ذلك يقوله كعب فى معرض تخفيف ما حل بالمسلمين من آلام ، وما نزل بهم من هزيمة ، وقد استخدم فى ذلك بعض الكلمات الدالة على مراده فقوله : « لا نرى القتل سبة » يوحى بأن هؤلاء القتلى لم يقتلوا هدرا ، وانما قتلوا فى سبيل الدفاع عن الحق والدين ، وقوله : « بنو الحرب » يوحى بأنهم مجربون لها يعلمون أحداثها وويلاتها ، وماداموا كذلك فانهم : «لا يتوجعون من أظفارها، ولايجزعون من جرائرهم ، ثم يختم ذلك أيضا بالحديث عن ماضيهم المعروف للناس جميعا ، فقد كانوا شهبا يخشى بأسها الناس جميعا ، ويستضىء بضوئها من يليها من الأصدقاء .

وهكذا يقدم كعب بن مالك تعزية للمسلمين ، وتخفيفا لما أصابهم فى غزوة أحد .

وهذه قصيدة أخرى سجل بها كعب اجلاء بنى النضير ، فقد تعددت الروايات فى سبب هذه الغزوة ، والذى يدقق النظر فى هذه الروايات

يرى أن رواية ابن هشام أقرب الى العقل فقد قال ابن اسحاق فيمـــا يرويه ابن هشام ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج الى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتل عمرو ابن اسيد الضمرى للجوار الذى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عقد لهما ، كما حدث يزيد بن رومان ، وكان بين بنى النضـــير وبنى عامر عقد وحلف ، فلما اتاهم رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا ابا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — الى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب احدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى — رضوان الله عليهم » .

فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخـــرج راجعا الى المدينة ، فلما استلبث النبى — صلى الله عليـــه وســـلم — أصحابه قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — حتى انتهوا اليه — صلى الله عليه وسلم — فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — بالتهيؤ لحربهم والسير لهم »(١)

وسار اليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى جيش من أصحابه ، وكان قد عرض عليهم قبل ذاك الخروج من المدينة ، ولكنهم

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٩٠ وما بعدها .

رفضوا هذا العرض فحاصرهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله —صلى الله عليه وسلم— بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها «؟» فنزل قوله تعالى فى سورة الحشر التى ذكرت أحداث هذه الغزوة « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين» .

وفى أمر هذه الغزوة ، واجلاء بنى النضير ، وقتل كعب بن الأشرف يقول كعب بن مالك قصيدته التى ناقش فيها هؤلاء اليهود مناقشة منطقية بدأها بقوله :

لقد خزيت بغدرتها الحبور
كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب
عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهما وعلما
وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتابا
وآيات مبينة تنير(١)

انه يحمل اليهود عاقبة غدرهم وخيانتهم ، بل انه يحمل أحبارهم تبعة هذه الأحداث التى جرها عليهم غدرهم برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونقضهم للعهد والميثاق الذى أخذ عليهم من قبل ، وهكذاشأن

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٩٩ . والحبور : جمع حبر : وهو العالم ، ويجمع أيضا على أحبار ، والمراد بهم علماء اليهود وصرف : تغير . يدور : يحول وينتقل ، خزيت : ذلت .

الدهر ، تدور أيامه ، وتتحول من حال الى حال ، فاليهود كانوا يقيمون فى المدينة بأطيب مقام ، وكانوا أصحاب غنى وثراء ، ولكــن غــدرهم وخيانتهم حولاهم من نعيم الى بؤس ، ومن سعادة الى شقاء ، وليس الأمر كذلك فحسب ، بل أن هؤلاء اليهود كفــروا بالله ــ ســبحانه وتعالى ــ ولم يصدقوا رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم ــ والله غالب على أمره ولو كره الكافرون •

ثم يناقش كعب بن مالك اليهود فى أمر هذا العلم الذى وهبهم الله اياه ، فلقد نزلت التوراة عليهم ، ولكنهم لم يستمروا على العهد بها ، بل انهم كانوا من الغباء بمكان ، فقد وصفهم الله ــ سبحانه بقوله « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ••

وعلى الرغم من ذلك فقد جاءهم من الله النذير المتمثل فى خاتم الأنبياء سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى جاءهم بما أمرهم به الله فى التوراة ، وأدى اليهم رسالته المتمثلة فى القرآن الكريم ، وآياته المشرقة المضيئة ،ولكن اليهود أصروا على عنادهم، واستمروا على غيهم المتمثل فى قولهم :

فقالوا ما أتيت بأمر صــــدق
وأنت بمنــكر منــا جــــدير
فقال : بلى ، لقد أديت حقــا
يصــــدقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشــد
ومن يكفر به يجــز الكفــور
فلما أشــربوا غــدرا وكفــرا
وجد بهم عن الحق النفور

أرى الله النبى برأى صــدق
وكان الله يحــكم لا يجــور
فأيــده وســــلطه عليهــم
وكان نصــيره نعم النصـــير

لقد استخدم كعب ــ هنا ــ أسلوب الحوار ، ليبين للقارىء موقف هؤلاء اليهود من الدعوة الاسلامية ومن رسولها ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتضــح موقفهم فى رفضــهم للمبادىء التى أتى بها الاســلام على الرغم من أنها تتفق فى أصولها وفى جوهرها والمبــادىء التى جاءت بها التوراة واليهود الذين أمروا باتباع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو أمر ثابت فى التوراة حرفوا الكلم عن مواضعه ، ولجوا فى عنادهم ليقولوا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ما أتيت بأمر صدق ، وهو تكذيب لرســالة الاســلام ، بل هو كفر بما جاء فى توراتهم ، وكأنهم استكثروا على العرب أن يخرج منهم رســول ، فلما جاءهم الرسول قالوا : « ما أتيت بأمر يمكن أن نصدقك فيه » بل انهم قالوا : نحن ننكر كل ما جئت به من مبادىء وتعــاليم ، واســتخدامهم لأسلوب النفى • ما أتيت بأمر صــدق ، يشــعر بعنادهم ورفضــهم هذه المبادىء دون مناقشتها ، وبيان مدى صحتها أو كذبها •

ويرد عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله : « بلى » حتى يبطل كلامهم ، ثم يقول لهم : « لقد أديت حقا » فكل ما جئت به حق وصدق ، ولكنكم تعاندون ، ان من أوتى عقلا راجحا ، وفــكرا صائبا عليه أن يدرك ما جئت به ، وكان عليه أن يستخدم الكلمات الدالة على المبالغة فى الفهم والخبرة « الفهم الخبير » فكل من تعمق فى الفهم وتدبر فى رســالة الاسلام يعلم أنها حق وصدق ، « فمن يتبعه يهد لكل خير » •

ولكن اليهود استمروا على عنادهم ، بل انهم حاولوا الغدر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وتعبير كعب بقوله « اشربوا » يوحى بمدى تجرعهم الغدر والكفر ، وكان أحبارهم قد أشربوهم هذا الغدر — والكفر ، وقوله « وجد بهم عن الحق الكفور » يوحى بمدى حرصهم على البعد عن الحق والسير فى طريق الكفر والضلالة ،ويستمر كعب فى ذلك فيخبرنا بأن الله — سبحانه وتعالى — أرى رسوله ما بيته له اليهود من غدر وخيانة . ولا يظلم ربك أحدا : لذلك كان لا بد من تلقينهم درسا فى الوفاء والايمان بالله — سبحانه وتعالى ، وقد تمثل ذلك الدرس فى قول كعب :

فغودر منهم كعب صريعا
فذلت بعد مصرعه النضير (١)
على الكفين ثم وقد علته
بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد اذ دس ليلا
الى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر
ومحمود أخو ثقة جسور

هذا مشهد من مشاهد البطولة قام به المسلمون أثناء حصار اليهود اذ استطاعوا مخادعة كعب بن الأشرف ، وانزاله من حصنه وقتله ، لقد صرعته سيوف المسلمين فدب الذل والهوان فى صفوف

---

(١) كعب : هو كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير . ذلت ضعف وهانت . وقد تروى زلت : أى سقطت .
(٢) مشهرة : معروفة . الذكور يعنى بها السيوف .

اليهود ، وتأتى دقة التصوير لتبرز معالم الصورة : ان سـيوف المسلمين قد حزت رأس هذا اليهودى الذى كان شديد العناد والخصومة للمسلمين ، لقد صنعوا ذلك بأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى يضعفوا من قوة اليهود ، وينزلوا فى قلوبهم الرعب ، ويختتم أحداث هذه الغزوة بقوله .

فتلك بنو النضير بدار سـوء
أبارهم بما اجترموا المبير (١)
غداة أتاهم فى الزحف رهـوا
رسول الله وهو بهم بصير (٢)
وغسان الحمـاة مؤازروه
على الأعداء وهولهم وزير
فقال : السلم ويحكم فصدوا
وحالف أمرهم كذب وزور (٣)
فـذاقوا غب أمرهم وبالا
لكل ثلاثة منهم بعـير (٤)
وأجلوا عامدين لقينقـاع
وغودر منهم نخـل ودور

---

(١) أبارهم : أهلكهم . اجترموا : ارتكبوا جرما .
(٢) رهوا : مشيا فى مسكون .
(٣) السلم : الصلح . حالف : صاحب
(٤) غب أمرهم : أبعد أمرهم ، الوبال : النكال والقتل .

وهكذا يختم كعب بن مالك قصيدته بابراز ما آل اليـه أمر بنى النضير ، وذلك أنهم كانوا السبب فى هذه العاقبة التى جعلتهم يتركون مقامهم الطيب فى المدينة المنورة : حيث المـاء والزرع ، ويذهبـون ليقيموا فى دار سوء ، لقد أهلكهم بجرمهم هذا مالك الملك فهـو الـذى أخرجهم من ديارهم ، وأنزلهم من حصونهم ، ولو أن هؤلاء القـوم استجابوا لدعوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لمـا وقـع لهم ذلك •

لقد أتاهم الرسول ومعه جموع المسلمين الزاحفة يسـيرون فى تؤده وسكون ، لأنهم يعلمون أن هؤلاء اليهـود لن يستجيبوا لهم ، أو ينفذوا ما يأمرهم به الا اذا رأوا قوة قوية تؤازره وتناصره ، لقـد كان نصيره — بعد الله سبحانه وتعالى — الأوس والخزرج وهو ما عنته لفظة «غسان» فقد رجـع بهم الى جـدهم الأول ، فهم بطن من الغسـاسنة •

والرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يأخذ أحدا الا بعـد أن يعرض عليه مبادىء الاسلام التى تدعو الى السلم — ولكنهم عاندوا وصدوا عن دعوة الله ، وأخذوا يختلقون الأكاذيب وقـول الـزور والبهتان ، فكان لا بد لهم من أن يذوقوا عاقبة هذا الأمر ، حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، ولقد خرج هؤلاء اليهود خروج الأذلاء الضعفاء •

لقد تركوا المدينة فنزل بعضهم بالمكان الذى نزل به يهـود بنى قينقاع الذين خرجوا من قبل بعد غزوة بدر ، ويقـول الرواة ، ان بعضهم رحل الى الشام ، فلم يقم بالجزيرة العربية يقول ابن هشام• « وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة « أى السلاح » ، ففعـل ، فاحتمـلوا من أموالهم

ما استقلت به الابل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف (١) بابه، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به فخرجوا الى خيبر ، ومنهم من سار الى الشام » (٢) •

وهكذا يهدم حصن من حصون اليهود الذين جبلوا على الخيانة ، وفطروا على المكر والخديعة •

ولم تأخذ غزوة من شعر كعب ما أخذت غزوة الخندق ، فقد قال فيها كعب أربع قصائد كل قصيدة تسجل جانبا من جوانب هذه الغزوة التى وقعت فى شوال سنة أربع وقيل سنة خمس من الهجرة ، وسببها أنه لما وقع اجلاء بنى النضير من أماكنهم سار منهم جمع من أكابرهم منهم سيدهم حيى بن أخطب الى أن قدموا مكة على قريش فحرضوهم على حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا : انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ، فقال أبو سفيان مرحبا وأهلا ، وأحب الناس الينا من أعاننا على عداوة محمد ، ثم قالت قريش لأولئك اليهود: يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الأول ، فأخبرونا أنحن على الحق أم محمد ؟ فقالوا : بل أنتم على الحق ، فأنزل الله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغون » • الآيات من ٥١ — ٥٧ من سورة النساء •

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ، ونشطوا لحرب محمد ، ثم خرج أولئك اليهود حتى جاءوا غطفان وقيس وغيلان فطلبوهم لحرب محمد، فأجابوهم ، وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان ، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن ، ولما تهيأ الكل للخروج أتى ركب من خزاعة

---

(١) النجاف : العتبة التى بأعلى الباب •

(٢) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٩١ المصدر السابق •

فى أربع ليال ، حتى أخبروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بما اجتمعوا عليه ، فشرع فى حفر الخندق بإشارة سلمان الفارسى ، الذى قال له يا رسول الله : انا كنا بفارس — اذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه النبى والمسلمون حتى أحكموه ، وكان النبى يقطع لكل عشرة أربعين ذراعا ، ومكثوا فى حفره ستة أيام ، وقيل خمسة عشر يوما ، وقيل اربعة وعشرين ، وقيل شهرا ، فلما فرغوا من حفره أقبلت قريش والقبائل ، وجملتهم اثنا عشر ألفا ، فنزلوا حول المدينة والخندق بينهم وبين المسلمين ، فلما رأته قريش قالوا : هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها ، فشرعوا يترامون مع المسلمين بالنبل ، ومكثوا فى ذلك الحصار خمسة عشر يوما ، وقيل أربعة وعشرين ، فاشتد على المسلمين الخوف ، ثم ان نعيم بن مسعود الاشجعى من غطفان جاء ليلا الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقال له : انى أسلمت ، وأن قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة ، فخرج نعيم فألقى فتنة بين العدو بعضهم مع بعض حتى نفر قلوب بعضهم من بعض (١) ، وبعث الله عليهم ريحا باردة هى ريح الصبا فى ليلة شديدة البرودة والظلمة ، فقلعت بيوتهم ، وقطعت أطنابهم ، وكفأت قدورهم، وصارت تلقى الرجل على الأرض ، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم ولم تقاتل ، بل نفثت فى قلوبهم الرعب .

ثم ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعا حذيفة بن اليمان فقال له اذهب فأتنى بخبر القوم قال حذيفة فأخذت سهمى ، ثم انطلقت أمشى فدخلت فى القوم ، وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنودا ، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح بهم قام فقال : يا معشر قريش ليتعرف كل

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢١٤ وما بعدها .

منكم جليسه ، واحذروا الجواسيس ، فبادرت أنا فأخذت بيد من كان عن يمينى وقلت له : من أنت ؟ فقال معاويه بن أبى سفيان ، وقبضت من على يسارى وقلت له : من أنت : قال : عمرو بن العاص ، فعلت ذلك خشية أن يظنوا بى ، ثم قال أبو سفيان : يا معاشر قريش : والله انكم لستم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظـة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه ما ترون فارتحلوا فانى مرتحل، ووثب على جمله ، وشرع القوم يقولون : الرحيل الرحيل ، والـريح تقبلهم على بعض أمتعتهم ، وتضربهم بالحجارة ، ولم تجاوز عسكرهم ورحلوا ، وتركوا ما استثقلوا من متاعهم ، وحين انجلى الأحزاب قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الآن نغزوهم ولا يغزونا(١) •

لقد قال كعب قصائده يسجل بها أحداث هذه الغزوة ، ويرد على شعراء المشركين الذين قالوا الشـعر تسلية لأنفسهم مما أصابهم ، فعندما قال ضرار بن الخطاب أخو بنى محارب قصيدته التى يقـول فى مطلعها :

ومشفقة تظن بنا الظنـونا

وقد قدنا عرندسة طحونا (٢)

أجابه كعب بن مالك بقوله :

وسائلة تسـائل ما لقينا

ولو شهدت رأتنا صابرينا

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢١٤ وما بعدها • وانظر سبل الهدى والرشاد الجزء الرابع •

(٢) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٥٤ ـ العرسة الشديدة القـوة يريد كتيلية ، والطحون التى تطحن كل ما مرت به •

صبرنا لا نرى لله عـــدلا
على ما نابنا متوكلينا (١)

ثم يفتخر كعب باستعدادهم للقتال وبوعد الله لهم بالنصر،وأنهم لن يتخلوا عن نصرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم يذكـر ما آل اليه أمر هذه الموقعة فيقول :

فاما تقتلوا سعدا ســفاها
فان الله خـــير القادرينـا
ســـيدخله جنــــان طيبـات
تكون مقـامة للصــــالحينا
كما قد ردكم فــلا شريدا
بغيظكم خزايا خائبينا (٢)
خزايا لم تنالوا ثم خــيرا
فكنتم تحتهـا متكمهينا (٣)
بريح عاصف هبت عليــكم
فكنتم تحتها متكمهينا (٤)

لقد أصيب سعد بن معاذ بسهم فى هذه الغزوة فمات متأثرا به ، وهذا ما أشار اليه كعب بقوله : فاما تقتلوا سعدا سفاها ، ثم أشـار الى رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وقد كفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، فقد ردهم الله بريح الصبا التى نصر بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ٠

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ وديـوان كعب بن مالك ص ٢٧٩ ٠
(٢) الفل : القوم المنهزمون — الشريد : الطريد ٠
(٣) دامرين : هالكين ٠
(٤) المتكمة : الأعمى الذى لا يبصر ٠

ويبدو أن جانب الفخر غالب على شعر كعب فى هـــذه الغزوة ، فعندما قال عبد الله بن الزبعرى السهمى قصيدته التى مطلعها :

حتى الديار محا معارف رسمها
طول البلى وتراوح الأحقاب(١)

رد عليه كعب بن مالك بقوله :

أبقى لنا حدث الحروب بقيـــة
من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرقة الذرى ومعاطنا
حم الجذوع عزيزة الأحلاب (٢)

والقارىء للقصيدة يتبين منها روح الفخر بادية ، ويرى فيهـــا الهدوء النفسى الذى حدث أثر رحيل الأحزاب عن المدينةووعد الرسول للمسلمين بأن قريشا لن تغزو المدينة مرة أخـــرى ولذلك ختم كعب قصيدته هذه بهذا البيت الذى شكره الله عليه ــ كما قال له ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد قال كعب :

جاءت سخينة كى تغالب ربها
فليغلبن مغالب الغلاب (٣)

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٥٧ ، والأحقاب ، الدهور ، الواحـــد حقب .

(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٥٩ وديـــوان كعب بن مالك ص ١٣٨ والنحلة العطاء ، الذرى : الأعلى يعنى بها الآطام ، ويعنى بالمعاطن منابت النخل عند الماء ، حم الجذوع : سود الأعناق ، والأحلاب ما يحلب منها .

(٣) سخينة : لقب قريش فى الجاهلية ، قيل ان قصيا كان اذ ذبحت قريش ذبيحة ، أو نحرت نحيرة بمكة أتى بعجزها فصنع منه خزيرة وهولحم يطبخ بقمح فيطعمه الناس ، فسميت قريش بهما سخينة انظر ابن هشـــام ج٣ ص ٢٦١ ، وسبل الهدى والرشاد ج ٤ ص ٥٨٦ ــ ٥٨٧ المصدر السابق وديوان كعب ابن مالك ص ٢٤٤ .

وها هى ذى قصيدة أخرى قالها كعب بن مالك فى هذه الغزوة أيضا بدأها بالفخر فقال :

من سره ضرب يمعمـــع بعضه
بعضا كمعمعة الأباء المحرق (١)
فليأت مأسدة تسن سيوفها
بين المذاد وبين جزع الخندق(٢)

وبعد أن يعدد كعب بن مالك عناصر القوة لدى المؤمنين ، وأنهم قد ربوا على حمل السلاح لنصرة دين الله ، وأنهم لبســـوا الدروع البيضاء يقول :

تلكم مع التقوى تكون لباسنا
يوم الهياج وكل ساعة مصدق
نصل السيوف اذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها اذا لم تلحق

ويتحدث عن طاعتهم لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو أمر يدعو الى الفخر فيقول :

ويعيننا الله العزيز بقــــوة
منه وصدق الصبر ساعة نلتقى

---

(١) المعمعة : التهـاب النار وحريقها ، ثم اســتخدمت فى اختلاف الأصوات ، وفى اشتداد القتال . الأباء : الآغصان الملتفة .

(٢) المأســـدة : موضــع الأســود ، وأراد بها هنا موضـــع الحرب ، المذاد بميم مفتوحة من ذاده . أى طرده وهو اسم موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، والجزع :الجانب .

ونطيع أمر نبينا ونجيبه
واذا دعا لكريهة لم نسبق (١)

ولكعب قصيدة أخرى أيضا فى غزوة الخندق بدأها بقوله :

لقد علم الأحزاب حين تألبـــوا
علينا وراموا ديننا ما نوادع(٢)

غير أن ابن هشام يقول : ان هذه الأبيات من قصيدة أخـــرى لكعب لكنه لم يذكر لنا القصيدة التى أشار اليها ، والتى اســتقطعت الأبيات منها ، وكعب فى هذه الأبيات يذكر تحزب الأحــزاب ويذكر أنهم أرادوا اثناءهم عن دينهم ، وأن هؤلاء القوم قد أتوا ينضـــم بعضهم الى بعض ، وأنهم متفقون على أمر واحد وهو حرب الاســلام والمسلمين ، لكن الله سبحانه وتعالى ــ نصرنا عليهم وردهم خائبين والأبيات التى أشار اليها ابن هشام تقول بعد البيت السابق :

أضاميم من قيس بن عيلان أصفقت
وخندف لم يدروا بما هو واقع(٣)
يذودوننا عن ديننـــا ونذودهم
عن الكفر والرحمن راء وسامع (٤)
اذا غايظونا فى مقـــام أعاننـــا
على غيظهم نصر من الله واســـع

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ المصدر السابق ٠
(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٦٣ ، وديوان كعب بن مالك ص ٢٢٠ ٠
(٣) أضاميم : جماعات انضم بعضها الى بعض أصفقت : اجتمعت ٠
(٤) يذودوننا : يدفعوننا ٠

وذلك حفـــظ الله فينا وفضـــله
علينا ومن لم يحفظ الله ضـــائع
هدانا لدين الحـــق واختاره لنا
ولله فوق الصـانعين صـــنائع

لقد كان نتاج كعب فى هذه الغزوة وفيرا ، وجادت قريحته بقصائد لم تحظ بها غزوة أخرى ، وهذا ما جعلنا نقرر أن فرحة النصر قـــد جعلته يخف لقول الشعر ، وأن وعد رسول الله للمسلمين بأن المشركين لن يغزوهم فى المدينة بعد اليوم قد بعث فى قلوبهم الفـــرح ، وجعـــل عاطفتهم تتقد ، وتجود بما يمكن أن تجود به لتسجيل ذلك الحـــدث العظيـــم •

وآخر القصائد التى قالها كعب فى غزوة الخندق ، كانت فى الفخر أيضا بدأها بقوله :

ألا أبلغ قريشـــا أن سلعا
وما بين العريض الى الصماد (١)
نواضح فى الحروب مدربات
وخوص ثقبت من عهد عاد (٢)
رواكد يزخر المرار فيهـــا
فليست بالجمام ولا الثماد (٣)

---

(١) سلع : جبل بسوق المدينة ، العريض : بضم العين وفتح الراء مصغر واد بالمدينة ، والصماد (بفتح الصاد وكسرها) جبل •

(٢) النواضح : يعنى بها حدائق نخل تسقى بالنضح ، والخوص : الآبار الضيقة ، وثقبت : حفرت •

(٣) رواكد : ثابتة دائمة ، ويزخر : يعلو ويرتفع ، والمرار ، نهر • والجمام جمع جمة وهى البئر الكثيرة الماء ، والثماد ، الماء القليل • والقصيدة فى السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ •

كأن الغاب والبردى فيهـــا
أجش اذا تبقع للحصاد (١)

وهكذا يسجل شعر كعب بن مالك غزوة الخندق ولكنــه تسجيل قوامه الفخر وابراز قوة المسلمين المادية والمعنوية — كما ســيأتى الحديث عن ذلك فى الفصل التالى — وأن الله سبحانه وتعالى من ورائهم ينصرهم على أعدائهم ، ويرد عنهم كيد المعتدين .

واذا كان كعب بن مالك قد سجل أحداث الغــزوات فى المرحلة الأولى — كما حدث فى غزوة بدر وأحد واجلاء بنى النضيرفانه فىغزوة الخندق لم يسر على هذا النمط من الشعر ، وانما أضحى شعره بعــد ذلك شعرا فخريا يبرز فيه بطولة المسلمين وثباتهم فى حرب أعدائهم ، لكنه أعطانا أيضا تصورا لكل هذه الغزوات ، غير أننى لم أجـــد له قصيدة فى صلح الحديبية فهل حدث ذلك لأن كعبا كان يرى فى هــذا الصلح نصرا بذاته لا يحتاج الى تسجيل ؟ أم أن كعبا أراد أن يعطى الفرصة كى يكون هذا الصلح فاتحة خير تحول بين المســلمين وبين ازهاق الأرواح والتنابز بالألقاب ، والبعد عن الهجاء والعــداء أم أن المسلمين لم يخوضوا معركة حربية تثير قرائح الشــعراء ، وتحفزهم الى قول الشعر ، والتغنى بما أبداه المسلمون من بطولة ؟ هنــــاك افتراضات كثيرة يثيرها الذهن حول هذا الموضوع ، ولعل كعبا قد قال فى ذلك شعرا لم يدون خاصة وأن هذا الصلح قد جاء بعد أحــداث مثيرة جديرة بتسجيل الشعر لها ، فقد أعتقل المشركون عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وقام المسلمون جميعا يبايعون رسول الله — صلى

---

(١) وفى ديوان كعب بن مالك ص ١٩٢ الغاب : الشــجر الملتف ، والبردى نبـات ينبت فى البر تصـنع منه الحصر الغـلاظ ، وأجش عالى الصوت ، صارت فيه بقع صفر .. وهو بفتح التاء وتشديد القاف .

الله عليه وسلم — بيعة الرضوان التى سجلها القرآن الكريم فى قـوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبـايعونك تحت الشـجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » • الآية ١٨ من سورة الفتح •

ولقد قال كعب بن مالك قصيدة فى خيبر أشار فيها الى ذلك النصر الذى انتصره المسلمون والذى وقع فى سنة سبع لهجرة رسـول الله صلى الله عليه وسلم — يقول كعب :

ونحن وردنا خيبرا ، وفروضه
بكل فتى عارى الأشاجـع مذود

جواد لدى الغايات لا واهن القوى
جرىء على الأعداء فى كل مشـهد

عظيم رماد القدر فى كل شـتوة
ضـروب بنصل المشرفى المهند

يرى القتل مدحا ان أصاب شـهادة
من الله يرجوها وفوزا بأحمـد

يذود ويحمى عن ذمار محمـد
ويدفع عنه باللسـان وباليـد

وينصره من كل أمر يريبـه
يجود بنفس دون نفس محمـد

يصدق بالأنباء بالغيب مخلصـا
يريد بذاك الفوز والعز فى غد (١)

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٤٩ المصدر السابق • وديـوان كعب بن مالك ص ١٩٦ •

وهو حديث أيضا عن هذه الغزوة لا يعطينا ما كنا ننتظره من كعب ابن مالك الذى شهد أحداثها ورأى ما قام به المسلمون فى هذه الغزوة، وكيف كان موقف الرسول — صلى الله عليه وسلم — عندما أعطى الراية عليا بن أبى طالب — كرم الله وجهه — ودعا الله أن يفتح عليه ، بل قال عنه انه رجل يحبه الله ورسوله ، وكيف استطاع على بن أبى طالب أن يحقق نصرا عظيما للاسلام والمسلمين ، ان كعبا لم يصور لنا ذلك كله ، وانما أعطانا تصورا لأولئك الرجال الذين ساروا خلف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن هؤلاء الرجال كانوا أقوياء كرماء يجودون بأرواحهم فى سبيل نصرة الاسلام ، بل انهم كانوا يرون القتل مدحا ، لأنه شهادة من الله لهم يرجوها كل من يحمى حمى الاسلام ، ويذود عن ذمار محمد — صلى الله عليه وسلم — ولم ينس كعب أن يعطى شرفا لمن يذود عن رسول الله ، بلسانه ويده فى قوله « ويدفع عنه باللسان وباليد .

لكنه على كل لم يكن ذلك التصوير مضفيا على ذلك النصر ما يستحقه من اجلال وتكريم ، وخاصة أن كتب السير قد تحدثت عن ذلك النصر حديثا حافلا بما أبداه المسلمون من بطولات وأمجاد .

ولقد أورد ابن هشام ما أبداه سيدنا على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — من بطولة حين أمره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يحمل الراية وقد كان بعينه رمد ، فتفل الرسول فى عينه وقال له : « خذ هذه الراية ، فامض بها حتى يفتح الله عليك » .

وفى ابراز ما أبداه على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — من بطولة يقول ابن اسحق : « حدثنى عبد الله بن الحسن ، عن بعض أهله عن أبى رافع مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، قال : خرجنا مع على بن أبى طالب — رضى الله تعالى عنه — ، حين بعثه

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — برايته ، فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم ،فضربه رجل من يهود ، فطاح ترسه من يده ، فتناول على — عليه السلام — بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهـــد على أن نقلب هذا الباب ، فما نقلبه (١)٠

وليس ذلك غريبا من على بن أبى طالب ، فهو صاحب القـــوة الفائقة ، ولقد استطاع فى غزوة الخندق الخروج الى عمرو بن عبدود وهو من هو قوة وشجاعة ، وتغلب عليه بأمر الله وقتله (٢) ٠

واذا كنا نعجب من أن كعبا لم يقل شعرا فى صلح الحديبية ، أو أن شعره فى خيبر لم يتناسب وجلال الموقعة ، وعظمة التضحية فان عجبنا يزداد عندما نتصفح السيرة النبوية ، وديوان كعب الذى اعتمد فيــه جامعه على ما ورد فى السيرة النبوية فلم نجد له شعرا فى فتح مكة،وهو يثير لدينا كثيرا من التساؤلات ، ويجعل الباحث فى حيرة من أمره،ففتح مكة حدث جليل ، وغاية كانت بعيدة المنال عند المسلمين فى أول الأمر، وهو تتويج لذلك الصراع الذى دام سنين عددا ، والذى راح ضحيته مئات من الرجال ٠ فلماذا يقصر الشعر فى تسجيل هذا الحدث العظيم، ان حسان بن ثابت قال قصيدته العظيمة :

عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خــلاء (٣)

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٣٥ ٠
(٢) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ٠
(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٤٢١ ، ٤٢٤ ٠

وفيها يقول :

عــــدمنا خيلنا ان لم نردها
تثير النقع موعـــدها كداء
ينازعن الأعنة مصـــعدات
على أكتافها الأســـل الظماء
تظـــل جيادنا متمطــرات
يلطمهن بالخمر النســـــاء

وهى قصيدة لها وقعها فى تهديد قريش ، وابداء القــوة المــادية والمعنوية التى آل اليها أمر المسلمين لكننا لم نجد شعرا لكعب يصــور جلال هذا النصر ، أو يسجل عظمة جند المسلمين الذين أحاطوا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — احاطة السوار بالمعصم ، والذين دخلوا مكة من مختلف مداخلها فكسر رسول الله الأوثان والاصنام وقال جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وصعد بلال لأول مرة الكعبة، ليعلن فيها كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، بل ان رسول الله يصفح عن قومه الذن آذوه وأخرجوه وهذا ما لم يقم به منتصر فى كل مراحل التاريخ ، يشهد كل ذلك كعب بن مالك ولا تجود قريحته بقصيدة تسجل هذه العظمة ، ان هذا لأمر عجاب .

وآخر القصائد التى نقدمها فى هذا الجانب هى تلك القصيدة التى قالهـــا كعب بن‌مالك فى غزوة حنين ، والتى قالها ورسول الله سائر الى الطائف بعد أن فرغ من حنين ، وهى قصيدة يبدو فيهـــا جانب الفخـــر واضحـــا ، فقد قال فى مطلعها :

قضينـــا من تهـامة كـــل ريب
وخـــيبر ثم أجمعنـــا السيوفـــا (١)
نخـــيرها ولو نطقت لقـــالت
قواطعهن دوســـا أو ثقيفـــا (٢)

وهو البيت الذى جعل الرعب يدب فى دوس فقال بعضهم لبعض : انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، حتى لا يحل بكم ما حل بغيركم •

والقصيدة فيهـا تهديد صريح لأهل الطائف ، وأن الجند قد أقبلوا عليهم وهم فى عـدة لا يستطيعون مقاومتها وفى عدد لا يعد ولا يحصى يقول عنه :

وأنـــا قـد أتينـــاهم بزحـف
يحيط بســـور حصنهم صفوفـا(٣)
رئيســهم النبى وكـان صلبـــا
نقى القلب مصطبرا عزوفا (٤)
رشـيد الأمـر ذو حـكم وعـلم
وحـلم لم يكن نزقا خفيفـــا (٥)

ويســتمر كعب بن مالك فى تهديد أهل الطائف الذين تحصـنوا بحصنهم ، وأبو الاستسلام وحاربوا المسلمين ، ولكن الله صدق وعده ، ونصر عبده بأولئك الجند الذين آلوا على أنفسهم أن ينصروا دين الله ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى يقول كعب:

---

(١) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز ، والريب : الشك • وأجمعنا أرحنا ، والقصيدة فى السيرة النبوية ج ٣ ص ٤٧٩ وفى ديوان كعب ص ٢٣٤ •
(٢) نخيرها : نعطيها الخير ، ولو نطقت لاختارت دوسا أو ثقيفا •
(٣) زحف : جيش •
(٤) العزوف : المنصرف عن الشىء زهدا فيه مع اعجابه به •
(٥) النزق : الكثير الطيش •

فــان تلقــوا الينــا الســلم نقبل
ونجعلكم لنــــا عضدا وريفا (١)
وان تــأبوا نجـــــاهدكم ونصــبر
ولايك أمــرنا رعشــــا ضعيفا (٢)
نجالد ما بقينـــــا أو تلبـــوا
الى الاسلام اذعانا مضيفا (٣)
نجـــاهد لا نبـــالى ما لقينــــا
أأهلكنا التــلاد أم الطريفا (٤)
وكم من معشـــــر ألبـــوا علينـــا
صميم الجـــذم منهم والحليفـــا (٥)
أتونـــا لا يرون لهــــم كفــــــاء
فجدعنـــا المســـامع والأنوفـــا (٦)
بكـــــــل مهنــد ليــن صقيـــــــل
يســـوقهم بهـــــا سوقا عنيفا (٧)
لأمـــر اللـــه والاســـــلام حـــتى
يقـــوم الـــدين معتدلا حنيفـــــا
وتنسى اللـــــلات والعــــــزى وود
وتســـلبها القـــلائد والشنوفا (٨)

---

(١) الريف : المواضع المخصبة التى على المياه ، يريد يتخذكم أعوانا ، ونستمد من ريفكم العيش .

(٢) رعشا : متقلبا غير ثابت .

(٣) نجالد : نحارب بالسـيوف ، الاذعان : الخضــوع والانقياد . مضيفا : ملجأ .

(٤) التلاد : المال القديم . الطريف : المستحدث .

(٥) ألبوا علينا : جمعوا علينا . الصميم : الخالص . الجذم ، الأصل

(٦) جدعنا بتشديد الدال : قطعنا وأكثر ما يستعمل فى قطع الأنوف

(٧) لين : مخفف من لين بتشديد الياء .

(٨) الشـــنوف : جمع شـــنف وهو القرط الذى يكون فى أعلى الاذن

فأمســوا قــد أقــروا واطمــأنوا
ومن لا يمتنع يقبل خسوفا (١)

وهكذا يقــدم لنــا كعب تسجيلا للغزوات التى وقعت والتى شارك فى أكثرها ، وتخلف عن أقلها ولكنــــه تســـجيل قد شابه بالوصف، حينــا ، وبالفخر أحيانا ، وجانب الفخــر فى شعر كعب الذى قاله فى الغزوات سنعرض له فى الفصل التالى ، حتى نجعل القارىء يقف على أبرز الجوانب الفخرية فى شعر كعب ، وسنترك الكلمة الفصل فى هذا الشــعر حتى الباب الثالث من هــذا البحث .

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٨٠ والديوان ص ٢٣٤ .

الفصل الثانى

فخره ببطولات المسلمين

لقد كانت غزوة بدر أولى الغزوات التى خرج فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلتقى بالمشركين الذين ناصبوه العداء فى مكة ، حتى كتب الله لدينه أن يجد رجالا ينصرون نبيه ، ويدافعون عن كلمته ، ولم يكتف المشركون بخروج رسول الله من مكة بل انهم أرادوا تتبعه أينما حل وحيثما نزل ان « الاسلام لم يلق الحرب الا من قريش ، ولم يقف منه موقف العناد الا هذه البيئة التى كان سلطان الدين القديم يظلها ، ويخضع لها جميع رقاب العرب ، ويوم غلب على معقل النضال هذا فى مكة سارع الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ودانت الجزيرة من أقصاها الى أقصاها لم يخالف عليه أحد كأنه الوضع الطبعى الذى لابد أن تنتهى اليه الأحوال » (١) .

وهذه الأحوال التى انتهى اليها الأمر فى الجزيرة العربية مرت بأهوال عظام ، وأحداث جسام ذاق المسلمون حلاوتها أحيانا ومرارتها حينا لكن ذلك لم يفت فى عضدهم ،ولم يضعف من ايمانهم الذى تعمق لديهم بأن نصر الله قريب ، وأنهم سينالون فى كفاحهم هذا احدى الحسنيين النصر أو الشهادة وكلا الأمرين سيسجل لهم فى سجل الشرف والفخار .

ولقد وقف الشعر الى جانب هذه المبادىء التى جاء بها الاسلام ينافح عنها بألحانه ، ويدافع عنها بمنطقه وحسن بيانه ، ويعلى من

---

(١) نجيب محمد البهبيتى ، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ج ١ ص ١١٢ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة .

شأنها بسحره وأنغامه ، فأضحت هذه الألحـان وتلك النغمات صورا مشرقة أبرزت بطولات المسلمين ، واستبسالهم فى معاركهم من أجـل اعلاء كلمة الله ، لقـد حرصوا على الموت ، فوهب الله لهم الحياة •

والشعر فى كل أطواره يؤدى دوره الرائد فى الهاب حماس الجند، وابراز بطولاتهم التى رى فيها نماذج حسية لكل من يريد اقتـــداء وتأسيا ، فلقد وقف عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلى شعره على ابراز بطولات قومه ، والحديث عن تلك المفاخر التى نالوها ، فقد سادوا العرب بقوتهم وتحكموا فى مصائرهم بشجاعتهم واقدامهم وهذه صـورة من صور عمرو بن كلثوم الشعرية تدرك من قراءتها ما يرمى اليه الشاعر ، فهـو يقول :

ورثنـا المجد قـد علمت معد
نطـاعن دونـه حتى يبينـا (١)
ونحن اذا عمـاد الحـى خـرت
على الأحفاض نمنع من يلينـا (٢)
ندافـع عنهم الأعـداء قـدما
ونحمـل عنهم مـا حملونـا (٣)
نطاعن ما تراخى الناس عنـا
ونضرب بالسـيوف اذا غشينا (٣)
بسـمر من قنـا الخطى لـدن
ذوابل أو ببيض يعتلينـا (٤)

---

(١) يبينا : بان الشىء : ظهر •
(٢) عماد الحى : الخشب الذى تنصب به الأخبية ويوضع عليها المتاع
(٣) تراخى : تباعد • غشينا : أى اقترب بعضنا من بعض •
(٤) الخطى : منسوب الى الخط وهو البحرين • لدنا : لينة • ذوايل فيها بعض التيبس • نعتليها : أى نجعل الرقاب كالخلى وهو الحشيش •

نشق بهـا رؤوس القـوم شقـا

ونخليهـا الرقـاب فيختلينـ (١)

تخال جماجم الأبطـال منهم

وسوقا بالأماعز يرتمينـا (٢)

ويطول نفس عمرو بن كلثوم فى هذا اللون من وصف المعـركة والفخـر بقومه الذين ألحقـوا الهزائم بأعدائهم ، وهو لون من الشعر لا يستطيعه الا اولئك الذين اوتوا قدرة فائقة فى هـذا الميدان ، أو خاضوا المعارك ، واصطلوا بنارها ، فجاء شعرهم تعبيرا عما أحسوه ، أو رأوه رأى العين .

ان الفرحة بالنصر تجعل الشعراء يخفون للحديث عن ذلك النصر، والتغنى بدور الأبطال الذين جلبوا النصر لقومهم ، وجعلوا هاماتهـم تتسـامى حتى تقارب السحاب ، ومهما قيـل فى فرحة النصر ، فان السامعين لا يجدون فيهـا غلوا ، أو تجاوزا للحقيقة ، وانما هى الألحان الشجية تتردد ، فيعم صداها الدنيا ، ويمتلك شدوها شغاف القلوب ، فعندما قـال النابغة الجعدى فى حضرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا

وانا لنرجو فوق ذلك مظهـرا

لم ينكر عليه الرسول الشطر الأول من بيته ، ولكنه سأل متعجبا عن الشطر الثانى قائلا له : الى أين يا أبا ليلى ؟ فقال النابغـة : الى الجنة بك يارسول الله : قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم : ـ نعم ـ ان شـاء الله (٣) .

---

(١) نخيلها : نجعل الرقاب كالخلى وهو الحشيش .

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ تحقيق على محمد البجاوى ط دار نهضة مصر . والأماعز جع أمعز وهو مكان فيه حصى . وسوقاً : جمع وسق بفتح الواو وهو الحمل .

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣٧ ،٣٨ المصدر السابق .

ولقد سجل كعب بن مالك الغزوات التى خاضها المسلمون ضــد جحافل الشرك ، وطغيان الجبابرة ــ كما رأيت فى الفصل السابق ــ ولكنه تسجيل مشرب بالفخر عندمـــا ينتصر المسلمون ومشرب بمرارة الاخفاق فى غير ذلك ، بل وقـــد يأتى الرثاء لأبطال المســـلمين اظهارا لعظمتهم وتضحيتهم من أجل الحق ، وقد يحاول كعب فى بعض المواضع تخفيف وطأة الهزيمة على المسلمين ، وكسر حدة الفخر لدى المشركين، فيذكرهم بمـــا ألحقه المسلمون بهم من هزيمة وما أصابهم من قـــتل وأسر •

ولو حاولنا نتبع شعر كعب الذى يفتخر فيه على المشركين ويظهر قوة المسلمين ، المتمثله فى ايمانهم بالله ، ويقينهم بالنصر ، وحبهم لرســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأينا صورا مشرفة تنم عن ايمان بالله ورسوله ، ويقين بنصر الله الذى وعد •

فهاهى ذى قصيدة كعب بن مالك فى غزوة بدر تعطينا تصورا لمـــا أسلفناه فقد ســـجل كعب بن مالك ذلك النصر العظيم ، وسجل عـــدد المشركين وعددهم ، وعدد المسلمين الذين لم يخرجوا للقتال ، وانما خرجوا لعير أبى سفيان ثم نتيجة المعركة وما لحق بالمشركين من قتل وأسر ، ثم افتخر بقوله :

وفينـــا رسول الله والأوس حـــــوله
لــه معقل منهم عزيز ونـــاصر (١)

وجـــمع بنى النجــــار تحت لوائه
يمشـــون فى الماذى والنقع ثائر (٢)

---

(١) معقل : حصن • عزيز : ممتنع لا يستطيع أحد الاقتراب منه • ناصر معين •

(٢) لوائه : اللواء الراية • الماذى،الدروع البيض اللينة ، النقع:الغبار

فلما لثيناهم وكل مجاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر (١)
شهدنا بأن الله لا رب غيره
وأن رسول الله بالحق ظاهر (٢)
وقد عريت بيض خفاف كأنها
مقابيس يزهيها لعينيك شاهر (٣)
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقى الحين من هو فاجر (٤)

لعل القارىء لهذا الشعر يرى فيه عظمة الايمان مشرقة ، ايمان برسول الله ، ويقين بنصر الله ، واجلاء لدور الرجال الذين ساروا للقاء أعدائهم غير هيابين ولا وجلين ، فقوله : « وفينا رسول الله ايحاء بتلك القوة التى يمنحها لهم وجود رسول الله بينهم فهم أقوياء به مستبسلون تحت قيادته ، معتزون بدينه ، موقنون بنصره ، وكأنه يقول للمشركين ان هناك بونا شاسعا بيننا وبينكم ، ففى الوقت الذى يتقدمنا فيه رسول الله ، يتقدمكم الشيطان وفى الوقت الذى نعتز فيه برسول الله تعتزون باللات والعزى ، فما أبعد ما ينتظرنا وينتظركم ويؤكد ذلك أيضا قوله شهدنا بأن الله لا رب غيره وهى شهادة تجعل المؤمن منطلقا الى غايته التى ينتصر فيها لدين الله ، ويعلى بها كلمة التوحيد ، ثم قوله : « وأن رسول الله بالحق ظاهر » يؤكد قضية النصر ، ويقوى عقيدة الغلبة التى ستكون لهم على عباد

---

(١) مستبسل النفس : مصمم على خوض المعركة .
(٢) ظاهر : منتصر .
(٣) عريت : خرجت من أغمادها . بيض ، سيوف ، مقابيس : جمع مقباس ، القطعة من النار ، يزهيها : يحركها .
(٤) أبدنا : أهلكنا . تبددوا : تفرقوا ، الحين بفتح الحاء وسكون الياء ، الهلاك . والقصيدة فى السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٤ ، ١٥ وديوان كعب بن مالك ص ٢٠ .

الأصنام والأوثان ، وتعمق جانب الايمـــان فى قلوب المؤمنين الذين خرجوا خلف رسول الله •

ولم يتكل المسلمون على وعد الله لهم بالنصر ، ولم يقعدوا عن القتال ، فيدافع الله عنهم وانما قالوا لرسول الله ذلك القول الذى أظهروا فيه أنهم لن يتخلفوا عن القتال مهما كانت العواقب « انا لا نقول لك كمـا قال قو مموسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون » فلو استعرضت بنا يا رسول الله هذا البحر فخضته لخضناه معك • ما تخاف منـا رجـل واحد (١) • وعلى ذلك جـاء قول كعب بن مالك : « والأوس حوله » أى حول رسول الله — صلى الله عليه وسلم » ثم قوله « وجمع بنى النجار تحت لوائه » •

وهو اظهار لتفانى الأوس والخزرج فى نصرة الدعوة ، والدفاع عن مبادئها ، ولعل ما توحى به الكلمات ، « حوله » — « له معقل » — « عزيز وناصر » — « تحت لوائه » يمشون فى الماذى — يظهر لنا مـدى عظمة هؤلاء الرجال الذين التفوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمنعونه من أن تناله أيدى المشركين ، ويحمونه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم وفى ذلك رد على ضرار بن الخطاب بن مرداس الذى قلل من دور الأوس والخزرج فى هذه المعركة فقال :

أولئـــك لا من نتجت فى ديارهـــا
بنو الأوس والنجـــار حين تفـــاخر

ويختم كعب بن مالك فخره هنا بمـا حدث ساعة التقاء الجمعين ، فقد أخرجت السيوف من أغمادها انك لو رأيتهـا لحسبتها قطعا من النار

---

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٦١٥ المصدر السابق •

يرفعها المحاربون ، اننا أبدنا جمعهم ، وفرقنا شملهم بهذه السيوف التى جعلتهم يلقون حتفهم ، أو كان هؤلاء الفجرة على موعد مع الموت ، لقد التقوا واياه فى هذه الساحة ، فتخطفهم ، حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر .

ولعلك تدرك — كما أسلفت — أن فخر كعب ليس فخرا عاديا ، وليس فخرا بالأحساب والأنساب ، وليس فخرا بخوضه المعارك ، أو فخرا بقومه وما أحدثوه فى أعدائهم من هزيمة لهم أو غلبة عليهم — كما فعل عمرو بن كلثوم — وانما فخر بانتمائهم الى دين الله ، وسيرهم خلف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ففى الوقت الذى قال فيه ضرار ابن الخطاب :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر

قال كعب بن مالك :

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جائر

فهو فخر بقضاء الله وقدره ، فخر بقدرة الله التى لا تقف دونها قدرة ، ولن يستطيع أحد أن يقف أمام قوته وجبروته ، انه لون من الفخر لم يعرفه العرب من قبل ، وكأن الاسلام قد غير عادتهم ، وقلب موازين فنهم ، فجعل الناس لا يفخرون بأحسابهم وأنسابهم ، وانما يفخرون بأسبقيتهم الى الانضمام تحت لواء هذا الدين الجديد الذى وجدوا فيه أمنهم وسعادتهم وعزهم ومجدهم ، وكأنهم يقولون للمشركين الذين مازالوا يعبدون الأصنام ان فخرنا بهذا الدين ، ونصرتنا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — تنطلق من ايماننا بالله ، وتوحيدنا ويقيننا بأن العزة ان تكون الا لمن أعزه الله .

واذا جاءت بعض الأبيات تتحدث عن دورهم فى الحرب ، وتذكر موقف الأوس والخزرج فانمـا أتت ، لترد على ما اثاره المشركون من أن النصر الذى نصره المسلمون لم يكن للأوس والخزرج جانب فيه وقـد استخدم ذلك مضافا الى رسوله فقوله :

وفينا رسول الله والأوس حوله

وقـوله :

وجمع بنى النجـار تحت لوائه

فيه دلالة على أن هؤلاء الناس قاموا بهذا الدور نصرة لدين الله ، ودفاعا عن رسول الله •

وقد اعتمد كعب فى فخره — أيضا — على استخدام بعض الكلمات التى لهـا ايحاؤها ومدلولها المعين فى نفوس الأعداء ، فقوله : « قضى الله » يوحى بأن أمر الله واقع عليهم فـلا مهرب لهم منه ، وقـوله : « حشـدوا واستنفروا » يوحى بأن كثرتهم لن تغنى عنهم من اللـه شيئا ، ويوحى أيضا بقيمة هـذا النصر الذى وقع للمسلمين ، فهم لم ينتصروا على أقران لهم ، أو متماثلين فى العدد والعدد ، وانمـا انتصروا على ذلك الحشد الهائل الذى جمعه المشركون ، وقوله : « له معقل»يوحى بأنهم قطعوا على أنفسهم عهدا أن يمنعوا رسول الله ، ولن يستطيع أحـد أن يصل اليه ، وقوله فى صفة بنى النجـار • يمشون فى الماذى والنقع ثائر ، يوحى بأنهم قد اتخذوا عدتهم لنصرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقوله عن أبى جهل : « فكب أبو جهل صريعا » يوحى بالذلة والهوان ، فبعد أن كان جبارا عنيدا ، اذا بجبروت الله يأخـذه فينكب على وجهه ، كما يكب أذل الناس،وقوله : «فأمسوا وقود النار» يوحى بتخويف أولئك المشركين الذين ما زالوا أحياء من نفس المصير الذى ينتظرهم ان هم استمروا على بغيهم وكفرهم •

وهكذا تعطى الكلمات والعبارات رسالتها عند كعب دون اللجوء الى استعمال مؤثرات خارجية فجاء هــــذا الشعر مؤثرا بذاته مؤديا رسالته التى قيل من أجلها .

واذا كانت غزوة أحـــد قد انتهت بتلك الهــــزيمة التى لحقت بالمسلمين ، والتى حاول شعراء قريش أن يتخذوا منها مادة يفتخرون بها على المسلمين ، ويعلنون لهم أنهم قد تأثروا لقتــلاهم فى بدر فان كعب بن مالك قد انطبعت على شعره تلك الصورة القاتمة التى أظهرتها افتتاحيته فهو يقول :

ألا هل أتى غسان عنا وعنهـــم
من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار وأعــلام كان قتامها
من الأرض خرق سيره متقطع

لكنه لا يستمر فى هذا اللون من الشعر طويلا ، بل يتخلص منه الى تخفيف وطأة الهزيمة عن المسلمين ، وكسر حدة الفخر لدى المشركين فيذكر كليهما بما حدث فىبدر بادئا حديثه بأن نضالهم هذا من أجــل اعلاء كلمة الحق ، ورفعة هذا الدين فهو يقول :

مجـــالدنا عن ديننا كل فخمـــــة
مدربة فيها القوانس تلمـــــع (١)

---

(١) مجالدنا : دفاعنا . كل فخمة : كتيبة عظيمة . القوانس : جمع قونس : رؤوس بيض السلاح . تلمع : تضىء .

وكل صموت فى الصـــــوان كأنها
اذا لبست نهى من المـــاء متـــرع (١)

وهذا الحديث كما نرى يخفف به كعب هذه النـــازلة التى نزلت بالمسلمين ، ويذكرهم أن دفاعهم عن دينهم يجب أن يوطنـــوا أنفسهم فيه على ان يلاقوا الشهادة فى سبيله ، وأن يتحملوا الصعاب من أجله، أنهم يلقون بذلك الكتـــائب القوية التى استعدت لحربهم ، وتدربت لقتالهم ، وجهزت نفسها بمختلف ألوان الأسلحة كى يفتنوهم عن دينهم، ويحولوا بينهم وبين الايمان بالله — سبحانه وتعالى — ولكنه يعبـــر ذلك سريعا ، ليتحدث عن موقعة بدر وما ألحقوه بالمشركين من هزيمة فيقـــول :

ولكن ببدر سائلوا من لقيتمـــوا
من الناس والأنباء بالغيب تنفع(٢)

وانا بأرض الخوف لو كان أهلهـــا
سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا (٣)

اذا جاء منـــا راكب كان قـــوله
أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع (٤)

فمهما يهم النـــاس مما يكيـــدنا
فنحن له من سائر الناس أوســـع

---

(١) الصموت : الدرع التى أحكم نسجها وتقارب حلقها فلا تسمع لها صوت . الصوان : ما يصان فيه الدروع . النهى : موضع تجمع الماء . المترع . الملىء .

(٢) الأنباء : الأخبار . وهو تذكير لهم بيوم بدر .

(٣) أرض الخوف : كناية عن يثرب . أقشعوا : فروا وزالوا .

(٤) يزجى : يسوق . ابن حرب : فارسها .

فلو غيرنا كانت جميعا تكيـــده الـ
برية قد أعطوا يدا وتورعـــوا (١)
نجالد لا تبقى علينـــــا قبيلة
من الناس الا أن يهابوا ويفظعوا (٢)

لقد افتخـــــر كعب بن مالك بيوم بدر ، حتى يرد على هـــؤلاء المشركين الذين غرهم نصرهم يوم أحد ، وحتى يذكر هبـــيرة بن أبى وهب بموقفهم يوم أن هزموا هزيمة نكراء ، فقتل منهم الكثيرون وأسر منهم الكثيرون — أيضا — ، فاذا كنتم قد نسيتم ذلك فعليكم أن تسألوا من لقيتم من الأبطال المسلمين ، حتى يعلموكم جلية الأمر ، والتاريخ فيه عبرة لمن أراد أن يعتبر .

لكن كعبا يطالعنا بأمر جديد لعل الذى دفع اليه هذا الألم الذى أصاب المسلمين عقب هذه المعركة أنه حديث عن يثرب تلك المنطقة التى يقيم بها الأوس والخزرج ، انها منطقة تقع بين حرتين ولايقيم فيها الا الأبطال الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، وعن ممتلكاتهم ، وقد تحدث عنها كعب بقوله : «انا بأرض الخوف» ، ثم تحدث عن بطولتهم وشجاعتهم بقوله « لو كان أهلها غيرنا لمـــا استطاعوا الاقامة فيهـــا ، ولرحلوا عنها وخلفوها بابل ، وكأن كعبا يريد أن يقـــــول لهم : انكم تقيمون بأرض آمنة فيها بيت الله الحرام الذى تعظمه العرب كلهـــا ، أما نحن فان اقامتنا بهذه المنطقة جعلتنا نعطى أهميـــة كبرى للدفاع عنها ، وهذا يتطلب منا أن ينشأ أبناؤنا جميعا محبين للقتال والمخاطرة، وهو ما عناه بقوله :

---

(١) البرية : الخلق ، تورعوا : ذلوا .
(٢) يهابوا : يحذروا : يفظعوا : يهابوا ويفزعوا .

اذا جاء منا راكب كان قــوله
آعدوا لمـــا يزجى ابن حرب ويجمع

اننا أبناء الحرب نستعد لها ، ولا نرهب بأسها وقوتها •

ثم يذكرهم — مفتخرا عليهم قائلا لهم — انهم لا يأبهون لتوافه الأمور ، ولا يتحركون لصغائر الأحداث ، فاذا كان بعض الناس تهمهم الصغائر ، وتؤثر فيهم المكايد ، واذا كان بعض الناس يكيدون لنا فاننا لن نعيرهم اهتماما ، لأنهم لن يستطيعوا النيل منا ، فاذا كنتم تخافون من كيد الناس فاننا لن نخاف من ذلك ولو أتى الكيد من الخلق كلهم أن البرية كلها تذل لنا ، وتخضع لسلطاننا ، بل ان لنا أيادى ســـابغة على سائر الخلق ، ونحن نجالد كل من يحاول النيل منا ، حتى انه لم تبق قبيلة من القبائل التى دخلت معنا فى صراع الا وقد ذلت لسلطاننا، وخافت قوتنا وبأسنا ، ان قوتنا معروفة للجميع وعليكم أن تعيـــدوا حساباتكم مرة ومرات ان أنتم فـــكرتم فى قتالنا أو العودة الى هـــذا المكان مرة أخرى •

وهذا الفخر من كعب الذى افتخر فيه بقوة الأوس والخزرج ، وتذكير المشركين وتهديدهم بالعودة اليهم مرة أخرى ، أو لعله رأى أن هؤلاء المشركين لم يتأثروا بما وقع لهم فى بدر وما أصابهم من خـــزى وهوان فأراد أن يذكرهم بما ينتظرهم ان هم حاولوا قتـــال المسلمين مرة أخرى •

غير أن كعبا لم يسلك المنهج الذى سلكه فى قصيدته السابقة فى غزوة بدر ، فقد اتبع هناك منهجا جديدا فى الفخر التزم فيه بالفخـــــر بالدين الجديد واتباع رسوله — صلى الله عليه وسلم — لكنه هنا عاد الى الفخر بالأمجاد والأحساب والأنساب ، ولعله أجبر على ذلك أيضا حتى يكيل للمشركين بنفس الصاع التى يكيلون بها ، ويذكرهم بماضى هذه المنطقة الذى يعلمونه جميعا •

ولعلنا نجد تبريرا لذلك — أيضا — فى نهاية القصيدة ، فقد أعلمنا كعب أن ابن الزبعرى قد افتخر عليه ، وأنه يذكره أيضا بموقفه فى الحرب ، حتى يجعله يلمس الفرق بين موقفه فى الحرب وموقف كعب ابن مالك الذى أبلى فيها بلاء حسنا — يقول كعب :

فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى
لكم طلب من آخر الليل متبع (١)
فسل عنك فى عليا معد وغيرها
من الناس من أخزى مقاما وأشنع (٢)
ومن هو لم تترك له الحرب مفخرا
ومن خده يوم الكريهة أضرع (٣)
شددنا بحول الله والنصر شدة
عليكم وأطراف الأسنة شرع (٤)
نكر القنا فيكم كأن فروغها
عزالى مزاد ماؤها يتهرع (٥)
عمدنا الى أهل اللواء ومن يطر
بذكر اللواء فهو فى الجذم أسرع (٦)

---

(١) على بتشديد الياء ، وابن الزبعرى منادى أى يابن الزبعرى ، ويعنى به عبد الله بن الزبعرى الذى تقدمت ترجمته .

(٢) عليا معد : أشرافها ، أشنع : أقبح .

(٣) خده : شخصه . أضرع : ذليل .

(٤) حول الله : قوته . شرع بتشديد الراء : مائلة للطعن .

(٥) الفروغ : الطعن المتسع . عزالى : جمع عزلاء فم المزادة . يتهرع : يتقطع .

(٦) الجذم : الأصل ، عمدنا قصدنا .

فخانوا وقد أعطوا يدا وتخاذلوا
أبى الله الا أمره وهو أصـنع (١)

بهذا يختم كعب بن مالك قصيدته فى غزوة أحد، وهو حديث يرد به على عبد الله بن الزبعرى الذى افتخر على المسلمين بانتصـارهم عليهم ، فقال له كعب بن مالك أن الفخر لا يقبل منك ، ولا يليـق بك أن تفتخر ، لأنك لست من البطون الضاربة فى العظمة والرفعـة ، وان شئت ذلك فعليك أن تسأل هل تأتى فى عليا معد ، انك أخـزى مقاما من هؤلاء فلا تفتخر ، وهل خضت الحرب فأثرت فى مسارها فكنت جديرا بهذا الفخر ؟ ان من يقول ذلك عليه أن يقدم الدليل على شجاعته وبطـولاته •

ثم يذكر كعب موقف المسلمين فى هذه المعركة ، وأنهم شدوا على المشركين شدة قوية جعلت صـفوف المشركين تنفرج أمامهم كأنها فم مزادة قد اتسع فتحها ، لقد عمدنا الى أهل اللواء فيكم فقتلناهم الواحد تلو الآخر ، وأهل اللواء هم أشرافكم والمقدمون فيكم ، وكأنه يقـول له اننا قتلنا سادتكم وكبراءكم فهل كنت واحدا من هؤلاء ؟ انك لو كنت من هؤلاء العظماء لكنت فى صفوفهم تحمل لواءهم ، وتتقدم للقـاء الأبطال والمحاربين •

وينطلق لسان كعب فى هذه الأبيات بكلمات لاذعة تطعن فى رفعة شرف عبد الله بن الزبعرى ، وتضعه فى المؤخرة ، فلم يتقدم كما يتقدم الأشراف من قومه ، وما كان لمثله أن يفتخر على مثل كعب بن مالك ، واذا كانت هذه المعركة قد أسفرت عن استشهاد بعض المسلمين فانهم

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٥ المصدر السابق •

قد قتلوا من أشراف المشركين وسادتهم من تقدموا لحمـــل اللواء ، وهذا يجعلنا نؤمن بقضاء الله وقدره .

ويبدو أن كعب بن مالك قد تبين له فى قصيدته السابقة أنه بالغ فى الفخر بقومه ، ومدى قوتهم التى اكتســبوها من اقامتهم فى منطقة يثرب ، وهو أمر لا يقبله كثير من الناس ، بل ان رسول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ عندما سمعه يقول « مجالدنا عن جذمنا كل فخمة » قال له : أيصلح أن تقول « مجالدنا عن ديننا » ؟ فقال كعب : نعم ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهو أحسن ، فقال كعب « مجالدنا عن ديننا كل فخمة » (١) فاذا به يقول قصيدة أخرى فى هذه الغزوة يرد بها على عمرو بن العاص بدأها بقوله :

أبلغ قريشا ، وخير القول أصـــدقه
والصدق عند ذوى الألباب مقبــول
ان قد قتلنا بقتـــلانا سراتكم
أهل اللواء ففيما يكثـــر القيـــل

ثم يتحدث عن غزوةبدر مبينا ما نزل بالمشركين فيها مبرزا فضل الله عليهم قائلا لهم :

ويومبدر لقينـــاكم لنا مدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل
ان تقتلونا فدين الحق فطرتنا
والقتل فى الحق عند الله تفضيل

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٦ المصدر السابق .

وان تروا أمرنا فى رأيكم سفها
فرأى من خالف الاسلام تضليل

وهو فخر يعود به كعب سيرته الأولى التى افتخر بها يوم بدر ، لأنهم انتصروا فى هذااليوم بمدد الله لهم ، وبانزاله الملائكة المسومين تؤيدهم ، وتفت فى عضد المشركين ... « اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . الآية ١٢ من سورة الأنفال .

واذا قتلنا فنحن نقتل فى سبيل الله لا فى سبيل «هبل» ولا تظنوا أنكم على حق حين تصنعون ذلك ، لأنكم خالفتم أمر الله ، ولم تتبعوا رسوله — صلى الله عليه وسلم — .

وعندما يفتخر بقوة الأنصار ، وبسالتهم فى الحرب لا يفـــوته أن يذكر أن ذلك كله بأمر الله وأنهم فى عملهم هذا ينصرون دين الله ، ويلتفون حول رسول الله فيقول :

ان لـــكم عنـــــدنا ضربا تـــراح له
عرج الضباع له خذم رعابيـــل (١)
انا بنو الحرب نمريها وننتجهـــا
وعندنا لذوى الأضغان تنكيل (٢)
ان ينج ابن حـــــرب بعـــدما بلغت
منه التراقى وأمر الله مفعـــول (٣)

---

(١) تراح : تفرح وتهتز ، الخذم بضم الخاء : قطع اللحم . الرعابيل : المنقطعة .

(٢) نمريها : نستدرها وننتجها من النتاج . الأضغان : العداوات . التنكيل : الزجر المؤلم .

(٣) التراقى : عظام الصـــدر . والقصيدة فى الســـيرة النبوية ج ٣ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وفى الديوان ص ١٧٤ ط بغداد .

فقد أفادت له حلما وموعظـــة
لمن يكون له لب ومعقـــول
ولو هبطتم ببطن السيل كافحـــكم
ضـــرب بشاكلة البطحاء ترعيل (١)
تلقاكم عصب حـــول النبى لهم
مما يعـــدون للهيجا سرابيل

وهكذا يعود كعب مرة أخرى تفخر بدين الله ، وبتأييد رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انها النغمات التى تؤثر فى جميــع المؤمنين دون أن تخص منهم جماعة ، أو تبرز فضـل قوم على قوم.

وتمضى الأيام ، ويعود المشركون مرة أخرى الى المدينة ، ويزداد عددهم هذه المرة أكثر من سابقتها ، ويحفر المسلمون الخندق ، ويحاصر المشركون المدينة ، ويستمر حصارهم قرابة الشهر وتتدخل عناية الله وينتصر المسلمون بريح الصبا ، وتتكشف الغمة وينفرج الكرب ، بل ويثلج الرسول صدر المؤمنين بخبره العظيم ، الآن نغزوهم ولايغزونا، ويقوم الشعراء بتسجيل هذا الحدث وابراز عظمته ، ويشارك كعب بن مالك فى هذا الحدث بشعره ، بلويقول أكثر من قصيدة كلها فخر ببطولة المسلمين ، فعندما يصل اليهم ما قاله ضرار بن الخطاب فى غـــزوة الخندق يرد عليه كعب بن مالك بقوله:

وســـائلة تســـائل ما لقينا
ولو شهدت رأتنا صابرينا

ثم يفتخر بتأييد الله لهم ، وسيرهم خلف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيقول :

---

(١) كافحكم : واجهكم . بشاكلة : بطرف . الترعيل : الضرب السريع

صبرنا لا نرى الله عـــدلا
على ما نابنا متوكلينـــا
وكان لنا النبى وزير صـــدق
به نعلو البرية أجمعينـــا

ثم يفتخر بقوتهم وثباتهم أمام أعدائهم فيقول :

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا
وكانوا بالعداوة مرصدينا (١)
نعاجلهم اذا نهضـــوا الينا
بضرب يعجـــل المتسرعينا
ترانا فى فضافض ســـابغات
كغدران الملا متسربلينـــا (٢)
وفى أيماننا بيض خفـــاف
بها نشفى مراح الشاغبينا (٣)
بباب الخندقين كأن أســـدا
شوابكهن يحمين العرينا (٤)
فوارسنا اذا بكروا وراحوا
على الأعداء شوسا معلمينا (٥)
لننصر أحمـــدا والله حتى
نكون عباد صدق مخلصينا

---

(١) مرصدين : معدين للأمر عدته ·

(٢) الفضافض : الدروع المتسعة ، سابغات : كاملة ، والملا مقصور : المتسع من الأرض · متسربلينا : لابسين الدروع ·

(٣) المراح : النشاط ·

(٤) الشرابك : التى يتشبث بها فلا يفلت ·

(٥) الشـــوس جمع أشوس : وهو الذى ينظـــر بمؤخر عينيه نظر التكبر · والمعلم : الذى أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها ·

ويعلم أهل مكة حين ساروا
وأحـــزاب أتوا متحــزبينا

بــأن الله ليس له شـــــريك
وأن الله مولى المؤمنينـــا

لقد أخذ الفخر هنا لونا جـــديداً ، ذلك أن كعبــا لم ترد فى قصيدته هذه تلك الكلمات التى وردت فى قصائده التى تحدث فيها عن غزوة بدر وأحد ، فلم يرد ذكر للأوس أو الخزرج ، وانما اســتعمل ضمير الجمع « ما لقينا ، صابرينا » الى آخر تلك الكلمات التى تذوب بها شخصيه الفرد فى الجماعة ، وتعطى للجميع دورا فى هذا القتال دون أن تميز انسانا من آخر ، ولعل استعمال ضمير الجمع أيضــا يعطى للفخر أهمية ، وللتعبير قوة ، لأن قوة الأمة فى وحدتها وعظمتهــا فى جمــاعتها •

واذا كان اختيار الكلمات موفقا عند كعب فان المعانى التى طرحها تنهض دليلا على عظمة المسلمين ، وصبرهم على ذلك الحصـــار ، ووقوفهم خلف رسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ حتى من الله عليهم بالنصر ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خــيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال • انهم قد صبروا وتوكلوا على الله ، لأنهم لا يرون لله شريكا ، واذا آمن المرء بعظمة الله ووحدانيته أعانه ذلك علىاستسهال الصعب ، وتحمل المشقة بقلوب مطمئنة ، ونفوس راضية بحكم الله ، ثم هم قد ساروا خلف رسول الله ، فهو حصنهم الذى يلجأون اليــه ومشـــيرهم الذى يستشيرونه فى أدق الملمات ، وأعقد المعضلات ، ثم ان قتالهم مشروع ، لأنهم يقاتلون قوما ظالمين وجماعة باغين والقتـــال اذا كان كذلك فان المقاتلين يدرعون بالحق ، ويتسلحون بالعدل ، وكلها أسلحة لها قوتها التى تدفع الجند كى يدفعوا الظالمين ، ويمحقـــوا المعتـــدين •

لقد تسلحوا بالأسلحة المـادية التى تعينهم على حرب عدوهم ، فقـد لبسوا الدروع السابغة ، وأمسكوا بسيوفهم التى يضربون بها هامات الجبابرة ، وكل ذلك تحيط به القوة المعنـوية المتمثلة فى نصرة دين الله ، والحفاظ على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم — سيعلم الكفار — اذن — أنهم ساروا الى حتفهم ، وجاءوا الى أجلهم الذى ينتظرهم ، فهل يسـتطيع البشر أن يقفوا أمام قدرة الله ؟ وهل يتسـاوى مشرك ومؤمن ، ان الله مولى المؤمنين فمن مولى المشركين ؟ انهم لا مولى لهم .

ويوم أن وصل الى المسلمين قول عبد الله بن الزبعرى السهمى فى يوم الخندق :

حتى الديار محا معارف رسمها
طول البلى وتراوح الأحقـاب

أجابه حسان بن ثابت فقال :

هل رسم دارسة المقـام بياب
متـكلم ، لمحـاور بجـواب

أما كعب بن مالك فقال فى رده على ابن الزبعرى :

أبقى لنا حدث الحـروب بقية
من خير نحلة ربنا الوهاب (١)
بيضاء مشرقة الذرى ومعاطنا
حم الجذوع عزيزة الأحلاب(٢)

---

(١) النحلة العطاء .
(٢) الذرى جمع ذروة أعلى الشيء ، ويعنى بها الأطام ، والمعاطن منابت النخل ، وحم : سود ، والجذوع : الأعناق والأحلاب : ما يحلب منها .

وبعد أن يخلص من مقدمته التى تحدث فيها عن قوة المسـلمين وبسالتهم التى أعيت الجميع ولم يستطع التبابعة ولا العـرب الوقوف أمام بسالتها يقول مفتخرا بالاسلام وبكتاب الله الذى نزل على رسوله:

ومواعظ من ربنـا نهـدى بها
بلسان أزهـــر طيب الأثواب
عرضت علينا فاشـتهينا ذكرها
من بعد ما عرضت على الأحزاب
فـكما يراها المجرمون بزعمهم
حـرجا ويفهمها ذوو الألبـاب
جاءت سخينة كى تغالب ربهـا
فليغلبن مغالب الغـلاب (١)

انها كلمات الايمان ، وعلامات اليقين بنصر الله تبدو على شـعر كعب الذى صدق بكتاب الله الذى نزل بلسان عربى مبين ، وكأنه يرمى المشركين بأن هذه الآيات عرضت عليهم فلم يستجيبوا لها ولم يذعنوا لأحكامها ، أما هم فعندما عرضت عليهم آمنوا بها وأحبوا تلاوتهـا ، وطبقوا تعاليمها ، انهم يفهمون ما ترمى اليه ، فهم أصحاب العقـول الراجحة ، والأذهان المتفتحة ، أما المشركون ، فقـد حرموها عـلى أنفسهم ، ولم يعرضوها على أذهانهم ثم يختم القصيدة بهـذا البيت الذى تقدم الحديث عنه ، حيث شكره الله عليه ، وأثابه عنه .

ويطول نفس الشـعر لدى كعب فى هذه الغزوة ويغزر نتـاجه ، ويكثر عطاؤه فيقول ـــ أيضا :

ومن سره ضرب يمعمع بعضـه
بعضـا كمعمة الاباء المحـرق

(١) حرجا : حراما : سخينة لقب لقريش فى الجاهلية .

فليأت مأســدة تسن ســيوفها
بين المذاد وبين جذع الخندق
دربوا بضرب المعلمين وأسلموا
مهجات أنفسهم لرب المشرق (١)
فى عصـــبة نصر الاله نبيــه
بهم وكان بعبده ذا مرفق (٢)
فى كل ســابغة تخط فضــولها
كالنهى هبت ريحه المترقرق (٣)
بيضـــاء محــكمة كأن قتيرها
حدق الجنادب ذات شك موثق (٤)
جزلاء يحفــرها نجاد مهنــــد
صافى الحديدة صارم ذى رونق (٥)
تلكم مع التقوى تكون لباسنا
يوم الهياج وكل ساعة مصدق
نصل السيوف اذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها اذا لم تلحق (٦)

---

(١) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها ، المهجات الأنفس ٠

(٢) العصبة : الجماعة ٠

(٣) السابغة : الدروع الكاملة ، وتخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها ، والنهى : غدير الماء ٠

(٤) القتير : مسامير الدروع ٠ والجنادب ٠ ذكور الجراد ٠ الشك : احكام السرد ٠

(٥) الجدلاء : الدرع المحكمة النسج ٠ ويحفزها : يرفعها ٠ النجاد : حمائل السيف ٠

(٦) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٦٢ – ٢٦٣ المصدر السابق ٠

لعل القارىء لهذا الشعر يدرك أن نغمة الفخر واضحة فيه ، ذلك أن المسلمين فى هذه الغزوة قد نصرهم الله — سبحانه وتعالى — على عدوهم ، فلا بد من صدح الألحان وتغريد البلابل واطلاق العنان لجواد الشعر ، حتى يكون المجلى فى هذه الحلبة •

فكعب بن مالك يدعو الجميع كى يشهدوا أعياد النصر ، وأفراح المسلمين برجوع الأحزاب خائبين مولين الأدبار ، فمن يسعد بمثل هذه الاعياد ، ومن يرد التأكد من ذلك فعليه أن يشاهد ساحة المعركة ، انه سيرى الأسود الضارية التى اتخذت لنفسها مكانا ترقب من خلاله الأعداء ، وترصد حركاتهم ، فاذا حاولوا الاقتراب من عرينهم أو مهاجمة حماهم ذادوهم عن ذلك بما تسلحوا به من قوة وفتوة ، ان هؤلاء الأسود قد تدربوا على قتل الفرسان المعلمين أولئك الذين يمثلون قوة قوية ، ويعتدون بشجاعتهم واستبسالهم فى خوض المعارك ، وهم يصنعون ذلك فى الوقت الذى ينتظرون فيه الشهادة ، فقد أسلموا أرواحهم لله — سبحانه وتعالى — يقضى فيها قضاءه ، فان استشهدوا فان ذلك أمر قدره الله ، واذا كان هذا شأن المسلمين فان المشركين سيخشون بأسهم ، وسيرهبون ساحتهم ، ولن يستطيعوا النيل منهم •

ولا يفوت كعبا أن يعزي قوة المسلمين الى أنها مستمدة من قوة الله تعالى ، أو أن عملهم هذا كان الغرض منه نصرة النبي — صلى الله عليه وسلم ، أو أن الله سبحانه وتعالى — هيأ هؤلاء الأبطال لنصرة نبيه — صلى الله عليه وسلم — ، وكل هذه الأمور مجتمعة تعنى أن الله قد أعز الاسلام وأعلى كلمة الحق بفضل أولئك المجاهدين الذين تجمعوا خلف رسول الله ، وأعدوا عدتهم لحماية كلمة التوحيد •

ان هذه العصبة قد لبست دروعها الكاملة التى غطت كل أجسامهم ، حتى بقيت منها أجزاء تدلت على الأرض ، وهذه الدروع اذا نظرت

اليها حسبتها صفيحة ماء داعبه النسيم فتكسر ، أو علاه الريح فترقرق ، ولعل أبن عباد عندما قال :

صنع الريح من المـــاء زرد

كان يقصد هذا المعنى الذى قصده من قبله كعب بن مالك ، لذلك عندما أجازته اعتماد الرميكية قالت :

أى درع لقتال لو جمد

وفى رواية أخرى :

ياله درعا منيعا لو جمد (١)

وهى صـــورة أتى بها كعب بن مالك تنم عن ملكة شعرية راقية ، وذوق فنى أصيل •

وقد استقصى كعب جوانب الصورة ، أو راعى النظير ، حتى يحيط بكل صفات الدروع ، أو يقدم صورة متفردة لهذه الدروع التى لبسها المسلمون ، وهم يرقبون أعداءهم ، ويتأهبون للدفاع عن حرماتهم ، فالدروع فضفاضة سابغة تتدلى بعض أطرافها لتـــلامس الأرض ، والدروع بيضاء اللون وهو تعبير أتى به ليناسب ما أتى به قبلا فى قوله :

كالنهى هبت ريحه المترقرق

وهى محكمة أيضا إحكاما دقيقا حتى ان المســامير التى أمسكت بأجزائها لا تكاد ترى ، حتى انه شبهها بحدق ذكور الجراد ، أنها دروع محكمة مقدر فى سردها كما قال تعالى لسيدنا داود « أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » •

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ١٧١ ، ١٧٢ ط دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ لبنان •

ثم ان كعب بن مالك قد صور هذه الدروع وفوقها حمائل السيف وكأنه يريد أن يقدم صورة متكاملة لما يجب أن يكون عليه الجندى فى الميدان ، انه يعنى بدرعه وسيفه فهما عدته وعتاده وهما مصدر قوته وأمنه ، وكلها لمحات فنية رائدة أتى بها كعب بن مالك فى هذا المقام .

ثم يقدم كعب لمحة أخرى من لمحاته ، انه بين الحين والحين يذكر القارىء لشعره بأن هذه القوة وتلك الدروع لن تحدث أثرها ما دام المرء بعيدا عن ربه ، فكل ألوان القوة يجب أن تخضع لقوة الله وسلطانه ، أو يجب أن تستمد فعاليتها من الايمان بالله ، ومراقبة أمره ، والخوف من عقابه ، لذلك فهو يقول ، تلك القوة التى اتخذناها من دروع سابغة، وسيوف حديدة صارمة لبسناها واتخذنا الى جانبها لباس التقوى ، فالتقوى والدروع والسيوف هى عدتنا وعتادنا ، ولن يفلح قوم لم يتسلحوا بهذه الأسلحة .

ثم يصور لنا قوة المسلمين عندما يخوضون المعارك بدءا ببيته الذى تقدم ذكره والذى يقول فيه :

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها اذا لم تلحق

ثم يقول :

فترى الجماجم ضاحيا هاماتها
باله الأكف كأنها لم تخلق (١)
نلقى العدو بفخمة ملمومة
تنفى الجموع كقصد رأس المشرق (٢)

---

(١) الجماجم : الرءوس . ضاحيا : بارزا للشمس . بله : اسم فعل بمعنى اترك ، والأكف يجوز نصبها وجرها .
(٢) الفخمة : الكتيبة . الملمومة : المجتمعة . والمشرق : جبل فى أرض ضبة .

ونعد للأعـــــداء كل مقلص

ورد ومحجول القوائم أبلق (١)

تردى بفرســـان كأن كما تهم

عند الهياج أسود طل ملثق (٢)

صـــدق يعاطون الكماة حتوفهم

تحت العماية بالوشيج المزهق (٣)

أمـــر الاله بربطهـــا لعـــدوه

فى الحـــرب ان الله خير موفق

لتكون غيظا للعــــدو وحيطـــا

للدار ان دلفت خيول النزق (٤)

هذه صورة أخرى يقدمها كعب بن مالك فى معرض الحديث عن قوة المسلمين وشجاعتهم وهى صورة قصد بها كعب بعث الرعب فى صفوف المشركين ، حتى لا يفكروا فى العودة الى المدينة مرة أخرى بدأها مفتخرا بقوة المسلمين ، وقد تقدم سؤال معاوية عن أشجع بيت قالته العـــرب فأجيب بأنه قول كعب بن مالك «نصل السيوف» الخ وكأن هؤلاء الأبطال يرغمون سيوفهم على اللحاق بهم فى قتال الأعداء ، فهم يتقدمونها ، أو كأن هذه السيوف تحتمى بهم ولا يحتمون بها ، فهم يتقدمون للقتـــال

---

(١) المقلص : الفرس الخفيف ٠

(٢) تردى : تسرع ٠ الكماة جمع كمى : الشجاع ٠ الطل : الضعيف من المطر ٠ الملثق : ما يكون من الطلل من زلق وطين ، والأســـود أجـوع ما تكون فى ذلك الحين ٠

(٣) العماية : ســحابة الغبار وظلمته ، الوشــيج : الرماح المزهق : المذهب للنفوس ٠

(٤) حيط : جمــع حائط من حاط يحوط ، دلفت : قربت والنزق : الغاضبون الواحد نازق أو متسرعون ٠

لا يهـابون الموت ولا يخشون لقاء الاعـداء ، حتى وان تجـردوا من السلاح ، فهم أبطال بذواتهم ، وليسوا أبطالا بأدواتهم •

ويستمر كعب فى بيان قوة المسلمين ، وشدة بأسهم فى المعـارك ، فاذا التقوا بأعدائهم أنزلوا بهم الهـزائم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حتى انك ترى الجماجم معرضة للشمس وناهيك عن تلك الأكف المفصولة عن أذرع الأعداء لو أنك نظرت اليها لتصورت كأنها لم تخلق أصلا لقد فصلت من الأذرع بقوة ضربات الأبطال ، ولأن ضرباتهم أصابت المحز فقد جعلت هذه الأكف وكأنها لم تخلق متصقة بأذرعهم •

ثم يعـود مرة أخـرى للحديث عن عدتهم وعتادهم ، فهم يلقون أعداءهم بكتائب قوية ، فاذا التقت بعدوها قهرته وتغلبت عليـه ، وأحدثت به اصابات بالغة ، وتمكنت من تفريق جموعه وتبديد شمله ، وقد استخدم كعب فى هذا الجزء الكلمات القوية التى تحدث فزعا ورعبا لدى المشركين فقوله « نلقى العدو بفخمة ملمومة » يوحى بقوة المسلمين وكثـرة عـددهم ، وتمـاسكهم سـاعة لقـاء العدو ولن يقهر قـوم تجمعـوا على الحـق ، وتماسكوا من أجل نصرته ، وقوله : « تنفى الجموع » فيه ايحاء بتفريق جمـع العـدو ، وتوعـد لهم ان هم التقوا بهم سينزلون بهم ما نزل بجبل المشرق الذى تصدع وتشقق، وقوله : « ونعد للأعداء كل مقلص » فيـه ايحـاء بكثرة خيولهم التى خصصوها لخوض المعـارك ، ثم تصويره للفرسان الذين يركبون هذه الخيول بأنهم — عند اللقاء — سيكونون أسودا ضارية قد عضها الجوع، فزادت ضراوة وافتراسا ، وهو ما أشار اليه بقوله « أسود طل ملتق » ، ثم قوله عن هؤلاء الفرسان •• بأنهم صدق ، يوحى بشجاعة المسلمين وصبرهم على المعارك ، وقوله « يعاطون الكماة حتوفهم » فيه تصـوير لهم بأنهم يمتلكون مصـارع الأبطـال ، ويتحكمون فى أرواح الكمـاة

الشجعان ، وهم يصنعون ذلك عند اشتداد القتال ، وتجمع غبار المعارك ، انهم عندئذ يرسلون رماحهم لتستقر فى صدور الكماة ولتجعلهم على موعد مع حتفهم •

ولا يفوت كعبا هنا — أيضا — أن يجعل هؤلاء الأبطال قد استمدوا قوتهم من قوة ربهم وخالقهم ، فهو الذى أمرهم بأخذهم العدة للقاء العدو فى قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » الآية ٦٠ من سورة الأنفال •

وما دام الله قد أمر بذلك فانه سيوفقها للنصر على عدوها ، وسيكون هؤلاء الرجال غيظا لعدو الله وعدوهم ، وسيكونون أيضا — درعا واقية تدافع عن حرمات المسلمين ، وترد المشركين ان هم فقدوا رشدهم ، وتحكمت فيه نزواتهم ، وحاولوا عبور الخندق •

ويختم كعب قصيدته بأبيات يذكر فيها أن الله سبحانه وتعالى سيعينهم على عدوهم فيقول :

ويعيننا الله العزيز بقوة
منه وصدق الصبر ساعة نلتقى
ونطيع أمر نبينا ونجيبه
واذا دعا لكريهة لم نسبق
ومتى يناد الى الشدائد نأتها
ومتى نر الحومات فيها نعنق
من يتبع قول النبى فانه
فينا مطاع الأمر حق مصدق
فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا
ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق

ان الذين يكـذبون محمـــدا
كفروا وضلوا عن سبيل المتقى

بهذا الحديث عن ايمان هؤلاء الأبطال برسالة الاسلام ، وتفانيهم فى الدفاع عنها يختتم كعب بن مالك قصـيدته التى افتخر فيها بكثير من المعانى ، واستخدم فيها الالفاظ القوية ، والعبارات الجزلة التى تصلح لمثل هذا اللون من الشعر ، بل واستعمل فيها دواعى ذلك الفخر ، فعلى الرغم من أنهم أعدوا عدتهم ، ولبسوا دروعهم وحملوا سيوفهم الا أن التقوى كانت رائدهم ، والايمان بالله سبيلهم ، ونصرة دين الله هدفهم وغايتهم .

وهناك بعض الأبيات قالها كعب بن مالك فى غزوة الخندق ،ولكنها لا تمثل ظاهرة جديدة فى شعره اللهم الا ما جاء فيها من حديث عن حفظ الله لهم وهدايته لهم باتباع دين الاسلام فى مثل قوله :

اذا غايظونا فى مقـام أعاننـا
على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضـــله
علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا
ولله فوق الصانعين صنائع (١)

فالقارىء لهذه الأبيات يرى أن كعب بن مالك قد اتخذ من نصر الله لهم ، وذوده عنهم مجالا لفخره على مشركى مكة ، وكأنه يقول لهم ان قدرة الله قد حالت بينكم وبين ما تريدون من قضاء على دين الله ، فهل استطاعت معبوداتكم أن تمنحكم شيئا ، ان الله الذى نصرنا عليكم قد

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٦٣ المصدر السابق .

هدانا لدين الله ، واختاره لنا ، فهو الذى بيده ملكوت كل شىء له الملك واليه ترجعون •

وآخر القصـــائد التى قالها كعب بن مالك فى غزوة الخندق بدأها بقـــوله :

ألا أبلغ قريشـــا أن ســـــلعا
وما بين العريض الى الصماد (١)
نواضـــح فى الحروب مدربات
وخوص ثقبت من عهد عاد (٢)

فهو يفتخر بموقع المدينة الجغرافى ، وبما تمتعت به هذه المنطقة من أراض زراعية فقد حبتها الطبيعة بكثرة المـــاء الذى عمها نتيجة لتلك الأمطار ، والآبار التى حفرت من عهد عاد ، ومازالت حتى اليوم تؤدى وظائفها ، ثم ان هناك أنهارا مترعة بالمـــاء جعلت الاشجار تعلو ، ونبات البردى يظهر حول هـــذه الميـــاه ، ثم يقول لهم اننـــا أرباب زراعـــة واســـتقرار ، أما أنتم فانكم تعتمدون على تجارة الحمير التى تجلبونها لتبيعوها لقبـــائل دوس ومراد ، ان بلادكم لا تتمتع بما تتمتع به بلادنا فنحن نتمتع بثمار النخيل الذى صففناه كما يصنع الانباط فى أمصارهم ، وكأنه يوحى بما تتمتع به هـــذه البـــــلاد من أمن وأمان ، ومن هدوء واستقرار ، واليك بعض الأبيات التى قالها كعب فى هذه القصيدة فهو يقول بعد البيتين السابقين :

---

(١) سلع : جبل بالمدينة ، العريض ، واد بها ، والصماد : اسم جبل أيضـــا • ـ

(٢) النواضح : الابل التى يستقى عليها الماء وقيل حدائق نخل تسقى بالنضح : الخوص • الآبار الضيقة ثقبت : حفرت • أنظـر السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ •

رواكد يزخـر المـرار فيهـا
فليست بالجمام ولا الثماد (١)
كأن الغـاب والبردى فيهـا
أجش اذا تبقع للحصـاد (٢)
ولـم نجعل تجارتنا اشـتراء
الحمير لارض دوس أو مراد (٣)
بـلاد لـم تثر الا لكيمـا
نجالد ان نشطتم للجلاد (٤)
أثرنا سـكة الأنبـاط فيها
فلم نر مثلها جلهـات واد (٥)
قصرنا كل ذى حضر وطـول
على الغايات مقتدر جواد (٦)

فأنت لا ترى – هنـا – تلك اللمحـات التى رأيتها فى مثيـلاتها السابقة من فخر بنصر الله لهم وسـيرهم خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولو قرأت القصيدة كاملة لم تجد فيها الا قوله :

---

(١) رواكد : ثابتة دائمة • يزخر : يعلو ويرتفع • المرار • نهـر بالمدينة ، الجمام بتشديد الميم جمـع جمة : للبئر الكثيرة الماء الثمـاد : الماء القليل •

(٢) الغاب : الشجر الملتف • البردى : نبات تصنـع منه الحصر • أجش : عالى الصوت • تبقع : فيه بقع •

(٣) دوس ومراد : قبيلتان من اليمن •

(٤) لم تثر : لم تحرث •

(٥) السكة : النخل المصطف • الأنباط : قوم من العجم : جلهـات الوادى : ما كشفت عنه السيول فأبرزته من الجاه وهو انحسـار الشعر عن مقدم الرأس •

(٦) السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٦٤ المصدر السابق •

اذا قالت لنا النذر استعدوا
توكلنا على خير العباد

وقوله فى نهاية القصيدة :

لنظهر دينك اللهم انا
بكفك فاهدنا سبل الرشاد

فهل قيلت هذه القصيدة قبل سابقاتها من القصائد التى قيلت فى غزوة الاحزاب قبل أن يتحقق النصر ؟ وهل يمكننا أن نستشف ذلك أيضا من البيت السابق ، فتكون القصيدة قد قيلت بعد أن أتتهم الأخبار بقدوم الاحزاب ، فيكون ذلك سببا فى ذلك النهج الذى سار عليه كعب فى هذه القصيدة ، والقارىء للقصيدة يتوقف عند لغتها ، فقد صيغت بلغة قوية ، واختار لها كعب ألفاظا ضخمة ، وعبارات محكمة ، حتى يرهب بها أعداء الله ، ويضعف روحهم المعنوية ، ولعلك تتبين ذلك من قوله :

والا فاصبروا لجلاد يوم
لكم منا الى شطر المذاد (١)
نصبحكم بكل أخى حروب
وكل مطهم سلس القياد (٢)
وكل طمرة خفق حشاها
تدف دفيف صفراء الجراد (٣)

---

(١) الشطر : الناحية والقصد . المذاد : موضع بالمدينة .
(٢) المطهم : الفرس التام الخلق .
(٣) الطمرة : الفرس الجواد الطويل القوائم : خفق : يتحرك حركة مضطربة . تدف تطير فى جريها صفراء الجردا : التى ألقت بيضها فخف وزنها فهى أسرع طيرانا .

وكـــل مقلص الآراب نهـــد
تميم الخلق من أخر وهادى (١)
خيول لا تضـــاع اذا أضيعت
خيول الناس فى السنة الجماد (٢)

هـــذه صورة أخرى أتى بها كعب ليبعث الرعب فى قلوب المشركين الذين أتوا لحصار المدينـــة انه يتوعدهم — ان هم لم يســـتجيبوا الى ما طلب منهم من مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل فى قوله :

أجيبـــوا الى ما يجتـــديكم
من القول المبين والســـداد

لقد توعدهم كعب بن مالك — ان لم يستجيبوا لذلك — بقتال ضار يدور حول الخندق الذى حفره المسلمون الذين أعدوا لهم أبطالا تعودوا على الحروب ، وأصـــبحوا يألفونها وتألفهم ، وأعدوا لهم — أيضـــا — خيولا مدربة على خوض المعارك ، انها خيول تامة الخلق سريعة العدو ، خفيفة الحركة ، تميمة الخلق .

ينازعن الأعنـــة مضـــغيات
اذا نادى الى الفزع المنـــادى

وعندما أتتهم النذر تخبرهم بقـــدوم الأحزاب ، وتطلب منهم أن يستعدوا للقائهم ، توكلوا على الله — سبحانه وتعالى، ولكنهم بعد توكلهم على الله أخذوا العـــدة لذلك ، بل انهم أرادوا أن يلقنوا العـــدو درســـا قاسيا ، تمثل ذلك فى قوله :

---

(١) المقلص : المشمر الشديد . الآراب : قطع اللحم . النهد: الغليظ العنق وأراد أنه تام الخلق من مقدمه ومؤخره .
(٢) السنة الجماد : سنة القحط .

وقلنـــا لن يفـــرج ما لقينـــا

سوى ضرب القوانس والجهاد (١)

فلم نر عصـــبة فيمن لقينـــــا

من الاقوام من قار وبادى (٢)

أشـــد بســـــالة منـــا اذا ما

أردناه وألين فى الـــوداد (٣)

اذا ما نحن أشرجنـــا عليهـــا

جياد الجدل فى الأربالشداد(٤)

قذفنا فى السوابغ كل صقر

كريم غـــير معتلق انزناد (٥)

أشـــم كأنه أســـــد عبوس

غداة بدا ببطن الجزع غادى(٦)

يفشى هامة البطـــل المـــذكى

صبى السيف مسترخى النجاد (٧)

---

(١) القرانس : أعالى بيض الحديد ·

(٢) القارى : من كان من أهل القرى (المدن) البادى : من كان من أهل البادية ·

(٣) البسالة : الشدة والشجاعة ·

(٤) أشرجنا : ربطنا · الجدل : جمع جدلاء : الدروع المحكمة النسج الأرب : جمع أربة : العقدة الشديدة ·

(٥) الســوابغ : الدروع الكاملة · المعتلث الذى لا يورى نارا : فهم خبيرون بالاستعداد للحرب ·

(٦) الأشم : العزيز · بدا : ظهر · غادى · طالب للغوث · الجزع : جانب الوادى ·

(٧) المذكى : الذى بلغ الغاية فى القوة · صبى السيف : وسطه النجاد : حمائل السيف ·

لنظهـــر دينـــك اللهم انا
يكفك فاهدنا ســبل الرشــاد

هذه هى الصورة الأخيرة التى رسمها كعب بن مالك ؟ ليبرز بها قوة المسلمين واستعدادهم للقاء عدوهم ، والصورة كما يرى القارىء توحى بقوة المسلمين وبسالتهم ، واصرارهم على النصر على أعدائهم • على الرغم من كثرة عــددهم ، وتحزبهم ، وأنهم ســيضربون فرســانهم ، وســينالون من « أبطــالهم » ، لأنه لن يمنحهم النصر الا القضاء على هؤلاء الأبطال •

ثم يعود مرة أخرى للحديث عن قوتهم وبسالتهم فيصفهم بأنهم معروفون للجميع ، وأن بسالتهم لا يحول بينها وبين بلوغ هدفها دروع سابغة أو رجال أشداء أقوياء يحسنون الاستعداد للمعارك ، وفى ذلك ابراز لبطولتهم وشجاعتهم ، لأنهم اذا تغلبوا على الأبطال المدربين ، فانهم بالتالى سيتغلبون على هؤلاء الأحزاب الذين جلبوا من الجزيرة العربيــة •

ان هذه القصيدة تعد ظاهرة فريدة فى شــعر كعب •• تحتاج الى مزيد من النظر والتأمل فهى تتمتع بجانب كبير من القوة والجزالة تجعل الباحث يقف أمامها طويلا كى يضــعها فى مكانها من شــعر كعب الذى عرضنا له آنفا ، ويبدو أن هول الأخبار التى وردت الى المدينة بتحزب الأحزاب وقدومهم نحوها قد جعل كعبا يلجأ الى هذه الحماسة التى قد يرى فيهــا أثرا للحماسة فى العصر الجاهلى فقوة الألفاظ ، وعمــق المعانى ، وذلك اللون من التهديد والوعيد كل ذلك يجعلنا نقرر أن كعب ابن مالك فى هذه القصيدة قد استخدم أسلوبا يختلــف عن أســلوبه السابق الذى كان يفتخر فيه بنصر الله لهم ، وأنهم يسيرون خلف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، وأنهم يؤمنون بما جاءهم به من كتاب الله الذى نزل من لدن حكيم خبير •

وبعـــد انتهاء غزوة الخنـــدق تتوالى انتصـــارات المسلمين على المشركين واليهود وتتوج بفتح مكة ، ولكننا لم نر نتـــاجا لكعب يسجل به هذه الانتصـــارات ، أو يبرز فيه قيمة هذه التحـــولات التى حدثت وخاصة بعد صلح الحديبية ، لكننا وجدناه يقول قصيدة بعد غزوة حنين وأثنـــاء سير المسلمين الى الطائف بدأها بتهديد بعض القبائل المتاخمة للطائف قائلا :

قضـــينا من تهـــامة كل ريب
وخيبر ثم أجمعنا السيوفا (١)
نخيرها ولو نطقت لقـــالت
قواطعهن دوســـا أو ثقيفا (٢)

فقد هدد دوسا وثقيفا قائلا لهم اننا قد قضينا على كثير من معاقل الكفر ، وحصون الشرك التى كانت تؤرق مضجع المسلمين ، وتسبب لهم كثيرا من المتاعـــب ، وفرغنا اليكم ، ولن يثنينا عنكم شىء ، حتى قيل ان قبيلة دوس قد قالت ، عنـــدما سمعت هذه القصـــيدة انطلقوا فخذوا لأنفسكم حتى لا ينزل بكم ما نزل بغيركم ، فلقد أصبح المسلمون منهم قاب قوسين أو أدنى ، ففيم الانتظار والترقب ؟ .

ويستمر كعب كعادته يبين قوة هذه السيوف وقوة الرجال الذين يحملونها ، انهم ينزعون سقف البيوت ، ويجعلونها فى متناول أيديهم ، ولن يجديكم الاحتماء بها ، أو التحصن بحصونها ثم يعود للحديث عن عدة المسلمين من السيوف البتارة ، والخيول المدربة الكريمة الأصل ،

---

(١) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز ، والريب : الشك ، أجمعنا أى أرحنا .

(٢) نخيرها : نعطيها الخيرة ، ولو نطقت لاختارت أن تحارب دوسا أو ثقيفا ، والقصيدة فى السيرة النبوية جـ٣ ص٤٧٩، ٤٨٠ المصدر السابق

وكل ذلك يسوقه كعب مهددا به هذه القبائل التى تحصنت بالطائف بعد هزيمتهم فى حنين قائلا :

ويأتيكم لنـا سرعان خيـل
يغـادر خلفه جمعا كثيفا (١)
اذا نزلوا بسـاحتكم سمعتم
لهـا مما أناخ بها رجيفـا (٢)
بأيديهم قواضـب مرهفات
يزرن المصطلين بها الحتـوفا (٣)
كأمثـال العقائق أخلصـتها
قيون الهند لم تضرب كتيفا (٤)
تخـال جـدية الأبطـال فيهـا
غداة الزحف جاديا مدوفا (٥)
أجـدهم أليس لهم نصـيح
من الأقوام كان بنا عريفـا (٦)
يخبـرهم بأنا قـد جمعنـا
عتاق الخيل والنجب الطروفا (٧)
وأنا قـد أتينـاهم بـزحف
يحيط بسور حصنهم صفوفا (٨)

---

(١) السرعان : المتقدمون : الكثيف • الملتف •
(٢) رجيفا بالراء ، صوت شديد مضطرب ، بالواو : السريع •
(٣) القواضب : المرهفات القاطعة • المصطلون : المباشرون •
(٤) العقائق : جمع عقيقة : شعاع البرق •
(٥) الجدية : الطريقة من الدم • الزحف : دنو المتحاربين • الجادى الزعفران • ومدوف : مخلوط بغيره •
(٦) أجدهم : أى أليس لهم جد منهم ، عريفا : عارفا •
(٧) عتاق الخيل والنجب الطروفا : يعنى بها الخيل الكريمة الأصل •
(٨) زحف : جيش •

ثم يتحـــدث عن قائدهم الأعلى محمـــد صلى الله عليه وسلم ـــ واصفا له بالصلابة فى الحق ونقاء القلب ، والصبر فى الحروب فيقول :

رئيســـهم النبى وكان صـــلبا
نقى الجيب مصـــطبرا عزوفا
رشـــيد الأمـــر ذو حـــكم وعلم
وحلم لـــم يكن نزقا خفيفـــا
نطيـــع نبينـــا ونطيـــــع ربا
هـــو الرحمن كان بنـــا رءوفا

ثم يذكر كعب بعد ذلك ما يريدونه من هؤلاء القوم ، وما ينتظرهم ان هم أجابوا داعى الله ، وما يلقونه ان هم أبوا هذه الدعوة التى فيها صلاحهم وفلاحهم فيقول :

فان تلقوا الينـــا الســـلم نقبل
ونجعلكم لنا عضدا وريفا (١)
وان تأبوا نجاهدكم ونصـــبر
ولا يك أمرنا رعشا ضعيفا (٢)
نجـــالد ما بقينـــا أو تنيبـــوا
الى الاسلام اذعانا مضيفا (٣)
نجـــاهد لا نبـــالى ما لقينـــا
أأهلكنا التلاد أم الطريفا (٤)

---

(١) الريف : المواضع المخصبة التى على المياه .
(٢) رعشا : متقلبا غير ثابت .
(٣) نجالد : نحارب بالسيوف التى تمس جلودكم . الاذعان الخضوع والانقياد . مضيفا : ملجئا .
(٤) التلاد : القديم ، الطريف : الجديد .

وكم من معشر ألبوا علينـــا
صميم الجذم منهم والحليفا (١)
أتونا لا يرون لهـــم كفـــاء
فجدعنا المسامع والأنوفا (٢)
بكل مهنـــد لين صـــقيل
يسوقهم بها سوقا عنيفا (٣)
لأمر الله والاســــلام حتى
يقوم الدين معتـــدلا حنيفـــا
وننسى اللات والعـــزى وود
ونسلبها القلائد والشنوفا (٤)
فأمســوا قد أقروا واطمأنوا
ومن لا يمتنع يقبل خسوفا (٥)

بهذه القصيدة يختم كعب حديثه عن بطولة المسلمين وشـــجاعتهم فى الدفاع عن عقيدتهم ، بل انه يختم شعره الذى صرف جله لهـــذه الغزوات ، وأن ورد له شعر بعد ذلك فانما هى قصائد متفرقة قالبعضها فى مقتل عثمان ، وتحريض الأنصـــار للوقوف الى جانبه فى محنته ولقد أثبت له صاحب الأغانى قصيدته التى يقول فيها :

من مبـــلغ الأنصـــار عنى آية
رســــــلا تقص عليهم التبيـــانا

---

(١) ألبوا علينا : جمعوا علينا . الصميم : الخالص . الجذم : الأصل .
(٢) جدعنا : قطعنا .
(٣) لين : مخفف من لين بتشديد اليـاء . العنيف : الذى ليس فيه رفق .
(٤) الشنوف : جمع شنف القرط الذى يكون فى أعلى الأذن .
(٥) الخسوف : الذل .

أن قــد فعلــتم فعـــلة مذكــورة
كســت الفضــوح وأبدت الشــنآنا
بقعـــودكم فى دوركم وأمــيركم
تحشى ضواحى داره النيرانا (١)

ونحن لا نقف عند هذا الشعر الذى قاله كعب ، لأنه لا يمثل جانبا مما قصــدنا اليه ، ولكن شــعر كعب بن مالك فى الغزوات وابراز دور المسلمين البطولىشعرا له أصالته ودوره فى ذلك، حتى شكره الله سبحانه وتعالى عليه ، وأعجب به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلقد روى الأغانى بسنده أن رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم وقف بباب كعب ابن مالك فخرج فقال له رســول الله ــ صــلى الله عليه وســلم ــ ايه فأنشده ، ثم قال : ايه فأنشده ، ثم قال : ايه فأنشــده (ثلاث مرات) فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لهذا أشد عليهم من مواقع النبل (٢) .

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ١٦ ص ٢٢٨ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب المصرية .
(٢) أبو الفرج الأصفهانى الأغانى ج ١٦ ص ٢٣٣ المصدر السابق .

الفصل الثالث

رثاؤه لشهداء الغزوات

قلت فى معرض حديثى عن الرثاء كغرض من الأغراض التى تناولها كعب فى شعره : أن الرثاء ذكر محاسن الميت ، وتعداد مآثره ، والرثاء أقوى عاطفة من المدح ، لأن المادحين يمدحون للرجاء والراثون يرثون للوفاء وفرق بينهما ، وسبيل للرثاء كما يقول ابن رشيق أن يكون طاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والاستعظام ان كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا (١) .

وقيل ان خير من فاقت الجميع فى هذا الفن هى الخنساء تماضر بنت عمر بن الشريد وهى شـاعرة جاهلية « كانت تقف بالموسـم فتسوم هودجها بسومة ، وتعاظم العرب بمصـيبتها بأبيها عمرو بن الشريد ، وأخويها صخر ومعاوية ابنى عمرو وتنشدهم فتبكى الناس » (٢) .

ومما سبقت اليه قولها :

أشـم أبلج تأتم الهـداة به كأنه علم فى رأسـه نار (٣)

وممن برع فى هذا الفن أيضا فى عصر صـدر الاسـلام متمم بن نويرة ، فلقد قال متمم فى أخيه مالك بن نويرة قصـائد ذاعت وتناقلها

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٤٠ المصدر السابق .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٣٤٦ تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٣٤٧ تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف .

الناس ، وقصة مقتل مالك فى حروب الردة مشـــهورة ولقد أورد ابن قتيبة جانبا من هذا الشعر ، وذكر قصته مع ســـيدنا عمر بن الخطاب ، فقد دخل عليه متمم ــ عندما استشهد أخوه زيد بن الخطاب ، فقال له عمر بن الخطاب : « أنشدنى بعض ما قلت فى أخيك فأنشـــده شـــعره الذى يقول فيه :

وكنا كندمانى جـــذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلمـــا تفرقنـــا كأنى ومالـــكا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر : يامتمم ، لو كنت أقول الشعر لسرنى أن أقول فى زيد بن الخطاب مثل ماقلت فى أخيك ، قال متمم • يا أمير المؤمنين : لو قتل أخى قتلة أخيك ما قلت فيه شعرا أبدا فقال عمر : يامتمم : ماعزانى أحد بأحسن مما عزيتنى به » (١) •

وهذان البيتان من قصيدة له أوردها المفضل الضبى ومطلعها :
لعمرى وما دهرى بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا (٢)

ولمتمم بن نويرة أكثر من مفضلية وكل قصائده قد وقفها على رثاء أخيه مالك بن نويرة وهذا اللون من الرثاء يظهر فيه قائله التفجع على فقد حبيب ، والألم والحسرة على مصيره الذى صـــار اليه ، وقد قيل أن سبب تفجع متمم على أخيه أنه مات مرتدا •

---

(١) ابن قتيبه : الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٣٨ المصدر السابق •
(٢) المفضل بن محمد بن يعلى الضبى : المفضليات ص ٢٦٥ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون • ط دار المعارف •

ومن الشعراء المخضرمين الذين ذاعت قصائدهم فى الرثاء أبوذؤيب الهذلى (١) ، قال عنه ابن سلام الجمحى « وكان أبو ذؤيب شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن » ثم يقول ابن سلام « قال أبو عمرو بن العلاء : سئل حسان : من أشعر الناس ؟ قال حيا أو رجلا ؟ قال : حيا . قال أشعر الناس حيا هذيل — وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب . قال ابن سلام : هذا ليس من قول أبى عمرو ، ونحن نقوله » (٢) .

يقول صاحب الأغانى « تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيدته التى يرثى فيها بنيه » يعنى قوله :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهذه يقولها فى بنين له خمسة أصيبوا فى عام واحد بالطاعون ورثاهم فيها » (٣) .

ولقد أثبت المفضل الضبى قصيدة أبى ذؤيب فى مفضلياته (٤) ، وهى قصيدة حرص كثير من أهل الأدب والمشتغلين بالشعر عليها ، ودونوها فى كتبهم لما جاء فيها من المعانى التى تخفف من آلام المتفجعين على فقد ذويهم كقوله فى بكاء أولاده :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

---

(١) أبو ذؤيب اسمه خويلد بن خالد بن محرث من بنى هذيل بن مدركة أدرك الجاهلية والاسلام ، وحسن اسلامه : انظر الأغانى ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٣١ تحقيق محمود محمد شاكر .

(٣) الأغانى ج ٦ ص ٢٦٥ المصدر السابق .

(٤) المفضلية رقم ١٢٦ المفضليات ص ٤١٩ المصدر السابق .

وقوله :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فاذا المنيـــة أقبلت لا تدفـــع
واذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمـــة لا تنفـــع —

وكقوله :

وتجلدى للشــــامتين أريهم
أنى لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبـــة اذا رغبتهـــا
واذا ترد الى قليل تقنع (١)

وكلها معان عامة يتمثل بها جميع من نزلت به نازلة ، أو عضه الدهر بنابه ، ولقد أورد صاحب الأغانى قصة المنصور عندما مات ولده جعفر ابن المنصور الأكبر ، وكيف أنه طلب بعد أن دفن ولده من يذكره بقصيدة أبى ذؤيب علها تخفف عنه برحاءه ، أو تعزيه عن فقد ولده (٢) •

واذا كان هؤلاء الشـــعراء الذين تقدم الحديث عنهم قد صرفوا قصائدهم لبكاء جانب برزت فيمن وجهـــوا اليهم رثاءهم ، أو أظهروا هلعهم وحسرتهم على فقد من رأوا فيهم صورا للبذل والعطاء ، أو أمثلة مضيئة للاخلاص وجميل الوفاء فان كعب بن مالك قد وجـــه رثاءه الى رجال دافعوا عن مبادىء ومثل ، واستشهدوا فى سبيلها فجدير بالشعراء أن يقفوا شعرهم على رثاء هؤلاء الرجال الذين صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ان رثاءهم حينئـــذ يعد تعبـــيرا عن المعانى التى دافعوا عنها ، واستشهدوا من أجل رفعتها ونشرها •

(١) المفضليات ص ٤٢١ وما بعدها •
(٢) الأغانى ج ٦ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ المصدر السابق •

ان هناك بونا شاسعا بين فقد عظيم ، أو موت انسان قام ببعض الأعمال التى أثرت فيمن يحيطون به فوجدوا فى فقده حرمانا من رفده، أو نهاية لمعروفه ، وفقد انسان كان كل أمله الدفاع عن مبادىء ومثل أتت لتنير للناس سبيلهم وتخرجهم من تلك الهوة التى انحدروا فيهـا بعبادتهم للأصنام والأوثان الى قمم الجبال أو التحليق فوق السـحاب كى ينعموا بنور الله يملأ قلوبهم ، ويسـعدوا بمبادىء الحق ، وآيات اليقين تعم صدورهم ، انها المبادىء التى جعلت من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، فكان لابد لشهداء هذه المبادىء من وقفة معهم تبرز من خلالها مدى الدور الذى قاموا به ، ومـدى ما لحق بالمسـلمين من خطوب لفقدهم .

لقد وضع القرآن الكريم أكاليل على رؤوس هؤلاء الشـهداء ، وجعلهم فى درجات عالية لا يرقى اليها الا الأنبياء والمرسلون قالتعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» (الآية ١٦٩ من سورة آل عمران) .

وعندما استشهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير نزل فيهم قوله تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الآية ٢٣ سورة الأحزاب) .

واذا كان هذا وعد الله الذى لايتخلف، وكلامه الذى لايرقى اليه كلام بشر فان الناس ألفوا أن يستمعوا الى ذلك النون من الكلام الذى عدوه ديوانهم الذى به يتفاخرون وبأنغامه يصـدحون ، وبألحـانه يعزون ويواسـون .

لقـد سـار كعب بن مالك فى رثائه على تلك الخطوط التى وضعها العرب ، ليسير عليها كل من يريد فنا راقيا ، ونسـجا متينا ، انه لمس

نفس المعانى السائدة لديهم ، وضرب على نفس الوتر الذى ضرب عليه جميع الشعراء ، فهو يقول فى رثاء عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الذى استشهد فى غزوة بدر متأثرا بقطع رجله التى أصيبت :

أيا عين جـــودى ولا تبخلى
بدمعـك حقـا ولا تنزرى

على ســيد هدنا هلـكه
كريم المشــاهد والعنصر

برىء المقدم شاكى الســلاح
كـــريم النثاطيب المكسر

عبيدة أمسى ولا نرتجيــه
لعــرف عرانا و لا منــكر

وقد كان يحمى غـداة القتـا
ل حامـية الجيش بالمكسر (١)

لقد كانت غزوة بدر أولى الغزوات التى خاضها المسلمون ، وكانت تجربة الرثاء فى أول العهد بها لدى شعراء المسلمين فجاء رثاؤهم صورة مكررة لمـا ألفه العرب فى العصر الجـاهلى ، وما اعتـادوه من تعداد لبعض المآثر التى يتحلى بها ذلك الراحل العظيم •

بدأ كعب قصيدته بنداء عينه طالبا منها أن تجـود بالدمع ، وأن تكون سخية به لا تبخل به أو تقلل منه ، وهو ايماء بعظـم المصـاب ، وجلال الخطب ان المبالغة فى البكاء حرية بأن تطلب ، وجديرة بأن ترجى وحث عينه على البكاء خليق بأن يلجأ اليه •

وهذا البكاء صرفه كعب : ليكون وسيلة للتسلية عن فقد هـــذا السيد العظيم الذى أثر فقده فى جميع من عرفه ، أليس هذا السيد من

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٤ •

كرام الناس أصولا ، وأعظمهم أخلاقا وأطيبهم شمائل وسجايا ان مناقب عبيدة بن الحارث لا يحيط بها عدو لا يشملها حصر ، فهو الفارس القوى ذو الأصل العريق ، وهو الذى قد أثر فقده فى المسلمين جميعا ، فقد أمسى موسد التراب لا يرجوه أحد ، ولن ننتظره بعد اليوم .

وكلها صفات يشترك فيها جميع من عددوا مناقب العظماء ، أو رثوا أشرافا كرماء ، فهل الذى دفع كعبا الى ذلك ما ألف لدى العرب فى الجاهلية فلم يكن الرثاء بنيل الشهادة فى سبيل الله ، وأن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار قد ألف بعد ؟

أما رثاء كعب بن مالك فى رثاء شهداء أحد فقد وجدنا فيه معانى جديدة لعل الذى دفعه الى ذلك ما أعانه القرآن الكريم من آيات تتحدث عن الشهداء ، وما أعده الله لهم ، انهم سيخلدون فى الجنة التى هيئت لهم ، وها هو يقول فى رثاء شهداء أحد :

أبلغ قريشا على نأيها
أتفخر منا بما لم تلى
فخرتم بقتلى أصابتهم
فواضل من نعم المفضل
فحلوا جنانا وأبقوا لكم
أسودا تحامى عن الأشبل
تقاتل عن دينها وسطها
نبى عن الحق لم ينكل
رمته معد بعور الكلام
ونبل العداوة لا تأتلى(١)

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٦٣ المصدر السابق .

فقد رد على قريش فخرها بأن هؤلاء القتلى أصابتهم نعمة الله — سبحانه وتعالى — حتى يهيئهم للخلود فى جنات النعيـم ، لقـد قاتل هؤلاء الأسود لرفعة الاسلام ، واعلاء شأنه ، واذا كنتم أيها المشركون تقاتلون فى سبيل الأصنام والأوثان فاننا معشر المسلمين نقاتل فى سبيل الله ، ومعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى دأبتم على رميه بالكلمات الفاحشة ، وناشته منكم سهام الحقد والعداوة ، ولكن الله غالب على أمره ولو كره المشركون •

وقصائد كعب فى رثاء حمزة بن عبد المطلب يتضح فيها كثير من المعانى التى أخرج بها كعب ذلك الفن اخراجا جـديدا ، لأن الشـهداء الذين دافعوا عن مبادىء الحق والخير والفضيلة ليسوا كهؤلاء القتلى الذين لقوا حتفهم فى سبيل الشرك وعبادة الأوثان •

يقول كعب فى قصيدته التى أوردها ابن اسـحاق منسـوبة الى عبد الله بن رواحة وأوردها أبو زيد الأنصارى منسـوبة الى كعب بن مالك :

أصيب المسلمون به جميعـا
هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هـدت
وأنت الماجد البر الوصـول
عليك سلام ربك فى جنـان
مخالطها نعيـم لا يزول(١)

لقد جاء رثاؤه ممزوجا بما أعده الله للشهداء فى جنان الخلد التى

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٦١ المصدر السابق •

لا يزول نعيمها ، ولا ينتهى خيرها ورفدها ، انها أعدت لعباد الله الذين جادوا بأرواحهم فى سبيل الله ، انهم يحيون فيها حياة أبدية •

حتى ساعة أن هزه المصاب وعظمت عليه الفـــاجعة ، وطلب من صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة أن تبكيه لم ينس أن يذكر لها أنه استشهد فى سبيل رضا الله ورسوله فقال :(١)

صــفية قومى ولا تعجــزى
وبكى النســاء على حمــزة
ولا تسأمى أن تطيلى البكــا
على أســـد الله فى الهــزة
فقـــد كان عزا لأبنائنــــا
وليــث المــلاحم فى البــزة
يريد بذاك رضــا أحمـــد
ورضوان ذى العرش والعزة(٢)

أما قصيدته الدالية فقد أورد فيها كثيرا من المعانى التى تعد جديدة فى هذا الباب ، ولذا فقد رأيت أن أعرضها للقارىء كاملة ، حتى يتبين من خلالها منهج كعب بن مالك الأنصارى فى الرثاء •

بدأ كعب قصيدته بذلك البدء التقليدى الذى أعلن فيه أن الهموم قد انتابته ، وان الأرق قد لازمه ، وأن الجزع قد أصابه لما حدث يقول :

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ١٥٨ المصدر السابق •

(٢) بكى : بتشديد الكاف أى اجعليهن يبكين • الهزة : الشديدة • البزة : السلاح •

طرقت همومك فالرقاد مسـهد
وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد(١)
ودعت فؤادك للهوى ضـمرية
فهواك غورى وصحوك منجد(٢)
فدع التمادى فى الغواية سادرا
قد كنت فى طلب الغواية تفند(٣)
ولقد أنى لك أن تناهى طائعا
أو تستفيق اذا نهاك المرشد(٤)

فهو بدء يوحى بما أصاب كعبا من آلام وأحزان ، فقد سيطرت عليه الهموم لما حدث للمسلمين فى تلك الغزوة التى استشهد فيها كثير من شباب المسلمين ورجالهم ، فهل يمكنه أن ينام ، أو تقـر له عين وهو يتذكر هؤلاء الرجال ، بل هل يمكنه أن يلبى دعوة الداعى اليه كى يسرى عنه ما أصابه أو لحق به ، أو ينشغل عن هذه الآلام باللجـوء الى من تدعوه ، حتى ولو كانت من تلك القبائل المعروفة بجمال نسـائها ؟ ان ما أصابه أنساه كل هذه الرغبات بل ان قلبه يقول له « دع التمادى فى الغواية »،وهو قول أتى به كعب ليقطع كل حبل له بهذه الرغبات التى كان يلام عليها كثيرا ، فاما أن ينتهى طواعية وأما أن تزجره النذر التى أتت له بالأحداث العظام والكرب الجسام •

ان هذا البدء من كعب لم يأت فيه بجديد ، بل انه سار فيه على نهج الشعراء السابقين له وسار عنيه — أيضا — الشعراء اللاحقون ،

(١) مسهد : قليل النوم • سلخ : أزيل • الأغيد الناعم •
(٢) ضمرية : نسبة الى قبيلة ضمرية ، وغورى : نسبة الى الغـور منخفض من الأرض •
(٣) تفند : تكذب •
(٤) السـيرة النبوية ج ٣ ص ١٥٧ ، والديـوان ص ١٨٩ ، وأنى بمعنى حان •

فقد أظهروا التفجع فى أول قصائدهم ، ليعلموا القارىء أن هذه القصائد موجهة الى فن الرثاء دون غيره .

أما المقطع الثانى فقد وجهه كعب للحديث عن بطولة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب وذكر عظيم خلقه ، وكريم سجاياه فقال :

ولقد هددت لفقد حمزة هـدة
ظلت بنات الجوف منها ترعد(١)
ولـو أنه فجعـت حـراء بمثلـه
لرأيت راسى صـخرها يتبدد(٢)
قـرم تمكـن فى ذؤابة هاشـم
حيث النبوة والندى والسؤدد(٣)
والعاقر الكوم الجلاد اذا غـدت
ريح يكـاد الماء فيها يجمـد(٤)
والتارك القـرن الكمى مجـدلا
يوم الكريهة والقنـا يتقصـد (٥)
وتراه يرفل فى الحـديد كـأنه
ذو لبـدة شثن البراثن أربد (٦)

---

(١) بنات الجوف كناية عن القلب والكبد والأمعاء ، وعبر عنها بذلك لأن الجوف يشتمل عليها .

(٢) حراء : جبل حراء والمقصود هنا المنطقة . رأسى صخرها : أى الثابت من هذا الصخر .

(٣) القرم : السيد الشريف . الذؤابه : أعلى الرأس .

(٤) الكوم جمع كوماء الناقة العظيمة السنام : الجلاد القوية .

(٥) الكمى : الشجاع . مجدلا : مطروحا على الأرض : يتقصد . يتكسر

(٦) يرفل : يلبس ، ذو لبوة : يعنى أسدا ، واللبدة الشعر الذى على كتفى الأسد ، شثن . غليظ البراثن : المخالب وهى بمنزلة الأصابع من الانسان . الأربد : الأغبر يخالطه سواد .

فقد فجع فى فقد حمزة وأصابه الهلع ، حتى ارتعدت فرائصه ، واضطرب قلبه وماله لا يرتعد أو يفزع لهذه النازلة ، وماله لا يتألم لفقد ذلك البطل العظيم ، ان هذا الخطب لو أصاب الجبال الرواسى لتبدد صخرها ، ولاختل توازنها ، وما لهذه الجبال لا يحدث لها ذلك وقد فقدت بطلا عظيما ، وفارسا مغوارا ، وسيدا كان مكانه فى الذروة من قومه وذويه ، ان بنى هاشم يعترفون بقدره ويدينون له بالفضل والتقدم ، فهو المدافع عنهم ، وهو الذى لم يستطع صناديد قريش أن ينالوا منه ، ان بنى هاشم تتجمع فيهم صفات ليست فى غيرهم من قريش ، فهم مواطن النبوة ومحط الأنظار ، ومجمع الشرف والفضيلة والسيادة ، وهم أهل الندى والسؤدد .

ثم يذكر سيد الشهداء حمزة صفات ينفرد بها ، فهو جواد كريم ، وجوده وكرمه يتمثلان فى اغاثة الناس عند الشدة ، ونجدتهم اذا حل بهم قحط ، أو أصابتهم سنون عجاف ، انه ينحر النوق القوية ، ويطعم منها أولئك المنكوبين الذين حلت بهم النوازل ، فأهلكت الزرع والضرع .

وحمزة بن عبد المطلب شجاع قوى ، اذا نازله خصم ، أو التقى به مكافئ لن ينجو من قبضته ، أو يفلت من يده الا بعد أن يطرحه على الأرض ، ولعله من الأمور التى لا تغيب على أحد ما كان يتمتع به سيد الشهداء من قوة وفتوة ، ومن رجولة تناقلها الجميع ، وتحدث عنها الكثير ، وهو الذى كان الدرع القوية التى ردت أذى المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فقد قويت باسلامه شوكة المسلمين ، ووقف فى وجه أبى جهل يضربه بقوسه،ويعلن له ولأمثاله أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى منعة من قومه ، ولن يستطيع أحد أن ينال من دعوته أو يصل اليه .

انه أسد الله الذي اذا رأيته ، وهو يلبس دروع الجديد فكأنما تري أسدا هصورا قد غطاه شعره ، وبرزت مخالبه وبراثنه،وهي صورة أتي بها كعب ، كي يعلم الجميع مدى ما كان يتمتع به حمـزة من قوة وفتـــوة .

ثم قدم لنا كعب صورة ثالثة ، ليعلم بها الســامعين أن أقــرب المقربين الى رسول الله خاضوا المعارك ، وتقدموا الصفوف ،واستشهدوا فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ، فقال :

عم النبى محمـــد وصــفيه
ورد الحمام فطــاب ذاك المورد
وأتى المنية معلمـــا فى أسرة
نصروا النبى ومنهم المستشهد(١)

لقد جمع كعب فى هذين البيتين كثيرا من المعانى التى تقال فى هذا المقام ، فحمزة بن عبد المطلب عم النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — وهذه حقيقة يعلمها الجميع ، لكن كعبا أراد بذلك لفت أنظـار المسلمين جميعا ممن أصيبوا فى ذويهم فى أحد ، أو ممن نجوا ومازالوا يحملون عبء الدفاع عن الدعوة الاسلامية الى أن استشهاد حمزة لابد أن يخفف عنهم ما نزل بهم ، فاذا كان حمزة قد استشهد وهو عم النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — بل ومثل بجثته فان المطلوب منكم جميعـــا أن تتقبلوا ما أصابكم ، فمصيبتكم ليست بأعظم من مصيبة الرســول فى عمه ، انه صفيه والمقرب اليه ، بل وأخوه فى الرضــاع ، وكان من السباقين الى الشهادة ، بل ان الاسلام أصيب فى حمزة ، فقد كان من

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٥٧ ، ومعلما : واضعا عليه علامة كى يعرف بها في الحرب ، والأسرة : الرهط والجماعة .

الأبطال القلائل ، دافع عن الاسلام فى مكة ، وصال وجال من أجــل نصرته فى بدر •

والشطر الثانى من البيت الأول يعبر به كعب عن قضية أخرى ، فالموت سيصيب الانسان رضى أو أبى ،ومن لم يمت فىحومةالميدان مات عند بلوغ أجله فى أى مكان « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » وهناك فرق بين من مات ميتة الشهداء ومن مات ميتة الضعفاء •

أن حمزة بن عبد المطلب لم ينتظر الموت حتى يأتيه، ولم يبق فى مكانه حتى يموت على فراشه لكنه أقبل نحو الموت يغالبه ، ليصل اليه ، لقد صور لنا الموت وكأنه مورد يرد اليه حمزة « ورد الحمام » وما أعظمه من مورد ، وما أجمله من موت انها الشهادة فى سبيل الله ، فليهنأ حمزة بالشهادة ضاربا المثل لغيره من المسلمين كى يحرصوا على ما حــرص عليه •

ان المنية لم تأته ولكنه أتاها ، لم تأخذه ولكنه أخذها ، لقد كان رائعا فى اتيانه اياها ، فقد كان بين أولئك الرهط الذين نصروا رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونالوا شرف الشهادة فى ســبيل الله ــ سبحانه وتعالى ــ •

ويقدم لنا كعب جانبا آخر من القصيدة يحاول به تخفيف مصاب المسلمين فى شهدائهم مذكرا المشركين بما حدث لهم فى بدر ، متخذا من هند بنت عتبة مثارا لحديثه ، تلك التى خططت ودبرت لقتــل حمــزة ابن عبد المطلب ، والتمثيل به ، ولقد أبدت فرحتها بما حدث ، وخاصة لما صنعته من قتلها حمزة بأسلوب يأباه الشرفاء ، وينفر منه العظماء ، ولا يقبل عليه الا الأذلاء الجبناء ، انه لم يمت بســيوف الأبطال الذين

صرعهم الواحد تلو الآخر ، وانما مات بحربة رجل مستأجر جـاءه من الظهر كى يصيب منه رمية ، ولو آتاه مواجهة لكان له شأن آخر يقـول كعب :

ولقد اخال بذلك هنـدا بشرت
لتميت داخـل غصـة لا تبرد(١)
مما صـبحنا بالعقنقـل قومهـا
يوما تغيب فيه عنها الأسعد (٢)
وببـئر بدر اذ يرد وجـوههم
جبريل تحـت لوائنـا ومحمـد
حتى رأيت لـدى النبى سراتهـم
قسمين : يقتل من نشاء ويطرد(٣)
فـأقام بالعطـن المعطـن منهم
سبعون : عتبة منهم والأسود(٤)
وابن المغـيرة قـد ضربنا ضربة
فوق الوريد لها رشـاش مزبد
وأميـة الجمحى قوم ميله
عضـب بأيدى المؤمنين مهنـد(٦)
فـأتاك فـل المشركين كأنهـم
والخيل تثفنهم نعام شرد (٧)

---

(١) اخال : أظن • الغصة : ما يعترض فى الحلق فيشرق •
(٢) العقنقل : الكثيب من الرمل يعنى مكان بدر •
(٣) سراتهم : رؤساءهم ، وخيارهم •
(٤) العطن : مبرك الابل حول الماء • المعطن : الذى اتخذ عطنا •
(٥) ابن المغيرة : يعنى به الوليد بن بن المغيرة • الوريد : عرق فى صفحة العنق • الرشاش المزبد : الدم تعلوه رغوة •
(٦) أمية الجمحى : يعنى أمية بن خلف • العضب : السيف القاطع
(٧) الفل : القوم المنهزمون ، وقد يقصد به الكسور التى تكون فى حد السيف ، تثفنهم : تطردهم ، وتتبع آثارهم •

كان لابد لكعب من هذا الحديث ، حتى يجعل المشركين يعلمون أنهم مهما صنعوا فى أحد فلن يصلوا الى ما صنع بهم فى بدر ، وكان عليه أن يجعل هندا لا تفرح كثيرا ، أو يطول فرحها بهذا الصنيع الذى قامت به تجاه حمزة بن عبد المطلب ، فذكرها بما حدث لقومها وذويها فى بدر ، وهى ان تذكرت ذلك فانها ستغص غصة لا تبرد منها ، لأنها ستتذكر أباها وعمها وأخاها ، وكلهم قد قتل بسيوف المسلمين فى بدر ، انه كان يوما غاب فيه سعدهم فأصيبوا اصابات قاتلة ، وكان المسلمون يومها يسيرون الى لقاء عدوهم بقلوب مطمئنة ، ونفوس راضية ، فهم يعلمون أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — معهم ، وأن وعد الله له بالنصر لا يتخلف ، وأن جبريل قد بشرهم بهذا النصر ، وطلب منهم أن يثبتوا عند لقاء عدوهم فأسفرت النتيجة عن أولئك القتلى الذين ألقوا فى القليب ، وعن أولئك الأسرى الذين أصبحوا تحت أمرة المسلمين يقتل الرسول منهم من أراد المسلمون قتله ، ويطرد من أرادوا طرده ، انها نتائج عظيمة ، لقد كان بين القتلى عتبة وشيبة والوليد بن المغيرة،وأمية ابن خلف ، وكلهم يمت برابطة قوية الى هند بنت عتبة فأبوها وعمها ، قتلتهم سيوف المسلمين البتارة ، أو جعلتهم يفرون من المعركة كما يفر النعام الذى أفزعه هول القنص ، فأخذ يجرى دون أن يعرف له متجها وكعب بذلك يجعل هندا تبكى دما ، وتموت كمدا وحسرة .

ويختم كعب هذه القصيدة بتلك الموازنة التى عقدها بين من قتل من المشركين فى بدر ، ومن استشهد من المسلمين فى أحد ، ان قتلى المشركين لهم نار جهنم خالدين فيها أبدا .

يقول كعب :

شتان من هو فى جهنم ثاويا
أبدا ومن هو فى الجنان مخلد (١)

---

(١) ثاويا : مقيما فيها لا يبرحها . السيرة النبوية ج ٣ ص ١٢٨ المصدر السابق .

وهكذا يعطينا كعب فى هذه القصيدة كثيرا من المعانى التى فرضها عليه الموقف ، والتى أراد بها تخفيف تلك الآلام التى لحقت بالمسلمين.

ونختم جولتنا مع كعب بن مالك فى رثاء شهداء المسلمين بعرض لتلك القصيدة التى قالها فى رثاء شهداء مؤتة تلك القرية التى تقع بأرض البلقاء ببلاد الشام ، فقد وردت الأخبار الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الروم يجمعون جموعهم لحرب المسلمين :«فبعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعثة الى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : أن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس وان أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة على الناس » .(١)

سار جيش المسلمين الى بلاد الشام فى ثلاثة آلاف مقاتل وهو عدد كبير بالنسبة لتلك الحروب التى خاضها المسلمون ، لكنهم عندما نزلوا « معان » من أرض الشام بلغهم : « أن هرقل قد نزل بآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف عليهم رجل من بلى ... فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنخبره بعدد عدونا ، فاما أن يمدنا ، واما أن يأمرنا بأمره ، فنمضى له » قال : « فشجع عبد الله ابن رواحة الناس ، وقال : يا قوم والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فانما هى احدى الحسنيين

---

(١) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٧٣ المصدر السابق .

اما ظهور ، واما شهادة قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس »(١)

استمر المسلمون فى سيرهم ، حتى اذا كانوا بالبلقاء التقوا بعدوهم فانحاز المسلمون الى قرية تسمى مؤتة ، ثم التقى الناس ، واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى شاط (أى استشهد) فى رماح القوم » •

« ثم أخذها (أى الراية) جعفر بن أبى طالب ، فقاتل بها حتى اذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل » •

« قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفـر ابن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشـماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، حتى قتل — رضى الله عنه — وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث شاء »(٢)

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل فحملها رجـل من المسلمين ثم قال لهم : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم قالوا : أنت قال : ما أنا بفاعل ،فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس » •

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٧٥ المصدر السابق •
(٢) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٧٨ المصدر السابق •

لقد كان وقع هذه المعركة أليما على المسلمين جميعا ، بل وعلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى حزن على جعفر بن أبى طالب حزنا شديدا .

لقد قال الشعراء فى ذلك قصائد يبكون فيها شهداء مؤتة منها قصيدة حسان بن ثابت التى قال فيها :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر   وهم اذا ما نوم الناس مسهر

وفيها يقول :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا
جميعا وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم
الى الموت ميمون النقيبة أزهر(١)

أما كعب بن مالك فقد قال قصيدته اللامية فى رثاء شهداء مؤتة، وقد أعطانا كثيرا من المعانى التى تفرض على الباحث الوقوف أمامها ، حتى يجلى للقارىء بعض هذه المعانى .

بدأ كعب قصيدته بذكر بعض الهموم التى انتابته فى ليلته فجعلته لا يستطيع النوم ، فقال :

نام العيون ودمع عينك يهمل
سحاكما وكف الطباب المخضل(٢)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٨٤ المصدر السابق .
(٢) يهمل : يسيل . سحا : صبا ، وكف : قطر ، الطباب ، سير فى القربة بين الخرزتين . المخضل : السائل .

في ليلـــة وردت على همـــومها
طورا أحن ، وتارة أتململ (١)
واعتادنى حـــزن فبت كأننى
ببنات نعش والسماك موكل (٢)
وكأنما بين الجـــوانح والحشـــا
مما تأوبنى شهاب مدخـــــل (٣)
وجدا على النفر الذين تتابعوا
يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا (٤)

بدأ كعب بن مالك قصيدته بهذه الأبيات التى يظهر فيها حسرته على هؤلاء الشهداء الذين اســـــتشهدوا فى مؤتة ، ولم يصرح بذلك الا فى البيت الخامس ، أما فى افتتاحية القصيدة فانه عبر عن تلك الهموم التى انتابته ، وهذه الهواجس التى سيطرت عليه فجعلته يبكى بكاء مرا فما لعينه لا تنام ! وما لدمعه لا يفارق مآقيه ، بل ما له يسيل بغزارة كأنه قربة قد زال عنها غطاؤها ، فأخذ الماء يسيل منها ، ما أقسى هذه الليلة التى تجمعت فيهـــا الهموم ، وجعلتنى أحن تارة ، وتارة أتململ فى فراشى ، ثم يظهر لنا دور هذا الحزن الذى أصابه فجعله لا ينام الليل

---

(١) أحن : بالحاء المهملة من الحنين ، ومن يرويه من الجنين بالحـاء المعجمة فيعنى به الصـوت الذى يخرج من الأنف عند البـكاء • أتململ : أتقلب متبرما بمضجعى •

(٢) بنات نعش والسماك : يعنى بها النجوم ، يريد أنه بات يرعى النجـوم •

(٣) شهاب : الرمح شبه بالكواكب لما فيه من البريق • مدخل : نافذ الى الداخل •

(٤) وجدا : حزنا • مم يسندوا : لم يدعموا بقوة يواجهون بها قوة عدوهم • والقصيدة فى السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٣٨ ، ٣٨٤ وفى ديوان كعب ص ٢٦٠ •

بل انه استمر الليل كله يراقب النجوم ، ويرصد حركاتهـا كأنه فلكى موكل بهذا العمل لا يبرحه وياليت الأمر وقف عند حد السهر ومواصلة البكاء ، بل ان الأمر وصل الى جوانحه وأحشائه فأضحت وكأن سهما قويا قد أصابها ، أو كأن حرارة عاتية قد دخلت اليها فاذا بهذه الأحشاء تكاد تنقطع مما أصابها ، ان كل ذلك الأمر كان نتيجة لفقد هؤلاء الرجال الذين تتابعوا لنيل الشهادة فى مؤته ، وقد كانوا قليلى العدد أمام جيوش الروم التى تجهزت لحربهم والقضاء عليهم .

لقد استخدم كعب فى ذلك ايحاء الكلمـات وأكثر من أسـاليب التشبيه التى تقرب الصورة للسامعين ، فهناك الكلمات « يهمل ــ سحا ــ المخضل » التى أراد التعبير بها عن بكائه الذى لا ينقطـع ، وعـن غزارة الدموع التى انهمرت من عينيه ، ثم تعبيره بالكلمات « وردت ــ همومها ــ أخن ــ أتململ » عن الأرق الذى لازمه وجعله لا يستقر فى فراشه ، ثم تعبيره بقوله « كأننى ببنات نعش » عن طول سهره وبعـد النوم عنه ، وأنه بات يحرس هذه النجوم ، وقد اسـتخدم أساليب التشبيه فى قوله « سحا ــ كما ــ وكف .. » وقوله « وكأنمـا بين الجوانح » كل ذلك يجعل السامع متعلقا بمعرفة الأسباب التى دفعته الى ذلك فاذا به يقول :

وجدا على النفر الذين تتابعوا
يوما بمؤتة أسـندوا لم ينقلوا

ثم يقـدم لنا كعب جانبا آخر من القصـيدة يتحدث فيه عن دور أولئك النفر الذين حملـوا اللواء ، ودافعـوا حتى سقطوا فى سـاحة الشرف والنضال فيقول :

صـــلى الاله عليهم من فتيـــة
وسقى عظامهم الغمام المسبل (١)
صبروا بمؤتة للاله نفوســـهم
جذر الردى ومخافة أن ينكلوا (٢)
فمضوا أمـــام المســـلمين كأنهم
فنـــق عليهن الحـــديد المرفل (٣)
اذ يهتـــدون بجعفـــر ولوائـــه
قـــدام أولهـــم فنعم الأول (٤)

ان كعب بن مالك فى هذا الجزء يتوجه الى أولئك الشهداء راجيـــا من الله سبحانه وتعالى أن يصلى عليهم ، وأن يفيض عليهم برحماته ، وأن يسقى عظامهم بمـــا يفيض عليهم من غيث ، وهو غيث الرحمـــة ، وفيض الرضوان ، انهم جديرون بذلك ، فقد أوقفوا نفوسهم لله ، لم يهابوا الموت ولم يرهبوا عدوهم ، صنعوا ذلك حتى لا يقال عنهم انهم جبنوا عن لقاء عدوهم ، أو خافوا الموت ، لقد مضـــوا أمام المســـلمين كأنهم الفحول القوية ، أو كأنهم الأسود ترفل فى الحديد يتقدمهم جعفر ابن أبى طالب الذى حمل اللواء فكان سابقهم الى الشهادة ، لقد أدى كل من زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحه دوره فى هذه المعركة ، وكل منهم قد استعذب الموت فى سبيل الله ، فتركوا سيرة عطرة ، فنعم ما صنعوا !!

---

(١) المسبل المطر ٠
(٢) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون ٠ ينكلوا : يرجعوا هائبين لعدوهم ٠
(٣) الفنق بضم الفـاء والميم : الفحـول من الابل ٠ المرفل : الذى تنجر أطرافه على الأرض ٠ وهو كناية عن الدروع السابغة ٠
(٤) جعفر : يعنى جعفر بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ٠

ثم يختتم القصـــيدة بحـــديث عن جعفر بن أبى طالب وقومه من بنى هاشم حتى يسرى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى تألم لفراقه فقال :

حتى تفـــرجت الصـــفوف وجعفـــر
حيث التقى وعث الصفوف مجدل (١)

فتغـــير القمـــر المنير لفقـــده
والشـــمس قد كسفت وكادت تأفل (٢)

قـــرم علا بنيـــانه من هاشـــم
فرعا أشـــم وســـؤددا ما ينقل (٣)

قـــوم بهم عصـــم الاله عبـــاده
وعليهـــم نـــزل الكتـــاب المنـــزل

فضـــلوا المعـــاشر عـــزة وتكـــرما
وتغمـــدت أحلامهم من يجهـــل (٤)

لا يطلقون الى الســـفاه حبـــاهم
ويـــرى خطيبهم بحق يفصـــل (٥)

بيض الوجـــوه ترى بطون أكفهم
تنـــدى اذا اعتـــذر الزمان الممحل (٦)

---

(١) وعث الصغوف : التحامها ، حتى يصعب الخلاص من بينتها . مجدل : مطروح على الجدالة وهى الأرض .
(٢) تأفل : تغيب .
(٣) القرم : السيد . ما ينقل : أى ما يتحول .
(٤) تغمدت من يجهل : سترت جهل الجاهلين .
(٥) اطلاق الحبوة : كناية عن النهضة للنجدة ، والحبوة أن يشبك الانسان أصابع يديه بعضها فى بعض ويجعلها على ركبتيه اذا جلس .
(٦) الممحل : الشديد القحط .

وبهـديهم رضى الاله نخلقـه

وبجدهم نصر النبى المرسل (١)

لقـد تفرجت الصـفوف عن استشهاد جعفر بن أبى طالب فلحق بصاحبه زيد بن حارثة ، لقد تأثرت الدنيا كلها لفقد جعفر ، حتى تغير لون القمر ، وكسفت الشمس فى ذلك اليوم حزنا على فقد جعفر وهـذا المعنى من قبيـل المبـالغة ، فان الشـمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد أو حياته ، لكن كعب بن مالك أراد أن يجعل الدنيا كلها تحزن على جعفر ، حتى الشمس والقمر •

وهنا وجدنا كعبا يستطرد فى حديث طويل عن جعفر بن أبى طالب معلنا أنه من سادات بنى هاشم ، والمقدمين فيهم ، هـؤلاء القوم الذين أرسل فيهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعصم الله به عباده ، وعليه نزل كتاب الله الذى هدى به الله العرب جميعا ، ان هؤلاء القوم قد وسعت أحلامهم سفاه الناس ، وبهذا فضلوا الناس جميعا ، أنهم لا يتأثرون بالسفهاء من الناس ، ويرى خطيبهم يتمتع بحجج قوية ، انهم بيض الوجوه ، يجودون اذا أمحل الناس •

لقـد حاول كعب بهـذا الحديث أن يعزى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاستخدم الكلمات التى تخفف الألم الذى لحـق برسول الله ، فلقد استشهد كعب فى ساحة البطولة والشرف ، ولقـد دافع عن الاسلام دفاع العظماء ، ان جعفر بن أبى طالب الذى حمل الراية وتقدم الجنـد هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من رجالات بنى هاشم المعدودين الذين لهم أعمال مجيدة ، وأخلاق فاضلة ، لقـد وسعوا الناس بحلمهم ، وشملوهم بخيرهم وكرمهم •

---

(١) بجدهم : بقوتهم ، وروى بحدهم بالحاء المهملة أى بشـجاعتهم واقدامهم •

ثم هو أيضا — يقرر أن الله قد من عليهم فأرسل رســـوله منهم وهدى به الناس ، وأخرجهم من الظلمات الى النور •

وهكذا يقدم لنا كعب قصائده فى رثاء شهداء الغزوات ، واضعا على رؤوسهم أكاليل الزهور ، وباقات الورود ، حتى يجعل المسلمين يتطلعون الى نيل ما ناله هؤلاء الشهداء •

الباب الثالث

نقد وموازنة



الفصـــل الأول

مـلامح نقـــدية

الشعر هو جوهر التراث الفكرى والثقافى للأمة العربية ، وهــو الفن الذى صدح به الشعراء تخليدا لمـآثر أمتهم ، وتمجيدا لعظمــة أبطالهم ، وحفزا لهمم رجالهم وفرسانهم ، انه عنوان حضـــارة الأمة ، والنافذة التى ترى من خلالها نهضتها ورقيها ، بأنغــامه دافعـــوا عن مبادئهم وبألحانه سجلوا انتصاراتهم وأيامهم •

واحياء هذا التراث ، ومحاولة عرضه بصورة لائقة رائقة احيــاء لتراث أمة ، وبعث لدور أجيال ، ولا يمكن لأمة أن ترقى وتنهض ، أو تساير تطورات الحاضر ، وتطلعات المســتقبل الا اذا أســتلهمت من ماضيها دليل حاضرها وأخذت من تراثها مشـــعلا يضىء لها طــريق مســـتقبلها •

ودراسة نتاج شاعر فى عصر من العصور يتطلب من الباحث القاء الضوء على بيئته ودوره فى الايمان بقضايا أمته ، وتفاعله مع أحداث مجتمعه ــ ومكانه فى هذا المجتمع ، ثم انها تلقى الضوء على القضـــايا الفكرية والأدبية التى برزت فى هذه الفترة ، حتى يستطيع القـــارىء الالمـــام بكل أحداث العصر ، والاحاطة بكل جوانبه ، وعندئذ تكتمــل الصورة لدى القارىء ويستطيع توظيفها والافادة منها •

والشعر العربى فى عصر صدر الاسلام قد تفهم شعراؤه الرسالة التى نيطت بهم ، وقد قام بعضهم مثل حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ـ بدور الدفاع عن رسالة الاسلام التى أتت لتجمع شتات الأمة ، وتحيى مواتها وتبعث فيها روح الايمان يعم نورهـــا

العالم ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن أفعمت ظلما وجرا ، بل لتجعل الناس جميعا على مختلف أجناسهم وألوانهم يتمتعون بظل المظلة التى نشرها الاسلام عليهم فوقتهم من نار التفرقة ، وحمتهم من لهيب التعصب « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ان رسالة الاسلام السامية أتت لتقيم حضارة ، ولتبنى أمة ، ولتكون من هذا العالم الذى مزقته الفرقة . وطحنته الانقسامات خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

واذا كان الشعراء فى عصر صدر الاسلام قد قاموا ببعض مايجب عليهم فى هذا الصدد ولم يكن دور الشعر رائدا — كما هو شأنه دائما — فانما صنعوا ذلك ، لأنهم وجدوا فى القرآن الكريم ملاذهم ، بهرتهم آياته ، واستحوذت على قلوبهم معانيه وعباراته ، بل انهم وجدوا أنفسهم أمام نسج متفرد ، وبنيان محكم « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فكان لابد والأمر كذلك من تأخر الشعر ، ليتقدم القرآن الكريم ، وأن يفسح الشعر المجال ، فتنطلق آيات القرآن ، فتمتلك شغاف القلوب ، وتأخذ عليهم كل جوانبهم ، أو كما قيل عنه من أحد المشركين : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق . حتى رأينا بعض الشعراء المقدمين فى العصر الجاهلى تركوا الشعر ، وانصرفوا عن ألحانه ، ليفرغوا الى حفظ القرآن الكريم ، ويتفهموا أسراره ومراميه ، ولقد أورد لنا الرواة تلك القصة التى حدثت بين سيدنا عمر بن الخطاب ، ولبيد بن ربيعة والأغلب العجلى (١) ، فقد « كتب عمر بن الخطاب الى عامله أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الاسلام ، فقال الأغلب :

---

(١) الأغلب العجلى : شاعر راجز مخضرم استشهد فى موقعة نهاوند سنة ١٩ هـ انظر الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦١٣ ط دار المعارف .

أرجزا تريد أم قصـيدا   فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران،فزاد عمر فى عطائه فبلغ به ألفين ، فلما ولى معاوية قال : يا أبا عقيـل : عطائى وعطاؤك سواء ، لا أرانى الا سأحطك ، قال : أو تدعنى قليلا، ثم تضم عطائى الى عطائك فتأخذه أجمع » (١) .

فلعل الذى دفع الشعراء الى ذلك أنهم وجدوا فى القرآن الكريم المثل الأعلى فى الفصاحة ، وما كان لهم أن يجاروا ذلك البيـان الرائع فعكفوا على حفظه ودراسته ، لكنهم عندما وجدوا أن الدعوةالاسلامية بحاجة الى فنهم ، وأن المسلمين يتطلعون الى من يرد عنهم سـهام المشركين التى وجهت اليهم ، والتى ثلبوا بها أعراضهم قـام الشـعراء بذلك الدور المنوط بهم ، وردوا كيد المشركين فى نحورهم ، ولقـد قدمت فى التمهيد لهذا البحث أمر أولئك النفـر الثـلاثة الذين كانوا يهجون رسول الله ، وأن المسلمين طلبوا من رسول الله أن ينتدب اليهم سيدنا عليا بن أبى طالب — رضى الله عنه — ليرد عليهم ، فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليس ذاك ، أو ليس عنده ذلك ، وقال مايمنع القوم الذيننصروا رسول الله بسيوفهم أنينصروه بألسنتهم،وقامحسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة بالرد علىعمرو بنالعاص، وعبد الله بن الزبعرى ، وأبى سفيان بن الحارث .

هذا هو دور الشعر فى كل العصور ، لأن الشعر فن ، والفن ابراز لوجدان الفنان وعواطفه ، وموقفه النفسى مما يحيط به من منـاظر

(١) ابن سلام الجمحى : طبقـات فحول الشـعراء جـ ١ ص ١٣٥ ، وانظر الأغانى جـ ١٥ ص ٣٧٠ المصدر السابق .

وحقائق ، والمثال الذى يختاجه الفنان ، ويتخذ منه وسيلة لعمله الفنى ليس هو الصور المحسوسة بل الآثار النفسية التى ترتسم على صفحات قلبه ، وتتجاوب فى حنايا نفسه ، فيحاول اظهارها طبقـا لما يوحى به الفن ، وما تهدى اليه العبقرية ، والقارىء أو السامع يدرك ذلك كله ، أو بعضه لا عن طريق الحقائق الماثلة ، بل عن طريق احساس الفنان ، وأسلوبه فى الابانة والافصاح ، وما يبتكر من وسائل للتعبير عن قيمتها فى رأيه » (١) .

لقد قام الشعر بهذا الدور متخذا فى ذلك وسائله الفنيـــة التى فتقها امرؤ القيس وصدح بها الأعشى ، وضرب على وترها أبو تمـام والبحترى والمتنبى ، بل وعزف على قيثارتها البارودى وشوقى وحافظ واستجاب لألحانها الشابى والفيتورى والهمشرى ، وغيرهم من أولئك الشعراء الذين أذكوا حرارة الوطنية بألحانهم ، وألهبوا حماس الفدائية بأنغامهم ، وأمتعوا بمعزوفاتهم أحاسيس الأمة ، وخففوا بأغانيهـــم ما يعانيه الكادحون من حرمان .

وأذا كانت هناك بعض الفترات تخلى فيها الشعر عن دوره ، أو ابتعد — قليلا — عن رسالته — فلم يهدف الى التفاعل مع قضـــايا مجتمعه ، ولم يعبر عن عواطف منشئه أو موقفه النفسى — فلا يجب أن نتخذ من تلك الفترات معاول هدم ننقض بها على تراث أمتنا ، أو ننهال بها على ما خلفه الأقدمون من شعر رادوا به أجيالا ، وأمتعـوا به عصورا .

---

(١) عباس حسن الأصول الفنية للأدب ص ٨ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٤٩ م .

ولا يجب على دعاة التجديد فى غمرة انتصارهم لما ابتكروه من أنظمة ، وما اخترعوه من أشكال أن يوجهوا سعار حملاتهم الى الشعر القديم ، وأن يحاولوا رميه بالتخلف عن مواكبة الحضارة الحديثة ، وعدم مسايرة العصر ، لأنهم بذلك يهدمون أنفسهم ، ويقوضون بنيانهم ، فالحاضر ابن الماضى ، ولا خير فى طريف لا يتخذ من التليد منطلقا وردئا .

والسؤال الذى يطرح نفسه تمشيا مع هؤلاء . هل تستطيع الأمة أن تتخلى عن تراثها ؟ أو هل تستطيع الأمم أن تعود الى ذلك التراث فتحذف منه كل ما لا يروقها وتبقى بعض ما تراه صالحا لها ؟ وهل يمكن أن يتجزأ تراث الأمم ، وأن يحذف منه أو يضاف اليه ؟ هذه أسئلة وردت على ذهنى ، وأنا أقرأ بعض البحوث التى كتبها أحد الباحثين المعاصرين حيث يقول : « وجدير بمحبى الشعر أن يتلفتوا الى الضرورة التى توجب عليهم أن يتخلوا هذا النتاج الذى تكاثر فيه الغث من أشعار تقليدية مقفاة سادتها السوءات من جلجلة موسيقية أو صور وعبارات مطروقة ، أو مزخرفة لا صلة لها بالواقع الشعورى أو خطابية تقريرية نثرية ، وما اليها من سوءات ، أو من أشعار رومانسية هائمة فى الاسراف العاطفى ، والتعميم التعبيرى ، وبعيدة عن دنيا الحياة ، أو من أشعار رمزية مجللة بالغموض والابهام فى فكرتها أو صورها اللاواقعية ، أو أساطيرها الغربية التى لا تمت الى حياتنا العربية بأية صلة ، وسوف يجدون بعد اعمال حساسيتهم ، وطاقتهم الروحية النافذة دررا شعرية نفيسة صيغت صياغة مقفاة ومتحررة قل نظيرها فى شعرنا السابق ، دررا تميزت بالتجارب الانسانية الجديدة الطازجة ، وبتقنيات فريدة فذة لا عهد للرواد بها

تؤيد ايماننا بتقدم شعر اليوم وازدهاره ، وقدرته الفائقة على مواجهة مستقبل أدبى مشرق فى يقين وثقة » (١) .

يجب أن نقف أمام تلك الثورة التى يقوم بها دعاة التجـديد فى الشعر على التراث الشعرى الذى بقى حقبا طويلة ، وأزمنة متعاقبة.

لقد وجهت الى هذا الشعر كثير من الحملات الضارية ، ولكنها لم تستطع أن تهدم منه ركنا ، أو تفل له غربا ، اننا لا ننكـر على هؤلاء دورهم فى التجديد الذى يرونه مناسبا لحاجتهم وامكاناتهم ، ولكننا ننكر عليهم حملتهم الشرسة على تراثنا الشعرى ، ونقول لهم : هل تركتم لنا شعرنا القديم — فى رأيكم — وتركتم من يريد العزف على وتره دون تدخل منكم ، ثم يكون لكم ما تريدون فان نجحتم فى اثنـاء المتـذوقين للشعر الموزون عن تذوقه ، واستطعتم أن تطلعوا عليهم بفن يستعيضون به عن ذلك التراث فاننا عندئذ نقول لكم كمـا قال القـرآن الكريم : « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » واذا لم تستطيعوا ذلك ، وتشبث المتذوقون للشـعر بتراثهم ، فعليكـم أن تسلموا لهم الراية ، وأن تتركوا ذلك الذى تقولون الى أى مجال آخر .

ولعلنا نذكركم بموقف الشعوبية فى العصر العباسى من التراث العربى ، ومن الشعر منه بخاصة ، فهل استطاعوا النيل منه ، انهـم كانوا والشعر على مثال قول القائل :

---

(١) مصطفى عبد اللطيف السحرتى : دراسات نقدية ص ١٣ ، ١٤. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

كناطح صخرة يوما ليوهنهـا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

لقد وقف أبو نواس بدعوى التجديد والثورة على عمود الشعر فقـال :

صـفة الطلـول بلاغة القـدم
فاجعل صـفاتك لابنـة الكـرم
تصف الطلـول على السـماع بها
أفذو العيان كانت فى الحكم
واذا وصـفت الشىء متبعـا
لم تخـل من غلـط ومن وهم(١)

لكن أبا نواس على كراهيته للتراث العربى لم يستطع أن ينال من القديم ، وانما وجه شعراء عصره ، كى يعدلوا عن افتتاحيات القـدامى الى افتتاحيات حديثة يتخذون الخمر فيها منطلقهم ، وهو بذلك يستعيض شيئا بشىء ، فلم يأت بجديد •

ولقد تنبه الجاحظ الى أمثال هذه الحملات الضارية على الشعر ، فلم يرد على من يقومون بها الا بقوله : هل يستطيع أحـد أن يترجم الشعر ؟ ان الشعر صعب ترجمته ، لأنه فى هذه الحالة سيتحول الى نثر ، ولن يستطيع المترجم أن يترجمه الا اذا أوتى فصاحة الشاعر وبلاغته ، ولن يؤدى الترجمان ما قاله الحكيم ، ولعلك تدرك أنه يقصد بالترجمـة نقل الكلام من لغة الى لغة ، فهو يقول :

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة جـ ١ ص ٩٢ ط دار الجيل لبنان

« وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا ، ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن » ثم يقـــول : « ان الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، وتعانق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها »(١)

ان الشعراء القدامى تفردوا بأشياء ، وأتوا بمعانى لم يستطع الشعراء فى مختلف العصور أن يصلوا الى ما وصلوا اليه ، والامثلة على ذلك كثيرة مشرقة شريطة أن يعاد فهم هذا التراث على مســتوى من الفهم دون تعصب أو غض من قدر قائليه ، وعندئذ سنجد أن هــــذا التراث قد أدى دوره ، ومثل عصره ، وصور بيئتــه ومصره ، بل ان أشكاله الهندسية التى قام عليها هى سبب خلوده « ولعل موسيقى شعر لم تنتظم نسبها ، وتتكامل كما تكاملت وانتظمت فى شعرنا العربى منذ أقدم عصوره اذ تتساوى الحركات والسكنات فى كل بيت من القصيدة ملتقية دائما عند قافية توفق وحدة النغم ، وتتيح الفرصة للوقوف عند أى بيت ، وترديده على السمع ، ولا شك فى أن هذا التكامل والانتظام انما جاءا من تعانق تلحين الغناء ، وحركات الرقص وضرباته مع شعرنا فى نشأته مما جعله يستوفى النغم الطوال والقصار ، ومواقع النبرات والنقرات ، ويتمسك بقرار القافية الثابت ، حتى تتم للنغم وحــدته ، وتتضح رناته فى كل بيت ، وقد عبر حسان بن ثابت تعبيرا بينا عمــا استقر فى نفسه ونفس شعراء الجاهلية والمخضرمين من العلاقة الوطيدة بين الشعر والغناء اذ قال .

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٧٥ ، ٧٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الحلبى بمصر .

تغن بالشعر اما كنت قائله ان الغناء لهذا الشعر مضمار (١)

الاســـلام والشعر :

وحديثنا عن الشعر فى عصر صدر الاسلام ، أو حديثنا عن كعب بن مالك الأنصارى يدفعنا طائعين أو مكرهين الى موقف الاسلام من الشعر ذلك الفن الذى نزل القرآن الكريم ، فوجده متربعا على عرش البيان العربى ، متحكما فى ناصيته ، بل ان الشعر فى فترة ما قبل نزول القرآن كان له سلطانه الذى لا يغلب ، وبنيانه الشامخ الذى لا يتسامى اليه بناء ، ولا يصل الى ذروته فن من فنون القول التى ألفت لدى العرب ، وماذلك الا لأن الشعر كان ديوان العرب ، وسجل مفاخرهم ، ومتصـــدر منتدياتهم ، والشعراء هم فى الصدارة من المفكرين بيدهم الحكمـــة ، وفصل الخطاب •

وعندما أعلن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ دعوته ، وجهر بها فى ربوع الجزيرة العربية لم يتقبلها العرب طواعية ، وانمـــا قاوموها مقاومة شرسة ، والشعر لم يقف بمعزل من هذه الخصومة ، التى دارت بين المشركين ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوقف الاسلام من هؤلاء الشعراء موقفا تردد كثيرا فى القرآن الكريم مرة يرمى هؤلاء الشعراء بالغى والضلال ، وأخرى ينفى الشعر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وعن القرآن الكريم ، قال تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كل واد يهيمـــون وأنهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » (الآيات من ٢٢٤ ــ ٢٢٧ من سورة الشعراء) •

---

(١) د• شوقى ضيف : فصول فى الشعـــــر ونقده ص ٣٢ ط دار المعارف •

وقال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكـر ، وقرآن مبين » (الآية ٦٩ من سورة يس) .

وقال تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » (الآية ٤١ من سورة الحاقة) .

ولقد حاول العرب فى مقام التعمية على القرآن الكريم ، والحط من قدر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يلصقوا تهمة الشعر بالقرآن الكريم ، وتهمة الشاعر به — صلى الله عليه وسـلم — حتى يستطيعوا التوصل من ذلك الى رميه بالجنون ، كما كان يحـدث منهم عندما يتقدم بشعرائهم الزمن وتختلط الأفكار فى عقولهم ، فيصـابون بالجنون ، فيحبسونهم حتى الموت ، لذا نجد القرآن الـكريم يقـول مضربا عن كلام العرب : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هـو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الآية ٥ من سورة الأنبياء) .

وقال تعالى معلنا وجهة نظرهم ورأيهم فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » (الآية ٣٦ من سورة الصافات) .

لكن القرآن الكريم ينفى عن رسول الله هذه التهم التى حـاول المشركون الصاقها به فيقول : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فانى معكم من المتربصين »(الآيتان ٢٩،٣٠ من سورة الطور) .

يقول أحد الباحثين المعاصرين : « من الجدير بالذكر أن الآيات التى تنفى أن يكون القرآن الكريم قول شاعر لا تتصل بموقف محـدد من

الشعر ، وانما تتصل بقضية أخرى سلف القول فيهـا ، وهى ادعـاء خصومه أنه يصدر عن الجن كما يفسرون صدوره عن شعرائهم ، وليس فى هذا غض لمنزلة الشعر أو حكم عليه ، ولو كان فيه شىء من هـذا أو ذاك ما ذكر عدة من الشعراء الفحول شياطينهم الذين يلهمونهم روائع الشعر فى ادلال وفخر ، ولكن الآيات الكريمه : « والشعراء يتبعهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » تكشف لنـا عن أشياء كثيرة منها: أن الشعر لاحدود لميادينه، يطرق أودية الشر والخير، ويجرى فى كل فن ، والشعراء يهيمون فى كل واد ، ولابد أن نفهم من المعنى العام لهذا ، ومن لفظة ، يهيمون ، عنصر الخيال السائب الـذى لا يقف دونه حائل ، ومنها : أنه يفسد الأخلاق ، ويقود الغاوين ، وأن الشعراء قوم غير عمليين « يقولون مالا يفعلون » وهنا نجد أنفسـنا كرة أخرى بازاء الخصومة القديمة بين الأخلاقى والشاعر ، ولكن هذا لا يفضى بالاسلام الى طرد الشعراء الذين دخل الايمان فى قلـوبهم فالتزموا بمثله ومبادئه وتعاليمه ، وهـذا الالتزام (ان جاز لنا أن نصطنع هذا المصطلح الحديث فى حذر شديد) يخرجهم من الافسـاد والاغواء ، وينأى بهم عن أودية الشر والضلالة ، ويخلق تمـاثلا بين ما يقولون وما يفعلون ،ومن هنا ينسجم « الأخلاقى » فى الشـاعر ، وتنتهى الخصومة بينهما ، بل لعل الشاعر فى هـذا المفهوم الاسـلامى ينقلب الى « أخلاقى » مؤثر قد يفوق « الأخلاقى » غير الشاعر فى أداء الرسالة ، وخدمة الدولة ، وغاياتها المثلى »(١)

---

(١) د. عبد الجبار المطلبى : مواقف فى الأدب والنقد . دار رشيد للنشر . منشورات وزارة الثقافة والاعلام . العراق .

يقول الامام عبد القاهر فى الرد على من ذم الشعر : « أما من زعم أن ذمه له من أجل ما يجد فيه من هزل وسخف ، وكذب وباطل ، فينبغى أن يذم الكلام كله ، وأن يفضل الخرس على النطق ، والعى على البيان »(١)

وبعد أن يسوق عبد القاهر موقف الرسول من الشعر ، وموقف الصحابة منه يرد على من يدعى أن الله — سبحانه وتعالى — كره الشعر لرسوله فى قوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » فيقول : « واذا نحن رجعنا الى ما قدمنا من الأخبار ، وما صح من الآثار وجدنا الأمر على خلاف ما ظن هذا السائل ، ورأينا السبيل فى منع النبى — صلى الله عليه وسلم — الوزن ، وأن ينطق لسانه بالكلام الموزون غير ما ذهبوا اليه ، وذاك أنه لو كان منع تنزيه وكراهة لما كان ينبغى له سماع الكلام موزونا ، وأن ينزه سمعه عنه كما نزه لسانه ، ولكان — صلى الله عليه وسلم — لا يأمر به ، ولا يحث عليه ، وكان الشاعر لا يعان على وزن الكلام وصياغته شعرا ، ولا يؤيد فيه بروح القدس »

« واذا كان كذلك فينبغى أن يعلم أن ليس المنع فى ذلك منع تنزيه وكراهة بل سبيل الوزن فى منعه عليه السلام اياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب ، فى أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت فى الخط ، بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أكعم للجاحد ، وأقمع للمعاند وأرد لطالب الشبهة ، وأمنع من ارتفاع الريبة (٢) » .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦١ تحقيق محمود محمد شاكر .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٦ ، ٢٧ تحقيق محمود محمد شاكر . وقوله « أكعم من كعم البعير اذا شدفاه بالكعام عند هياجه لئلا يعض . أو لمنعه الأكل » .

فالقرآن — اذن — لم يهاجم الشعر ، أو الشعراء جميعا • وانما هاجم شعرا بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذى قال فيه الرســـول الكريم « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلىء شعرا (١) » •

ثم يقول الدكتور شوقى ضيف « وكل ذلك معناه ان الاسلام لم يثبط عن الشعر الا حين وقف معارضا لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه » •

لقـــد اتفقت وجهات نظـــر الباحثين على اختلاف عصـــــورهم واتجاهاتهم على أن الاسلام لم يعارض الشعر من حيث هو شعر ، وكيف يصنع ذلك وهو يعلم أن الشـــعر أرقى ما وصل اليه العرب من فنية القول ، وجمالية التعبير ؟ بل كيف يهاجم الاسلام الشعر من حيث هو ، وهو الذى كان محط حجية القرآن للعرب كى يأتوا بمثله ، لما لهم من فصاحة القول ، وبلاغة التعبير وأحكام البيان ؟ ان الاسلام وقف فى وجه أولئك الشعراء الذين وظفوا شعرهم لمقاومة الدعوة الاســـلامية وتحريض العرب على حربها ، ودفع المشركين كى يناصبوها العداء •

وعلى ذلك جاء قول الدكتور محمد غنيمى هلال • « ان القرآن الكريم لم يعب الشعر من ناحية قوة التصـــوير اذ أن هذه القوة هى مقياس بلاغة الكلام التى بلغ القرآن الكريم فيها قمة الاعجاز ، ولذلك كان كثيرا ما يستشهد شراح هذا الايجاز عـــلى قوة التصوير العـــامة بكلام البلغاء من ناثرين وشعراء كما لا يستطاع انكار قيمة موســـيقى الأداء فى الكلام ، وأنها تعين على قوة هـــذا التصوير فى النثر والنظم

---

(١) د• شوقى ضيف • العصر الاسلامى ص ٤٤ ط دار المعارف •

معا ، وانما الذى ينكره القرآن على الشعر هو الذى ينافى صدق الأداء وهذا متصل بمفهوم الشعر فى عصر الرسول نفسه » (١) ٠

ولقد انطلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تقييمه للشعر من منطلق اسلامى أخلاقى ذلك أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم أن الشعر سلاح ماض يحتاج اليه كل صاحب دعوة ، وهو يعلم أن هــذا السـلاح استمر قرونا مسيطرا على قلوب العرب وأفكارهم ، وأنهم يتأثرون بأنغامه ، وجميل نسـجه ، وأن القرآن أتى ليخـاطب هؤلاء العـرب بقوة بيـانه ، واحـكام بنائه ، فحاجهم بالاتيان بمثله فلم يستطيعوا ، فكان لا بد والأمر كذلك من توجيه ذلك الفن توجيها يخدم الدعوة الاسلامية ، ويدافع عن أعراض المسلمين ، ويقف موقفا مناقضا لذلك أمام ذلك الشعر الذى سخره المشركون لهجاء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد روى عن رسول الله مرفوعا قوله : « اللهم من هجانى فالعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة » (٢) ٠

ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى يقول ذلك عن شعراء المشركين يقول عن الشعر : « الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به فى نواديها وتسل به الضغائن بينها » (١) ٠

وقد سبق الحديث عن تلك القصة التى « أتى فيها حسان بن ثابت

---

(١) د٠ محمد غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر
(٢) أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ ط دار
ونقده ٠ ص ٢٢ ــ ٢٣ ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ٠
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ المصدر السابق ٠ نهضة مصر ٠

الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله : « ان أبا سفيان بن الحارث هجاك وأسعده على ذلك نوفل بن الحارث ، وكفار قريش ، أفتأذن لى أن أهجوهم ؟ قال النبى — صلى الله عليه وسلم — فكيف تصنع بى ؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجينة. قال له : اهجهم وروح القدس معك ، واستعن بأبى بكر فانه علامة قريش بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث (١) :

وان ولاة المجد من آل هاشم
بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أبناء زهرة منهم
صميما ولم يلحق عجائزك المجد
فأنت لئيم نيط فى آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

قال : فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبى — صلى الله عليه وسلم — أنت منى ، وأنا منك ، ولا سبيل الى حسان » (٢) .

وقد اعتذر أبو سفيان بن الحارث عن هجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشعر يقطر رقة ، ويفيض عذوبة أوردناه فيما سبق .

وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحب سماع الشعر ، وقد تقدم جانب من ذلك عند حديثنا عن كعب بن مالك ، وكيف كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقف على بابه ويقول : ايه ياكعب ،

---

(١) وقد أورد صاحب الأغانى وصاحب طبقات فحول الشعراء أن هذا الهجاء موجه الى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .
(٢) جمرة أشعار العرب ص ٣٥ المصدر السابق .

فينشده كعب من شعره فى المشركين ، ولقد روى عن رسول الله مرفوعا عن عبد الله بن مسعود قال : بلغ النبى — صلى الله عليه وسلم — أن قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس ليس أحـد منكم أمن على فى ذات يده ونفسه من أبى بكر ، كلكم قال لى كذبت ، وقال لى أبو بكر صدقت ، فلو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ثم التفت الى حسان ، فقال : هات ما قلت فى وفى أبى بكر ، فقال حسان : قلت يا رسول الله :

اذا تذكرت شـجوا من أخى ثقـة
فاذكـر آخاك أبا بكـر بمـا فعـلا
التـالى الثـانى المحمـود شـيمته
وأول الناس طرا صـدق الرسـلا
والثـانى اثنين فى الغار المنيف وقد
طاف العـدو به اذ صـعد الجبـلا
وكان حب رسـول الله قـد علموا
من البـرية لم يعـدل به رجـلا
خـير البـرية أنقـاها وأرأفهـا
بعـد النبى ، وأوفاها بعا حمـلا

فقـال — صلى الله عليه وسلم — صـدقت يا حسان « دعوا لى صـاحبى — قالها ثلاثا » (١) بل قيل أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان له خبرة بالشعر وعلم به ، فقد روى أن سودة أنشدت :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥ ، ٣٦ المصدر السابق .

فظنت عائشة وحفصة — رضى الله عنهما أنها عرضت بهما ، وجرى بينهن كلام فى هـذا المعنى ، فأخبر النبى — صـلى الله عليه وسلم — فدخل عليهن ، وقال : « يا ويلكن ليس فى عديكن ولا تيمكن قيل هـذا وانما قيل هذا فى عدى تميم ، وتيم تميم » (١) وتمام هذا الشعر وهو لقيس بن معدان الكلبى ، من بنى يربوع •

فخـالف ، ولا والله تهبط تلعـة
من الأرض الا أنت للـذل عـارف
ألا من رأى العبـدين أو ذكرا له ؟
عدى وتيم تبتغى من تحـالف (١)

وأخبار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع الشعر كثيرة، ومواقفه مع الشعراء متعددة فقد روى » أن كعبا وأخاه بجيرا خرجا الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى بلغا أبرق العزاف،فقال كعب لبجير : ألق هذا الرجل ، وأنا مقيم ههنا فانظر مما يقول وقدم بجير على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعرض عليه الاسلام فأسلم ، وبلغ ذلك كعبا ، فقال فى ذلك شعرا ، فأهدر النبى — صلى الله عليه وسلم — دمه ، فكتب اليه بجير يأمره أن يسـلم ، ويقبل الى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويقول : ان من شهد أن لا اله الا الله ، وأن محمـدا رسول الله قبـل منه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وأسـقط ما كان قبل ذلك قال : فقدم كعب ، وأنشد النبى — صلى الله عليه وسلم — قصيدته المعروفة •

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٠ المصدر السابق ٠
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠ المصدر السابق ٠

بانت سـعاد فقلبى اليـوم متبول
متيم اثرهـا لم يفـد مكبـول
وما سـعاد غـداة البين اذ رحلت
الا أغن غضيض الطـرف مكحـول
تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت
كأنـه منهـل بالراح معلـول
سـح السقاة عليهـا مـاء محنية
من ماء أبطح أضحى وهو مشـمول
ويلمهـا خلة لو أنهـا صـدقت
موعودها أو لو أن النصـح مقبول

حتى أتى على آخـرها ، فلمـا بلغ مدح رسول لله ـ صـلى الله عليه وسلم .

ان الرسـول لنـور يسـتضاء به
مهنـد من سـيوف الله مسـلول
فى فتيـة من قريش قال قائلهـم
ببطن مكـة لمـا أسـلموا زولوا
زالوا فمـا زال أنكاس ولا كشـف
عنـد اللقـاء ولا ميل معـازيل
لا يقـع الطعن الا فى نحـورهم
وما لهم عن حيـاض الموت تهليـل
شم العرانين أبطال لبوسهم
من نسـج داود فى الهيجا سرابيل

أشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الحلق أن اسمعوا ،

قال وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يكون من أصحابه مكان المـائدة من القوم يتحلفقن حلقة دون حلقة ، ويلتفت الى هؤلاء والى هؤلاء » (١) .

وقد أورد ابن قتيبة هذه القصة مع اختلاف فى روايتها ، وزاد فى آخرها قوله « فكساه النبى — صلى الله عليه وسلم — بردة اشـتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم ، وهى التى يلبسها الخلفـاء فى العيدين — زعم ذلك أبان بن عثمان بن لقمان » (٢) .

ولعل أغرب ما قيل فى تقدير الرسول — صلى الله عليه وسلم — للشعر والشعراء ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما أمـر بقتل النضر بن الحارث بلغه أن أخت النضر وقيل انها ابنته قالت :

يا راكبـا ان الأثيـل مظنـة
ما ان تـزال بهـا النجـائب تخفق
منى اليـك وعبـرة مسـفوحة
جـاءت بواكفهـا وأخـرى تخنـق
هل يسـمعنى النضر ان ناديتـه
أم كيف يسـمع ميت لا ينطـق
أمحمـد يا خـير ضنء كريمـة
فى قومهـا والفحـل فحـل معـرق

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٢ ، ٢٣ المصدر السابق .
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٦ المصدر السابق .

ما كـان ضرك لـو مننت وربمـا
من الفتى وهـو المغيظ المحنـق
أو كنت قـابل فـدية فلينفقن
بأعـز ما يغلو بـه ما ينفق
فالنصر أقـرب من أسرت قرابـة
وأحقهـم ان كـان عتق يعتق
ظلت سـيوف بنى أبيه تنوشـه
لله أرحـام هنـاك تشـقق
صـبرا يقـاد الى المنية متعبـا
رسـف المقيـد وهـو عان موثق

يقول ابن هشام : « فيقال والله أعلم : ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لمـا سمع هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليـه » (١) .

أما صحابة رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — وموقفهم من الشعر فحدث عنه ولا حرج ، ذلك أنهم كانوا يقولون الشعر ويروونه ، وقـد رويت أشعار كثيرة لسيدنا على بن أبى طالب — رضى الله عنه — كمـا أن سيدنا أبا بكر — رضى الله عنه — كان يروى الشـعر ، وكان عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — من أكثر الصحابة رواية للشعر ، وفهما له ، وقد كان يستعين برواية الشعر فى تفسير القرآن الكريم ، ولقد علم ذلك عنه سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال له يوما : « أنشدنى لأشعر شعرائكم . قلت . ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٢ ، ٤٣ المصدر السابق .

قال : زهير ، قلت : وكان كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه » (١) .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — [لابنه عبد الرحمن] يا بنى صل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فانه «من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا، ولم يغترف أدبا » (٢) .

واذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — قد اعترف لزهير ابن أبى سلمى بأنه أشعر الشعراء فانه فى رواية عنه — أيضا — كان يفضل النابغة ، ولكن تفضيله للنابغة كان تفضيلا اقليميا ، أما تفضيله لزهير فكان تفضيلا قوميا ، فقد خرج سيدنا عمر مرة ، وببابه وفد غطفان فقال : أى شعرائكم الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى
على خوف تظن بى الظنونا
فألفيت الامانة لم تخنها
كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة ، قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦٣ المصدر السابق .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٤١ المصدر السابق .

قالوا : النابغة ، قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

فانـــك كالليـــل الذى هـــو مدركى
وان خلت ان المنتأى عنك واســـع

« ويروى .. وازع قالوا : النابغة قال : هذا أشعر شعرائكم » (١)

لكن المتتبع لنقـــدات ســـيدنا عمر يراها مبنية على منظـــور ذوقى أخلاقى ، فقد فضل زهيرا لأنه لا يعاظل بين الكلام ، ولايتتبعوحشيه، ولا يمـــدح الرجل الا بمـــا فيه . وهى شروط تجعل الشـــاعر لا يعقد شعره ، بل يرسله سهلا واضحا ، ولا يأتى بألفاظ معجمية بل عليه أن يتخير الألفاظ الواضحة المفهومة ، وأن يكون مدحه للناس ملتزما فيـــه جانب الصدق ، فلا يأتى بأوصاف ليست موجودة فى الممدوح ، ليكتسب وده ورفده ، واذا كان النابغة قد سلك طريقا للمدح ليست كالطـــريق التى سلكها زهير الا أن الأبيات التى أتى بها سيدنا عمر تعطينا تصورا لتفضيله فقول النابغة :

فـــألفيت الأمانة لم تخنهـــــا
كذلك كان نـــوح لا يخـــون

فهو نقد ذوقى أخلاقى وهكذا كل النماذج التى أتى بها تعطينـــا دليـــلا على منهجه النقدى .

أثر الاسلام فى الشعر :

أن هناك تساؤلات يمكن أن تثار حيال هذا الموقف من سيدنا عمر

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ المصدر السابق .

ابن الخطاب وغيره من نقـاد المسلمين الذين بنوا نقـدهم على الذوق الأخلاقى ، فهل فرض الاسلام على الشعراء منهجا معينا فى معالجـة القضايا ؟ وهل سار الشعراء جميعا على ذلك المنهج ؟ وعلى أى أساس بنى الاسلام منهجه ؟ .

لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والشعر — كما أسلفت — ديوان العرب الذى ليس لهم ديوان شـعر غيره ، فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » (١) فوجد العرب فى كتاب الله اعجازا لا يمـكن للشـعر أن يتسامى اليه ، وعلى الرغم من أن القرآن والشعر كليهمـا بلسان عربى الا أنهما لا يخرجان من مشكاة واحدة ، فقد جاء القرآن « بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى » (٢) ه « ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمـع بين شـتاتها حتى تنتظم ، وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم » (٣) .

فمن يقرأ قول الله تعالى .. الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشـكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنهـا كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهـدى الله لنوره من يشـاء ، ويضرب الله الامثال للناس ، والله بكل شىء عليم » (الآية ٣٥ من سورة النور) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٤ .
(٢) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٢٧ تحقيق محمد خلف الله د.م محمد زغلول سلام ط دار المعارف .
(٣) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٢٨ تحقيق محمد خلف الله د. محمد زغلول سلام ط دار المعارف .

وقوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (الآية ٢٤ من سورة يونس) .

ثم اقرأ قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (الآيات من ١٢ — ١٤ من سورة المؤمنون) .

انك لو قرأت هذه الآيات ، وتدبرت معانيها ، وتفهمت أسرارها ، ولو كنت ممن أوتى ملكة مبدعة ، وعقلية خلاقة ، وفكرا خصبا — كما كان يتحلى بذلك الشعراء أو العرب عموما على عهد نزول القرآن — لألقيت قلمك ، وأخذت تعيد قراءة هذه الآيات مرة ومرات ، ولن تمل ذلك ، حتى تهتف من أعماقك قائلا مع القرآن الكريم « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

كان لا بد للشعراء الذين تحكموا فى ناصية البيان ، وأوتوا ملكة شفافة تثبر غور الأحداث ، وتتخذ من اللغة معازف تمتلك بها عواطف الناس وأحاسيسهم ، وتتحكم بها فى قلوبهم وأرواحهم — كان لا بد لهم والأمر كذلك من الوقوف خاشعين ، وانحناء الرؤوس ساجدين أمام عظمة المبدع الحكيم .

ولم يكن جمال النسج فقط هو الذى بهر هؤلاء الشـــعراء ، وملأ عليهم جوانحهم ، وانما كانت هناك جوانب أخرى أثرت فى هؤلاء القوم، فالقرآن الكريم خاطب قلوب العرب وعقولهم فى فنية صادقة ، وواقعية مبدعة ، ولم يكن بعيدا عن قضاياهم التى تهمهم جميعا ، أو مشكلاتهم اليومية التى تطرأ على كبيرهم وصغيرهم — عظيمهم وحقيرهم رجالهم ونسائهم ، بل ان القرآن الكريم ساق لهم أخبار المـــاضين فى قصص رائده ، ومناقشـــة لمـــا كانوا يعتقدون ، وبيـــان لمحاسنهم ومثالبهم ، صور لهم المـــاضى كأنه واقع بين أيديهم ، فقرب لهم القصى ، وذلل المعصى •

كان لابد لهؤلاء والأمر كذلك من أن ينظروا الى منهج القـــرآن الكريم ، ان أرادوا قولا ، أو يســـــلكوا منهجا قريبـــا منه ان أرادوا لمستمعيهم أن يرهفوا لهم الآذان وأن يكونوا صادقين مع أنفسهم ان هم حاولوا معالجة القضايا التى تهم مجتمعهم وبيئتهم ، ويمكن لنا ان نستعير موازين النقد الأدبى الحديث ، لنقرر أنه لابد لهؤلاء من واقعية الأداء وصدق التعبير ، فتحرى الصدق فى القول ، والوقعية التى لاتجعل الشاعر يهوم فى خيالات مجنحة لا تمت الى مجتمعه بصلة كل ذلك كان على شعراء عصر صدر الاسلام أن يســـلكوه ، وقد صنعوا ذلك فعلا ، لأنهم تأثروا بمنهج القرآن الكريم ، حتى وجدنا حسان بن ثابت يقول :

وان أشـــعر بيت أنت قائله
بيت يقال اذا أنشدته صـــدقا
وانما الشـــعر لب المرء يعرضه
على المجالس ان صدقا وان كذبا(١)

---

(١) العمدة ج ١ ص ١١٤ المصدر السابق •

يسوق الدكتــور محمد غنيمى هلال البيتين السابقين ثم يقول :
« ولكن أكثر الشــعراء والنقاد القدامى ســاروا على غير هــذا النهج ففصلوا بين الشعر والصدق ، دون أن يفصلوا القول فى معنى الصدق ، فلم يفرقوا بين صــدق الأداء والنفس ، والصدق الواقعى وصـــدق التصــوير ، أى الصدق الفنى ، ورأى جمهورهم أن الشاعر لا يطالب بصدق ، ولا هدف ، ولا بشىء مما يفرضه الدين ، وأن الدين بمعزل عن الشعر « وهذا انكار لقيمة الصدق فى الشعر بمعنى الصدق الخلقى على أوسع نطاق » .

« ثم أعفوا الشاعر من الصدق الواقعى ، فمناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين ، أو كلمتين بان يصف شيئا وصفا حسنا ، ثم يذمه بعد ذلك ذما بينا غير منكر عليه ولا معيب منه فعله » وحسبه المهارة فى الصياغة، ولو أدى ذلك الى تزييف الحقــائق ، والذى يراد من الشــاعر ــ فى نظــرهم ــ هو زخرف القول « وان زخر شــعره بقول الزور ، وقذف المحصنات ، فليس فحش المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر ، كما لا يعيب النجار رداءة الخشب فى ذاته : « وكم من جواد بخله الشعر ، وبخيل سخاه ، وشجاع وسمه بالجبن ، وجبان ساوى الليث ، وغبى قضى له بالفهم ، وطائش أدى له طبيعة الحكم » .

ولم يعد ذلك نقصا فى الشعر لدى هؤلاء النقاد ، وهم يعلمون أن الشعراء يفعلون ذلك اتباعا لأهوائهم ، أو طلبا للكسب بشعرهم من ذوى النفوذ والجاه ، وقد تنبه الى خطر ذلك بعض النقاد فقسم الشعر الى ما هو خير كله والى ما هو ظرف كله ، ثم الى ما هو شر كله ، وذلك هو الهجاء ، وما تسرع به الشاعر الى أعراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل الى كل سوق ما ينفق فيه » (١) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده ص ٢٥ المرجع السابق..

ثم يقول الدكتور محمد غنيمى هلال : بعد ان ذكر كلام الأصمعى « الشعر نكد بابه الشر •• وبعد ذكره أن كثيرا من الشعراء ترفعوا عن قول الشعر بعد أن أسلموا ، وضرب مثلا بلبيد بن ربيعة وموقفه مع سيدنا عمر بن الخطاب — : « على أن فى الآية الكريمة التى أوردناها فى صدر هذا المقال ما يدل على أن الشعر من حيث هو لا يتنافى مع قضايا الخلق والدين ، ولكنه يتنافى معه من ناحية مفهومه الذى كان سائدا حين ذلك حين لم يكن الشعراء يحفلون بالصدق فى صورة من صوره » •

« وذلك ان الشعراء الذين يحفلون بالصدق كانوا قلة ، وكان الشعر فى حاجة الى استقامة مفهومه بصلاحه ، وصلاح أهله ، وذلك عن طريق الصدق بحيث لا يعبر الشاعر عمالا يعتقد ، ولا يسوقه متجرا يتكسب به فيمتهنه ، ويمتهن به نفسه ، ولو أن النقاد القدامى وجهوا جهودهم الى اقامة معنى الشعر بتقويمه على أساس صدقه ، كما تنبه الآية الكريمة اليه ، وكما اهتدى الى ذلك النقاد المحدثون فى فرضهم صدق الأداء النفسى والفنى لبلغ الشعر — منذ القدم منزلة أرقى مما وصل اليها ، ولكان قد ارتقى الى مرتبة عالمية » (١) •

وهؤلاء النقاد الذين طرحوا هذه القضايا قد فاتهم أن الشعراء أنفسهم بعد نزول القرآن الكريم حاولوا تتبعه والسير على مبادئه وأهدافه ، ثم دافعوا عن القضايا التى أتى بها الاسلام ، وآمنوا بها كغيرهم من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونحن بحاجة الى أن نفرق بين شعراء العصر الجاهلى والشعراء المخضرمين (٢)

---

(١) د• محمد غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده ص ٢٦ المرجع السابق •

(٢) يقال : ماء مخضرم اذ تناهى فى الكثرة والسعة فمنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والاسلام مخضرما كأنه استوفى الأمرين قال : ويقال اذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام •

الذين أسلموا وحين اسلامهم ، بل ان هؤلاو أنفسهم قد انقسموا فريقين : فريقا كان قد تمثل الاسلام ، وتعمق أسراره ، وفريقا أخذ من الاسلام ظاهره ، فنزعه عرقه الى الماضى فتمسك بأهدابه .

أما المقولة المنسوبة الى الأصمعى ، والتى تصف الشعر فى عصر صدر الاسلام باللين والضعف ، وتتخذ من حسان بن ثابت دليلا على ذلك فهى مقولة غير مسلمة بل لعلها متقولة عليه ، لأن الذى يقرأ المفضليات والأصمعيات ـ كما يقول الدكتور شوقى ضيف : سيجد المفضل الضبي والأصمعى يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة .

ومعنى هذا أن الأصمعي الذى ذكر كثيرا من شعر الشعراء فى صدر الاسلام لا يمكنه أن يقول هذا الكلام ، ان من : « يرجع الى هذه المصادر يستقر فى نفسه ان الشعر ظل مزدهرا فى صدر الاسلام ، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون ، وتابعه فيه بعض المعاصرين اذ يقول فى مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثاب عليه ـ فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه » وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين ، لأنهم لم يشغلوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية انما دخل فى الاسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة ، واذن فانصرافهم عن الشعر ـ ان صح ـ انما كان لمدة عامين أى الى أن انتقل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الرفيق الأعلى ، وهو نفسه ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من

أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ، ويردون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحتى فى العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يقدم ومعه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمثلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم ، وينشد شعراؤهم ، ويرد عليهم خطباء الرسول — صلى الله عليه وسلم وشعراؤه » (١) .

حقيقة أن من يقرأ شـــعر حســـان بن ثابت فى الجاهلية ، والذى استحوذ على الشطر الأول من حياته ومدحه لملوك الغساسنة يرى أنه تغير منهجه عن شعره فى صدر الاسلام ، ذلك أن شعره فى الجاهلية كان مدحا لأولئك الذين يجد عندهم رفدا ، وقد كان أثيرا لديهم فقال فيهم بدائع مدحه كقوله :

لله در عصـــــابة نادمتهـــم
يوما بجلق فى الزمـــان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشـــون حتى مـــا تهر كلابهم
لا يســـألون عن السواد المقبل
أولاد جفنة عنـــد قبر أبيهـــم
قبر ابن مارية الكريم المفضل (٢)

---

(١) د. شوقى ضيف . العصر الاسلامى ص ٤٣ وما بعدها .
(٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢١٨ المصدر السابق .

أما شعره فى الاسلام فقد وقفه على الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، ورسـولها ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولقـد قال فى ذلك روائع ذائعة الذكر ، ولم يقل أحد انها ضعيفة أو لينة كشعره فى غزوة بدر ، وشعره فى فتح مكة ، ونقائضه الكثيرة التى رد بها على شعراء المشركين ، ونظرة فى اسلاميات حسان تجعلنا نتيه عجبا بشعره ؟ حتى انه كان يمثل قلقا للمشركين ، وكان لسانه أشد عليهم من وقع النبل .

ولقد أوردت فى الباب الثانى من هذا البحث قطاعا من شعر كعب ابن مالك ودفاعه عن الدعوة الاسلامية ــ وصواعقه التى كان ينزلها على رؤوس المشركين ، ومن يقرأ شعره فى هذه الفترة يتبين منه أن الاسلام لم يغير من منهج الشعراء ، ولكنه أضاف اليهم معانى جديدة اكتسبوها من تلك المبادىء التى عمت المجتمع الاسلامى ، فالاخاء والمحبة،ورعاية حقوق الانسان ، الى آخر هذه المبادىء السابقة التى أعلنها رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعمقت فى قلوب المؤمنين به .

لكن هؤلاء الشعراء قد أعجبهم نسق القرآن المتفرد فى ألفـاظه وعباراته وأثر فيهم ذلك المنهج الذى اقترب به من عقول العرب وقلوبهم فحاول الشعراء الاقتداء به فى سوق بعض المبـادىء والأفكـار التى عالجهـا القـرآن ، ثم انهم حـاولوا ــ أيضا ــ اقتباس بعض ألفاظ القرآن الكريم وعباراته ، وهى ألفاظ سهلة واضحة ، وعبـارات ترق أحيانا فتصل الى شغاف القلوب ، وترتفع أحيانا فتكون كالصواعق .

واذا كنـا قد رأينـا ذلك المنهج عند حسان وكعب وأضرابهما ممن تأثروا بالاسـلام ، وتفهموا تعاليمه وأحكامه فان بعض الشعراء ممن أسلم بلسانه فقط ولم يدخل الايمان قلبه قد بقى على جاهليته الفكرية ، فلم نر أثرا للقرآن فى شعره .

ولعلنا نستطيع أن نتبين هذه الملامح فى شعر الحطيئة (١) ، فاذا تصفحت ديوانه فلا تكاد تجد فيه تأثرا بمبادىء الاسلام ، لأنه صرف شعره للهجاء ، ولم يتورع أن يهجو من أحسن اليه ان هو رأى عند غيره ظلا وارفا وماء نميرا ، فقد أكرمه الزبرقان بن بدر ولكنه عندما وجد عند بغيض بن عامر بن شماس — وهم من قبيلة أنف الناقة الذين كانوا ينازعون الزبرقان الشرف — رفدا وخيرا مدحه ، وهجا الزبرقان بن بدر فقال فى أنف الناقة •

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وقال فى الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

---

(١) الحطيئة لقب لقب به ، واسمه جرول بن أوس بن مالك ، وهو من فحول الشعراء ومتقدمهم وفصحائهم متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب • مجيد فى ذلك أجمع ، وكان ذا شر وسفه ونسبه متدافع بين القبائل ، وكان ينتمى الى كل واحدة منها اذا غضب على الآخرين ، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، فأسلم ثم ارتد وقال فى ذلك •

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا — فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده — وتلك لعمرو الله قاصمة الظهر

« وكان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رث الهيئة ، مغموز النسب • فاسد الأخلاق »

والحطيئة يقــدم فى القصيدة التى ورد فيها هذا البيت المتقــدم دليل خبثه وعدم وفائه وشرهه فيحتج على تفضيله بغيض بن عامر على الزبرقان بن بدر بقوله :

من يفعل الخــير لا يعــدم جوازيه
لا يذهب العــرف بين الله والنــاس

فلو أن الحطيئة آمن بقــوله هذا لمــا أقدم على ما أقدم عليه ، ولكنه الشعر ، أوقل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون •

ولقد وقفت طويلا عند ثلاثة أبيات له أوردها صاحب الأغانى ، وجاءت فى ديوانه وهى قوله :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقى هــو الســـعيد

=

وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب الا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره » •

« والقارىء لأخبار الحطيئة في الأغاني وفي الشعر والشعراء ، وفي طبقات فحول الشعراء يقف على أمور غريبة ، وأخلاق عجيبة ، وقد اشترى منه سيدنا عمر بن الخطاب أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وقال لــه لو عدت الى الهجاء لقطعت لسانك ، فلم يعد الى ذلك في حياة سيدنا عمر ، ولكنه عاد سيرته الأولى بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى » •

انظــر الأغاني ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب •

وانظر طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٢ ــ ١٢١ تحقيق محمود محمد شاكر ، وانظر الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٢٢ وما بعدها ط دار المعارف •

وتقـــوى الله خير الزاد ذخــرا
وعنـــــــــد الله للأتقـــى مزيــــــد
وما لا بـــد أن يـــأتى قـــريب
ولـــكن الـــذى يمضى بعيـــد (١)

فهل كان الحطيئة عندما قال هذه الأبيات صادقا مع نفسه ؟ وهل تقوم هذه الأبيات دليلا على تغير منهجه الهجائى ، ولجـــوئه الى الله ؟ ان الروايات كلها تؤكد ان الحطيئة لم يغير من منهجه حتى عندما حضرته الوفاة ، وعلى ذلك فانه يمكننـــا القـــول ان نوازع الخير موجـــودة فى الانســـان ، وقد يعود الانسان ساعة الى فطرته ولكن الذى كتب عليه الشقاء ما يلبث أن تجره نوازع الشر الى طبيعته المتدنية فيسفل ويأبى أن يسمو بها الى مراقى الايمان •

لكن مبادىء الاسلام قد اقتحمت على الجميع عقولهم ، وجعلتهم — طائعين أو مكرهين — يتأثرون بها وها هى ذى بعض أبيات من شعر الحطيئة يتضح فيها ذلك التأثر يقول :

وطاوى ثلاث عاصـــب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما (٢)
أخى جفوة فيه من الانس وحشـــة
يرى البؤس فيها من شراسته نعما (٣)

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٨٠ — ١٩٠ لمصدر السابق •
(٢) الطاوى : الخميص البطن — ثلاث : أى ثلاث ليال • مرمل محتاج
(٣) الجفوة : غلظ الطبع • البؤس : لشدة • النعمى • انخفـــاض العيش •

تفـــرد فى شعب عجــوزا ازاءها
ثلاثة أشـــخاص تخالهم بهما (١)
حفـاة عـراة ما اغتـــدوا خيزملة
ولا عرفــوا للبر مذخلقوا طعما (٢)
رأى شـبحا وسـط الظلام فراعه
فلمـا رأى ضيفا تصور واهتما (٣)
تـروى قليـــلا ثم أحجم برهـة
وان هو لم يذبح فتـاه فقدهما (٤)
وقـال ابنـه لمـا رآه بحــــيرة
أيا أبت اذبحنى ويسر لـه طعمـا
ولا تعتــــذر بالعدم على الذى طرا
يظن لنــا ما لا فيوســـعنا ذما
فقـال هيا رباه ضـيف ولا قــرى
بحقـك لا تحرمه تا الليلة اللحما (٥)
فبيناهم عنت على البعـد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما (٦)

---

(١) تفرد : اعتزل : الشعب · الطريق فى الجبـل · البهم · أولاد الضأن والمعز شبههم بها لهزالهم ·

(٢) الملة · بفتح الميم : الرماد الحار · البر : القمح ·

(٣) الشبح : الشخص ·

(٤) روى فى الأمر فكر فيه بشأن · أحجم : تأخر · البرهة · الوقت

(٥) قرى : طعام يقدم للضيف ·

(٦) عنت : ظهرت · عانة : قطيع من بقر الوحش · المسحل · الحمار الوحشى ·

ظماء تريد المـــاء فانساب نحـــوها
ألا انه منها الى دمها أظمـــأ (١)
فأمهلهـــا حتى تروت عطاشـــها
فأرسل فيها من كنانته سـهما (٢)
فخرت نحـوص ذات جحش فتيــة
قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما (٣)
فيا بشره اذ جـرها نحـــو أهله
ويا بشرهم لمـا رأوا كلمهـا يدمى (٤)
وبات أبوهم من بشاشـــته أبا
لضـــيفهم والأم من بشرها أما
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرما وقد غنمـوا غنما (٥)

لقد جاءت القصيدة تحمل الينا قصة كرم حدثت لأسرة هجـرت الناس ، وكرهت التعامل معهم ، فانحازت الى بعض الشعاب البعيدة تتخذ لها فيها مقرا ومهربا ، وقد تجد فى الوحوش أخلاقا لا تجـــدها عند كثير من الناس ، ولكن الفقر لازمهم والجوع أخذ منهم مأخـذه ، وليت الأمر وقف عند ذلك بل انهم فوجئوا بضيف يقطع عليهم وحدتهم

---

(١) انساب : خرج من مكمنه ٠
(٢) أمهلها : استأنى عليها ٠ الكنانة : حقيبة السهام تتخذ من الجلد
(٣) خرت : سقطت ٠ النحوص : الأتان الوحشية ٠ الجحش ولدها فتية ٠ غير مسنة ، اكتنزت ، كثر لحمها ٠ طبقت شحما : امتلأت شحما ٠
(٤) يابشره : أراد به التعجب ٠ الكلم الجرح ٠ يدمى : يسيل ٠
(٤) الغرم ما يلزم دفعه ٠ ويسمى الدين ٠ غرما ٠ الغنم اسم لما يغنم والقصيدة فى ديوان الحطيئة من ص ١١٥ ــ ١١٧ مطبعة التقدم صححه أحمد بن الأمين الشنقيطى ٠

ويقتحم عليهم خلوتهم ، فماذا يصنع رب هذه الأسرة وليس عنده زاد يقدم لضيف ، لقد هم أن يذبح ولده ليقدمه طعـــاما للضيف ، بل ان الولد يدفع أباه الى ذلك ، حتى لا يظن الضيف بهم الظنون انه لا يعرف حقيقة أمرهم .

ولكن رب الأسرة الذى هم بذبح ولده يخرج للصيد ــ عله يجد صيدا ــ وتحدث المعجزة ويقبل قطيع من الأبقار الوحشية تريد الماء ، فيمهلها حتى تروى ظمأها ، ثم يرسل سهما من كنانته ، ليصيب بقرة من تلك الأبقار التى ملئت لحما وطبقت شحما فيجـــرها نحـــو أهله وينظرون اليها ليروا الدماء تسيل منها فيسعد الجميع بذلك ، لقـــد قاموا بواجب الضيافة دون أن يغرموا شيئا ، بل انهم قد غنموا لحما يمكن أن يسد جوعتهم أياما .

لعلنا نستطيع أن نتبين بعض الملامح الاسلامية من خلال هـــذه القصة فقصص القرآن أوحى للحطيئة بأن يتخذ من قصـــة ســـيدنا ابراهيم واسماعيل مجالا لهذا الشعر ، فقد فكر الرجل فى ذبح ولده واذا كان ابراهيم صنع ذلك بأمر من الله ، فان هذا الرجل قـــد صـــنع ذلك قضاء لواجب الضيافة عليهم واذا كان اسماعيل قد استجاب لأمر الله ، وقبل الذبح رضا لله ولأبيه فان هذا الولد قد قبل ذلك أيضـــا ايمانا منه بما يجب عليهم نحو ضيفهم ، واذا كان الله سبحانه وتعالى قد تجلى على سيدنا ابراهيم واسماعيل بالفداء فان الله قد تجلى على هذه الأسرة بهذا القطيع الذى اصطاد الرجل منه بقرة أصابها بجرح نافذ ، فصادف منها منحرا .

كل ذلك يجعلنا نقرر أن الاسلام وما جاء به القرآن من قصص وما اشتمل من نسق أثر كل ذلك فى أسلوب هؤلاء الشعراء فجاء نتاجهم

قويا وشعرهم راقيا ، بل ان الاسلام أوحى الى الشعراء بأغـراض جديدة لم تكن مألوفة فى العصر الجاهلى • فقد كان الاسـلام هـو الدافع لنشوء لون جديد من الغزل وهو الغزل العذرى « الذى يتحدث عن الحب العفيف ، وعما يلاقيه المحب من عذاب وما يعانيه من تباريح فى تحرز من الاستهتار ، وبعد عن الخلاعة ، وروح الاستمتاع مع طابع دينى واضح فكان عماد هذا الغزل العفيف أمران : صدق العـاطفة ، وصدق العقيدة ، وكانت البيئة العربية ممهدة لوجود هذا النوع مـن الغزل بما ساعدت على استقرار روح المساواة بين الرجـل والمرأة ، وعلى الاعتداد بالعاطفة ، وانما وجد هذا الغزل فى البـادية فى العصر الأمـوى » •

« وكان الاسلام أقوى العوامل فى ظهور هذا النوع من الغـزل اذ خلق ادراكا جديدا للعاطفة فيما دعا اليه من جهاد النفس ، ومقاومة الهوى ، وفيما هيأ لروح الزهد بتهوينه من شأن الدنيا ، وتهويله لعذاب الآخرة ، وكانت مقاومة النفس للهوى أكبر ظاهرة تجلى فيهـا زهـد هؤلاء الغزلين فى المتاع الحسى ، حتى كان بعضهم من الزهاد الأتقياء، فهذا عبد الرحمن بن أبى عمار الشهير بالقس — وكان من أعبـد أهل مكة — قد هام بسلامة المغنية • قالت له يوما : أنا أحبك ، فقـال : وأنا والله أحبك • قالت : وما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال • قال : انى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عـدو الا المتقين » وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينـك تئـول الى عـداوة » (١) •

وبعد فهذه لمحات قدمتها فى معرض الحديث عن شـعر كعب بن مالك الأنصارى حتى يمكن للقارىء أن يقف على تصور الاسـلام

---

(١) د• محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص٢٠٠ ط الشعب

للشعر ، ومدى أثر هذا الفن فى سير الدعوة الاسلامية ، فكعب بن مالك الأنصارى واحد من أولئك الذين وقفوا نتاجهم على نصرة الاسلام ، والدفاع عن رسوله — صلى الله عليه وسلم — ، والرد على شعراء المشركين الذين كانوا معاول هدم تقض مضجع الرسول — صلى الله عليه وسلم — والذين آمنوا معه ، لقد كان له أثر فى ذلك، فقد جعل الرعب يدب فى صفوف الأعداء ، بل ان هناك بعض الناس أسرعوا باعتناق الاسلام خوفا وفزعا مما قاله كعب .

ان الشعر له سلطانه الذى تدين له العواطف ، وتخضع له القلوب والأحاسيس وله فعاليته التى تأخذ من الانسان كل مأخذ ، ولهذا فان الدين الاسلامى لم يقف فى وجهه ، بل وظفه لصالح الدعوة الاسلامية ، ولقد تقدم قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — لحسان « اهجهم أوهاجهم وروح القدس معك » وقال لكعب بن مالك الأنصارى « ما كان ربك نسيا بينا قلته ، وفى رواية أخرى » لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا ، والرسول يعنى بذلك قول كعب :

زعمت سخينة أن تغالب ربها   فليغلبن مغالب الغلاب

الفصل الثانى

كعب ومنهجه الشعرى

من القضايا التى أثارها النقاد المحدثون قضية «التجربةالشعرية» التى يعنون بها ذلك الأمر الذى يسيطر على أحاسيس الشاعر ، ويمتلك عليه جوانبه ويستمر يعاوده ليله ونهاره ، صبيحه ومساءه ، حتى يأخذ عليه جميع جوانبه ، فاذا به يجد نفسه مندفعا نحو أبراز هـــذا الأمر كائنا حيا ينبض بالحركة ، ويفعم بالحيوية •

أو هى « الصورة الكاملة النفسية ، أو الكونية التى يصـــورها الشاعر ، حتى يفكر فى أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شـــعوره واحساسه ، وفيها يرجع الشاعر الى اقتناع ذاتى ، واخـــلاص فنى لا الى مجرد مهارته فى صياغة القول : ليعبث بالحقـــائق أو يجارى شعور الآخرين ، لينال رضاهم ، بل انه ليغذى شاعريته بجميع الأفكار النبيلة ، ودواعى الايثار التى تنبعث عن الدوافع المقدسة ، وأصـــول المروءة النبيلة وتشف عن جمال الطبيعة والنفس •

والشاعر الحق هو الذى تتضـــح فى نفسه تجربته ، ويقف على أجزائها بفكره ، ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر فى الكتابة ، والتجـــربة الشعرية يستغرق فيها الشاعر : لينقلها الينا فى أدق ما يحيط بهـــا من أحداث العالم الخارجى ، فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التىتتمثل فى النفس ، أو فى الفرد ازاء الأحداث التى تحيط به ، بل أن التجربة لتنبض بحياة تفتح عيوننا على حقائق قد لا تبين عنها حقائق الحياة، أو حالات النفس •

والشاعر يعبر عن تجربته عما فى نفسه من صراع داخلى سـواء أكانت تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو ، أم عن موقف انسانى عام تمثله ، ولذا كان فى طبيعة التجربة ، والتعبير عنها ما يحمل الجهود على تتبعها ، لأنه يتوقع أن يرى فيها ما يتجاوب وطبيعة التجربة التى جعلها الشاعر موضع خواطره ليجلو صورتها » (١) .

هذه هى وجهة نظر النقاد المحدثين ، أو هى الضوابط التى وضعها النقد الحديث ، لتكون منهجا يختطه الشاعر أو الأديب عنـدما يعرض لعمل أدبى ، فلا بد أن يتمثل عمله ، ولا بد أن يكون ذلك العمل صورة لما يعتمل فى خاطره ، وما يؤدى به رسالة نحو فنه ، أما النقد القديم فقد وضع معايير لصحة العمل الأدبى ، وأما ما اصطلح عليـه النقـاد المحدثون ، وضمنوه شروطهم فى صحة العمل الأدبى ، وسـلامة بنيانه ، فقد وضع النقد القديم شروطا أيضـا جاءت تحت عنـوان (عمود الشعر) : (الذى قام على ركيزتين هامتين : هما : ركيـزة مجاراة الصدق العاطفى ، والتأثير الوجدانى من جانب ، وركيزة العقل الصحيح والفهم الثاقب من جانب آخر ، فهو يقرر أن ما خرج من القلب يدخل الى القلب ، ويقرر علامات الصدق الوجدانى فى كثير مما يسوقه ويقرره ، وهو الى جانب ذلك يوحى باستشارة العقل ، ومشاورة الفهم ، والاعتماد على الذكاء والفطنة ، فما أجازه العقل ـ بعـد أن أجـازه الوجدان ـ هو الشعر المثالى الرائع القوى فى وصفه وصوره ومعانيه وألفاظه ، وما رفضه حسن التقدير من هذا الشعر فى وصفه أو خياله أو معانيه فليس من عمود الشعر فى شىء » (٢) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال . النقد الأدبى الحديث ص ٣٩٠ ط دار مطابع الشعب .

(٢) د. عبد الفتاح عفيفى : عمود الشعر العربى فى ميزان النقـد الأدبى ص ٣٠٨ ط مطبعة السعادة ١٩٨٣م .

ولقد وضع المرزوقى (متوفى سنة ٤٢١ هـ) عناصر يتألف منها عمود الشعر وهى :

١ ــ شرف المعنى وصحته •
٢ ــ جزالة اللفظ واستقامته •
٣ ــ الاصابة فى الوصف •
٤ ــ المقاربة فى التشبيه •
٥ ــ مناسبة المستعار منه للمستعار له •
٦ ــ التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن •
٧ ــ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا تكون ثمة منافرة بينهما •

والذى دفع المرزوقى الى ذلك ما رآه من نقاد العصور السابقة الذين كانوا يفرقون بين اللفظ والمعنى • ها

وأول من فجر هذه القضية الجاحظ (١٥٠ هـ ــ ٢٥٥) فى كتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، فقد أنحى الجاحظ باللائمة على أبى عمرو الشيبانى الذى استحسن بيتين لجمال معناهما فقال : « وأنا رأيت أبا عمر الشيبانى وقد بلغ من استحسانه لهذين ــ ونحن فى المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى
فانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا
أفظع من ذلك لذل السؤال

ثم يقول الجاحظ بعد ذلك : « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى ، وانما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج (وكثرة الماء) وفى صحة الطبع ، وجودة السبك فانما الشعر صناعة، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » (١) .

وقد فهم الامام عبد القاهر الجرجانى (م ٤٧١ ه) من كلام الجاحظ أنه ينصر اللفظ على المعنى ، وخاصة فى قوله : « المعانى مطروحة فى الطريق » فساق كلام الجاحظ فى دلائل الاعجاز ، ثم عقب عليه بقوله : « فقد نراه كيف أسقط آمر المعانى ، وأبى أن يجب لها فضل فقال : « وهى مطروحة فى الطريق ، ثم قال : وأنا « أزعم أن ابن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا » فأعملك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه ، وأنه اذا عدم الحسن فى لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة » .

وقد شارك عبد القاهر فى الحملة على الجاحظ الآمدى (٣٧٠ه)، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (٢٩٠ه — ٣٦٦ه) ، والحقيقة لو لم يكن للجاحظ الا فضل تفجير هذه القضية التى شغلت أذهان الكثير والتى قامت جل الدراسات النقدية من أجلها لكفاه فضلا وشرفا ، غير أن الناظر فى مقالة الجاحظ لا يراه يغفل جانب المعانى ، كيف يصنع ذلك ، وهومن أوائل الذين حفلوا بالمعانى ، وقدموا نتاجهم فى صورة رائدة من الألفاظ السهلة الممتعة ، بل انه كان ينعى على أولئك الذين

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ تحقيق عبد السلام هارون . ط الحلبى بمصر .

(٢) دلائل الأعجاز ص ٢٥٦ تحقيق محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجى بمصر .

يعتدون بالألفاظ ، حتى ان بديع الزمان فى المقامة الجاحظية نعى عليه أنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو جملة مسجوعة ، وما كان لبديع الزمان أن يصنع ذلك وهو يعلم أن الجاحظ مهتم بالألفاظ دون المعانى •

لكننى — من وجهة نظرى — أفهم أن الجاحظ يعلم أن الشعر فن راق ولا بد من ملكة فنية مبدعة ، واذا جاز للانسان أن يرسل كلامه فى النثر دون أن يحفل باختيار ألفاظه فانه لا يجوز له ذلك فى الشعر فالوزن يتطلب من الشاعر جمع أكثر المعانى فى أقل الألفاظ ، ومن هنا فان الشاعر يجب عليه أن يتخير ألفاظه : حتى يضمنها القالب الذى يريد ، ولا بد كما قال أن تكون الألفاظ سهلة المخرج ، وأن تكون كثيرة الماء ، وأن يكون ناظمها صحيح الطبع جيد السبك ، فالشعر ضرب من النسج ، وجنس من التصوير » (١) •

ولست — هنا — بحاجة الى الاطالة فى هذه المقدمة التى رأيت أنها لازمة لأن نفهم منهج كعب الشعرى ، ولكن الأمر يتطلب منا أن نقف قليلا عند أثر الاسلام فى شعر هؤلاء الشعراء ومن أتى بعدهم من شعراء تعمقوا أسراره وفهموا ما يرمى اليه من مبادىء ومثل فجاء شعرهم صورة لما يدينونبه •

ان الصدق الفنى — كما قدمت — يتطلب من الشاعر أن يطرق الموضوعات التى يؤمن بها ، والتى تؤثر فى تعميق الاحساس لدى السامع بالمبادىء التى يجب عليه أن ينطلق من خلالها الى هدفه الأسمى وغايته النبيلة ، ومن هنا فقد كان النقد فى صدر الاسلام يتوجه الى الشاعر من هذا الجانب ، فنقد سيدنا عمر لزهير بن أبى سلمى — كما

---

(١) انظر فى ذلك الموازنة ، والوساطة ، ودلائل الاعجاز ، والمثل السائر لابن الأثير ، وتاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور احسان عباس والنقد الأدبى الحديث • د/ غنيمى هلال •

قدمت — بناء على معيار الصدق الفنى والذوق الأخلاقى ، وكان على الشعراء أن يترسموا هذه الخطى ، وأن ينطلقوا منها الى غايتهم وهو الشعر الذى ينصرون به الدعوة الاسلامية ، ويعمقون به مبادىء الأخلاق التى أتى بها الاسلام ، وعمل على تأصيلها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

فقد رأينا حسان بن ثابت عند اجابته وفد تميم يحرص على ذلك المنهج فى صدق فنى وأخلاقى ، وليس هناك من صدق فنى أكثر من هذا الذى يحدث للانسان عندما تضطره الظروف للدفاع عن مبدأ يدين به ويؤمن بأهدافه ، وقد كان حسان صادقا مع نفسه عندما قال :

قوم اذا حاربوا ضرروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
اذا تفرقت الأهواء والشيع

أو قوله يدافع عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ويرد على أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجو أنهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء
فان أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء

بل ان من يقرأ قوله فى غزوة بدر يروعه ذلك المنهج الذى اختطه لنفسه والذى بدأه بالغزل قائلا :

تبلت فؤادك فى المنـام خـريدة
تسقى الضجيع ببارد يسام
كالمسك تخلطـه بمـاء سـحابة
أو عاتق كدم الذبيح مدام

وبعد المقدمة الغزلة يذكر ما أصاب المشركين فى بدر ذاكرا موقف الحارث بن هشام الذى فر من المعركة تاركا قومه يذوقون مرارة الموت والأسر ، ثم يقول :

طحنتهـم والله ينفـذ أمـره
حـرب يشـب سـعيرها بضرام
لـولا الاله وجـربه لتركتـه
جزر السباع ودسنه بحوامى
من بين مأسـور يشـد وثاقه
صـقر اذا لاقى الأسنة حـامى
ومجـدل لا يسـتجيب لدعـوة
حتى تزول شـوامخ الأعـلام
بالعـار والذل المبـين اذ رأى
بيض السيوف تسوق كل همام

انها قذائف الحق ترسل على أنصار الباطل فتدمغهم ، ولن تذرهم الا وقد أيقنوا أنهم لا محالة مهزومون •

أما كعب بن مالك فقد تفجرت شاعريته فى الدفاع عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرد على شعراء المشركين الذين تنـاولوا المسلمين بألسنتهم ، فالمعارك الحربية يصحبها دائما معارك كلامية ، فاذا كان السيف يؤدى دوره فى الدفاع عن المبادىء فان اللسان لا يقـل عنه فى بيان الأهداف التى من أجلها كان القتال •

ولقد جاء شعر كعب بن مالك صورة حية لواقعه ، وهل هناك دافع أقوى من ذلك الذى قام به شعراء المشركين وهم يرسلون سهامهم لتصيب المسلمين فى أعراضهم ، ولتنال من طهرهم وعفافهم ؟ ان المرء فى هذه الحال يكون كالأسد يحمى عرينه من طمع الطامعين ، ويرد عن حماه كل من يقترب منه .

لقد وقف كعب بن مالك بعد غزوة بدر يرد على ضرار بن الخطاب ابن مرداس الذى قال :

عجبت لفخر الأوس والحن دائر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار ان كان معشر
أصيبوا ببدر كلهم ثم صائر

فهل يمكن لشاعر يمتلك عاطفة جياشة ، ويتمتع بايمان بالله ورسوله أن يصبر على هذا الوعيد الذى يتوعد به ضرار الأوس والخزرج ؟ وهل يمكنه أن يقبل منه هذه التهديدات وهو المنتصر ؟ ان عاطفته لابد أن تثور، وقريحته لابد أن تتوقد ، وخاصة أن النصر كان حليفهم فى بدر ، واذا ثارت عاطفة كعب فانها تثور لتنطلق من منطلق اسلامى ، ولترسل سهامها مريشة بواقعية لا تعرف الوهم ، وحقائق لا تقبل النقض ، فهو يقول فى رده على ضرار بن الخطاب :

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جائر

وهو رد على ضرار انطلق فيه كعب من منطلق اسلامى ، والتزم

فيه جانب الصدق الواقعى فاذا كان ضرار قد تعجب من فخـر الأوس والخزرج فان كعبا تعجب من قدرة الله التى أذلت هؤلاء الجبـابرة ، وجعلتهم يعودون من حيث أتوا مستذلين يحملون خـزى الهـزيمة ، وفضيحة العار الذى لحقهم،واذا كان ضرار قد توعد الأوس والخزرج، وهو أمر لم يتحقق بعد فان كعب بن مالك قد ذكر حقائق رآها ضرار ، وعاشها أضرابه من أهل مكة .

واذا كان ضرار فى تهديده قد توعد الأنصار بأنهم سوف تكون الكرة عليهم فقال :

فنترك صرعى تعصب الطير حولهم
وليس لهـم الا الأمـانى ناصر
وتبكيهم من أهـل يثرب نسـوة
لهن بها ليل عن النـوم سـاتر

فان كعب بن مالك قد ذكـر أمورا تحـققت ، وقتلى قد تركوا فى بدر قد أودعوا القليب فقال :

فلمـا لقينـاهم وكـل مجـاهد
لأصـحابه مستبسل النفس صابر
شـهدنا بأن الله لا رب غـيره
وأن رسـول الله بالحـق ظـاهر

ثم يقـول :

فكب أبو جهـل صريعا لوجهـه
وعتبة قد غـادرنه وهـو عـاثر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى
وما منهم الا بذى العرش كـافر

والذى دفع كعب بن مالك الى هذا الحديث هو ما وجـده لـدى شعراء المشركين من تقليل لهذا النصر ، وتهوين من شأن المسلمين ، وهو أمر يدعو الى التصدى له ، وبيان ما حدث ، حتى يعلم الجميع الـدور البطولى الذى قام به المسلمون •

ولقد أثر الاسلام ــ أيضا ــ فى عمود الشعر عند كعب بن مالك ، فقد اختار الألفاظ التى تنم عن شخصية قائل ، حتى انك لتتبين من قراءتك لهذه الأبيات أنها قيلت فى عصر صدر الاسلام ، وأنها قيلت لتذكر حدثا بعينه ، وأن هذه الألفاظ قد أثر فيها القرآن الكريم • فقوله :

عجبت لأمر الله والله قادر

فيه من الايمان بقدرة الله ما يجعل القارىء يتصور شخصية قائله، وقوله « وكل مجاهد » توحى بالمجاهدة والاستمرار على قتال الأعـداء وكلمة « مجاهد » مستمدة من قوله تعالى : « وجـاهدوا فى الله حق جهاده » • وقوله « ظاهر » أيضاً مستمدة من قوله تعـالى : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الآية ١٤ من سـورة الصف) ، وقد استخدم كعب كلمة « أبو جهل » وهى كنية لعمرو بن هشام كناه بها المسلمون •

وهكذا يقدم لنا كعب دليلا على تخير ألفاظه ، وعلى أثر البيئـة فى هذه الألفاظ ، والقارىء لهذه القصيدة أيضا يدرك مدى ما وفق اليـه كعب من التحام أجزاء النظم والتئامها ومشاكلة الألفاظ للمعانى،فليست هناك منافرة بين الألفاظ والمعانى التى أدتها ، بل ان كل كلمةتحملمعنى أراده الشاعر ، وقصد اليه قصداً ، بل ان كل كلمة من هذه القصـيدة تحمل عنوان مستخدمها ، ودليل اتجاهه الاسلامى ومنهجه الشعرى •

وهناك قصائد عدة لكعب بن مالك فى بدر نكتفىبعرض هذه الأبيات

التى يقول فيها لأبى سفيان بن حرب ان انتصارنا فى بدر هـو فاتحة الانتصارات،وان عليكم يامعشر المشركين انترقبوا ذلك اليوم القريب الذى تطالعكم فيه جنودنا بخيول تطلع عيكم من كداء وتدهمكم فى عقر داركم • انه يقول :

لعمـــرو أبيكمـــا يابنى لـــؤى
على زهو لديكـم وانتخـــاء (١)
لما حامت فوارســـكم ببـــدر
ولا صبروا به عنـــد اللقاء (٢)
وردناه بنـــور الله يجـــلو
دجى الظلمـــاء عنا والغطـــاء
رســـول الله يقـــدمنا بأمـــر
جيـــاد الخيل تطلع من كداء (٣)
بنصر الله روح القـــدس فيهـــا
وميكـــال فيـــا طيب المـــلاء (٤)

فقد جادت قريحة كعب بهذه المعانى التى وردت فى هذه الأبيات من عجب قريش وافتخارهم على غيرهم ، ثم من فـــرارهم يوم بدر ، وعدم صبرهم عند اللقاء ، ثم من أن المسلمين وردوا هـــذه المعـــركة ، وأمامهم نور الله يضىء لهم الطريق ، ويجلو عنهم الظلمات ، ثم ان رسول الله ــ صلى الله عيه وسلم ــ يتقدمهم بأمر الله وقضـــائه المحكم ، ثم النتائج التى آلت اليها المعركة ، ثم تهديده أبا سفيان بن حرب الذى نجا بالقافلة ، وما زالت لديه النية لقتال المسلمين ، ثم ذكر الملائكة التى تشد أزرهم ، فجبريل وميكائيل هما من جنود النصر التى تدفع المســلمين اليه •

---

(١) الانتحاء : الاعجاب والتكبر •

(٢) حامت : امتنعت •

(٣) كداء : موضع بمكة •

(٤) الملاء : أراد الملأ وهم أشراف القوم وسادتهم •

وقد استخدم كعب لذلك اللغة المعبرة التى حملت المعـــانى التى يتطلبها الموقف فى ثوب فنى راق ، فابتداؤه بقوله : « لعمرو أبيكما » فيه من التوبيخ لهم والسخرية بهم ، فحلفه بأبيهم فيه دلالة على أن أباهم كان عظيما وكان فارسا وشجاعا ، فمال أبنائه أصبحوا جبناء أذلاء ، فلم يستطيعوا الثبات يوم بدر ، ولم يصبروا عند التقاء الجمعـــين ، وكأنه يقول لهم : لقد صبرنا على قتالكم فحق لنا النصر أما أنتم فقـــد وليتم مدبرين فحلت بكم الهزيمة ولو أنك تدبرت الكلمات : « زهـــو » — « انتخاء » — « حامت » — « صبروا » تجد كلمات لها دلالتها الايحائية ، ووقعها على قلوب المشركين ، ثم حديثه عن جند الله ، وســـيرهم الى المعركة فى كنف نور الله ورعايته ، بل انهم فى معية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى يوحى اليه من السماء ، وقد أمره الله بقتـــال هؤلاء المشركين .

وفى حديثه عن تهديد المشركين استخدم أساليب التهديد القوية ، فأبو سفيان الذى علم بمصارع قومه ، وأسرهم من قبل المسلمين لابد وأن قلبه يرتعد خوفا منهم ، فان هو قال له : لا تتعجل الأمر واعلم أننا سنأتيك الى مكة نركب جياد الخيل التى ستطلع عليكم من كداء، وسنأخذكم أخذا مؤيدا بنصر الله وبروحه جبريل وخازنه ميكائيل ، فانما يصنع ذلك ليزيد من رعبه ، وليجعله يفكر طويلا قبل اللقاء بالمسلمين فى معـــركة أخرى .

والكلمات التى استخدمها كعب تدل على مقدرة راقية فى امتـــلاك ناصية اللغة واقتدار على تصريف مفرداتها ، فلم يستخدم من أســاليب التوشية والترصيع ما يخلب به نظر القارىء دون تعمق فى الجوهر ، وانما جعل كلماتها موحية بذاتها ، مؤدية رسالتها بدلالتها ، ولم يســـتخدم أساليب التشبيه التى تساعد الشاعر على التعبير عن معانيه التى يريد توصيلها الى المستمع ، وانما جعل كلماته تصل اليه ، وتفتح قلبه دون

استئذان ، ومادام كلام كعب قد خرج من قلبه ، فلابد أن يصل الى قلوب الآخرين ولابد أن يمتلك عليهم كل أحاسيسهم •

واذا كانت كلمات كعب قد عبرت عن نشوة الفرح — هنا — فانها عبرت فى موضع آخر عن مرارة الحزن ، وألم الفجيعة ، واستطاعت عاطفته المفعمة بمرارة الأسى ، ولوعة الحسرة أن تبعث زفراتها الحرى لكل من فجعته الحرب ، أو أصابته أحداثها •

ولعلنا نلمس ذلك واضحا فى قصائده التى قيلت فى رثاء شهداء المسلمين ، والحديث عن أولئك الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، انهم فتية آمنوا بربهم ، ودافعوا عن دين خالقهم ، وجادوا بأرواحهم فى سبيل الله ، فكان بيعهم رابحا •

ولقد تقدم الحديث عن قصيدة كعب فى رثاء عبيدة بن الحارث الذى استشهد بعد اصابته فى غزوة بدر ، وفى رثاء سيد شهداء أهل الجنة حمزة بن عبد المطلب ، وفى رثاء شهداء مؤته ، فارجع لترى فيها علامات الحزن ظاهرة ، ودلائل المصيبة لائحة ، ثم لتعلم — أيضا — أن كعب بن مالك قد جعل الرثاء جديدا ، فسلك به سبلا غير تلك السبل التى كان الشعراء فى العصر الجاهلى يسلكونها ، لأن هؤلاء الشهداء جادوا بأرواحهم فى سبيل الله ، وهى شهادة تنم عن عظمة الهدف ، وعظمة الشهيد • ان هناك بونا شاسعا بين ميتتين ، فليس الجميع على قدم المساواة ، بل وليسوا جميعا يلقون من العظمة ما يلقاه شهداء الاسلام الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه •

ولعلنا نجد ذلك الفرق فى قول الخنساء عندما تسلت عن أخيها صخر بما رأته فى عيون معزيها اللائى كن يبكين على اخوانهم فقالت :

ولولا كثرة الباكين حولى ... على اخوانهم لقتلت نفسى

فقد جعلت جميع لقتلى يستوون فى ذلك ، أما شهداء الاسلامفليسوا كغيرهم انهم سيفوزون بجنة الله التى أعدها الله لهم ، ولعلك تدرك ذلك من بيت كعب بن مالك الذى ختم به قصيدته التى رثى بها حمزة بن عبد المطلب فقال :

شـــتان من هو فى جهنـم ثاويا
أبدا ومن هو فى الجنان مخلــد

قال كعب بن مالك يرثى حمزة بن عبد المطلب وشهداء أحد :

نشـــجت وهل لك من منشـــج
وكنـت متى تذكر تلجـــج (١)
تذكـر قــوم أتـانى لهـــم
أحـــاديث فى الـزمن الأعـــوج
فقلبـــك من ذكرهم خـــافق
من الشـــوق والحـزن المنضج
وقتـــلاهم فى جنـــان النعيــم
كـــرام المـــداخل والمخـــرج
بما صـبروا تحت ظـل اللـواء
لواء الرسول بذى الأضــوج (٢)
غـــداة أجـابت بأســـيافها
جميعـــا بنـــو الأوس والـــخزرج
وأشـــياع أحمد اذ شـــايعوا
على الحق ذى النور والمنهـج (٣)

---

(١) نشجت : بكت • تلجج وهو الاقامة على الشىء والتمادى فيه .
(٢) الأضوج بضم الواو جمع ضوج وهو جانب الوادى •
(٣) شايعوا : تابعوا • المنهج : الطريق • وقوله ذى النور والمنهج : يعنى أبا زيد الأنصارى •

فمـا برحـوا يضربون الكـماة
ويمضون فى القسـطل المرهج (١)
كذلك حتى دعـاهم مليـك
الى جنة دوحـة المؤلج (٢)
فكلهـم مـات حـر البـلاء
على ملـة الله لم يحـرج (٣)
كحمـزة لمـا وفى صـادقا
بذى هبـة صـارم سـلجج (٤)
فـلاقاه عبـد بنى نوفـل
يبربر كالجمـل الأدعـج (٥)
فأوجـره حـربة كالشـهاب
تلهـب فى اللهـب الموهـج (٦)
نعمـان أوفى بميثـاقه
وحنظلـة الخـير لم يحنج (٧)

(١) الكماة : الشجعان • القسطل : الغبار • المرهج: الذى علا فى الجو
(٢) الدوحة الشجرة الكثيرة الأغصان • والمولج بفتح الميم وسكون الواو وكسر اللام : المدخل •
(٣) حر البلاء : خالص الاختبار •
(٤) هبة السيف : وقوعه فى العظم • الصارم : القاطع • سلجج : مرهف •
(٥) عبد بنى نوفل : وحشى قاتل حمزة • يبربر : يصيح — الجمل الأدعج : الأسود •
(٦) أوجره : طعنه فى صدره • الشهاب : القطعة من النار • الموهج : الموقد •
(٧) لم يحنج : لم يصرف عن وجهه الذى أراده من الحق •

عن الحق حتى غـــدت روحـــه
الى منزل فـــاخر الـــزبرج (٣)
أولئـــك لا من ثوى منكـــم
من النـــار فى الدرك المرتج (٤)

فأنت ترى كعب بن مالك قد التزم نهجا خاصا فى الرثاء ذلك الذى يذكر للشهيد فضله وخلقه وثباته فى المعركة ، واستبساله من أجل نصرة الحق على الباطل ، ثم يتحدث عن مثوى ذلك الشهيد فى جنان الخلـد . ويحاول أن يذكر المقابل لذلك وهى النار التى سيخلد فيها قتلى المشركين

ولنعرض فى ايجاز لقصيدته التى يبدى فيها ألمه ولوعته لما أصاب المسلمين يوم أحد ، وهى تأتى دليلا على منهج كعب الشعرى ، والذى لم يقف به عند حد ألفخر فقط ،أو الرثاء فحسب وانما جاء به فى كل مجال من مجالات الدعوة الاسلامية ، بل ان القارىء لهذا الشعر يجده قد قيل معبرا عن عاطفة صادقة ، وبعد معاناة عاشها الشاعر ، وأثرت فى قلبـه وعقله فجاء شعرا صادقا ، لأنه صدر عن قلب مفعم بالأحداث التى عبر عنهـــا .

وهل هناك تصوير واقعى أقوى من تلك الأحـــداث التى نزلت بالمسلمين يوم أحد ، وهل هناك دليل على صدق كعب العاطفى والوجدانى أقوى من ذلك الدليل الذى قدمه كعب فقد خاض هذه المعركة ،وعرك أحداثها واصطلى بنارها ،وأصيب فيها باصابات بالغة ؟ ، بل هل هناك من دليل على اتقاد عاطفته أقوى من ذلك الدليل فقد رأى كعب رسول الله ـ صلى

---

(٣) الزبرج : الوشى .
(٣) الدرك : ما كان الى أسفل ، والدرج ما كان الى فوق .

الله عليه وسلم — وهو ملقى على الأرض قد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ؟ ان الرواة يحدثوننا عن وجود كعب الى جوار رسول الله وهو يصاب بما أصيب به ، فهل يقف الشعر دون تسجيل هذا الموقف ؟ وهل تقف عاطفته دون التأثر بهذا الحدث ، ودون أن تجعل الشعر يرسل أنغامه الشجنة ، فتؤثر في السامعين ، وتمتلك منهم شغاف قلوبهم ؟

عد الى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا البحث ، وتدبر ما قلناه هناك ، وسترى أن كعب بن مالك قد قال قصيدته فى أحداث أحد وهو فى قمة التأثر بما حل بالمسلمين فهو يقول مبديا ألمه لما أصاب المسلمين موجها حديثه الى أبناء عمومته الغساسنة :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم
من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار وأعلام كأن قتامها
من البعد نقع هامد متقطع

ثم يتحدث عن نصرتهم لدين الله ، وأنهم يجابهون فى سبيل ذلك عناصر القوة المختلفة فيقول :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة
مدربة فيها القوانس تلمع
وكل صموت فى الصوان كأنها
اذا لبست نهى من الماء مترع

ويتحدث عن حشد المشركين وكثرة عددهم وعن عدد المسلمين فيقول :

فجئنا الى موج من البحر وسطه
أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصـــيبه
ثلاث مئـــين ان كثـــرنا وأربع
نغاورهم تجـــرى المنيـــات بيننـــا
نشـــارعهم حوض المنـــايا ونشرع
تهادى قسى النبع فينـــــا وفيهم
وما هو الا اليثربى المقطع

ثم يصور موقف المسلمين بعد المعركة ، ورضاءهم بقضاء الله وقدره. فيقول :

ونحن أناس لا نرى القتـــل ســـبة
على كل من يحمى الذمار ويمنع
جـــلاد على ريب الحوادث لا نرى
على هالك عينـــا لنا الدهـــر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشىء نقـــــوله
ولا نحن مما جرت الحرب نجـــزع
بنو الحرب ان نظفر فلسنا بفحش
ولا نحن مما جرت الحرب نجـــزع

وهكذا يأتى شعر كعب مصورا تلك الأحداث التى وقعت للمسلمين، مبينا الآلام التى أصابتهم ، موضحا دور البطولة الذى قام به المسلمون للدفاع عن دينهم وعقيدتهم ، وهو فى كل ذلك يصدر عن فنية مبدعة ، وعن ملكة شعرية خلاقة ، وقد تنطبع على شعر كعب بعض الانطباعات التى عالجها الشعراء فى العصر الجاهلى ، فلم يكن شعراء صدر الاسلام بعيدى عهد بذلك العصر ، فقد يضمن شعره ألفاظا قـــوية مثـــل قوله : « قتامها ـــ نقع هامد ـــ العراميس ـــ مجالدنا ـــ فخمة ـــ القوانس » ولكنه يسوق لنا العبارات التى تجعل شعره يمثل عصره ، فقوله : « فينا

رسول الله » وقوله : « تدلى عليه الروح » ، وقوله : « نشاوره فيما نريد » ، وقوله :

وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا الى ملك يحيا لديه ويرجع

وقوله :

ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا على الله ان الأمر لله أجمع

كلها عبارات تقدم لنا كعب بن مالك الشاعر الاسلامى الذى عاش عصر النبوة ، وتمثل منهج القرآن الكريم ، وتجعل شعره متفردا بالواقعية والصدق ، وقوة العاطفة .

الفصـــل الثـــالث

بين كعب وشـــعراء عصره

الموازنة قديمة فى الأدب العربى ، ذلك أنها تضع الملامح العامة للنتاج المشترك الذى يمثل اتجاهات متواكبة،وأغراضا متقاربة نتبين منخلالها مدى ما وفق فيه كل واحد من فرسان هذه الحلبة ، ومن منهم أتى المجلى فى هذا المضمار .

ولقد عرف النقد العربى فى عصوره الأولىلونا من هذه الموازنات، وروت لنا كتب الأدب جانبا منها فيما أثر عن النقد فى العصر الجاهلى ، فلقد قال صاحب العمدة عند عرضه لقصيدة علقمة ..

« ذهبت من الهجران فى كل مذهب »

وفى هذه القصيدة وقع الحكم له على امرىء القيس » (١)

وهذا الحكم الذى أشار اليه ابن رشيق هو حكم أم جنـــدب زوج امرىء القيس ، فقد أتى علقمة بن عبدة التميمى امرأ القيس وهو قاعد فى الخيمة ، وخلفه أم جندب فتذاكرا الشعر ، فقال امـــرؤ القيس : أنا أشعر منك ، وقال علقمة ، بل أنا أشعر منك ، فقال : قل وأقول ،وتحاكما الى أم جندب ، فقال امرؤ القيس :

خليلى مرابى على أم جندب

وقال علقمـــــة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١٠٣ المصدر السابق .

حتى فرغ منها ففضلته أم جندب على امرىء القيس ، فقال لها : بم فضلــته على ؟ فقالت : فرس أبى عبدة أجود من فرســك • قال : ولماذا ؟ قالت سمعتك زجرت ، وضربت وحركت ، وهو قولك :

فللساق ألهوب ، وللسوط درة وللزجــر منه وقع أهوج متعب

وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنانة ، وهو قوله :

فأقبل يهوى ثانيا من عنانه يمر كمــر الرائح المتحلب

فغضب عليها وطلقها ، فخلف عليها علقمة ، فسمى علقمة الفحل»(١)

وابن رشيق يذكر موضوع هذه الحكومة ، ويذكر — أيضــا — أن امرأ القيس طلق امرأته عندما حكمت ، وتزوجها علقمه بعد ذلك •

وهذا ما جعل النقاد المحدثين يرفضون هذه الحكومة ، فمنهم من يرفضها ، لانها بعيدة عن التصور ، لأن العصر الجاهلى لم يكن يعـــرف مثل هذا اللون من النقد ، ومنهم من يرفضها ، لأنها وقعت من امــرأة كارهة •

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فانها تعطينا تصورا لقضية الموازنة تلك التى يتحاكم فيها من يقول شعرا فى موضوع واحد لمن يحكم بينهما فى تفضيل أحدهما على الآخر : « فقد تحاكم شعراء من بنى تميم الى ربيعة بن حذار ، ليقضى بينهم فى أيهم أشعر ؟ فقال ربيعــة : أما عمرو فشعره برود يمانية تطوى ، وتنشر ، وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزورا قد نحرت فأخذ من أطايبها ، وخلطه بغير ذلك ، أو قال

---

(١) ديوان امرىء القيس — رواية الأصمعى من نسخة الأعلم ص ٤١ ط دار المعارف •

(٢) العمدة ج ١ ص ١٠٣ المصدر السابق •

له : شعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يا مخيل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شىء » .

وينقد الدكتور عبد الرحمن عثمان أولئك الذين يحاولون التشكيك فى هذه الرواية بقوله : « وعلى الذين يرتابون فى صحة هذه الرواية أن يتأملوا ديباجتها البدوية التى تنطق بأنها جاهلية ، بل تنفى نسبها الى غير الذوق الجاهلى ، فالتشبيه بلحم الجزور ، وبالمزادة التى أحكم خرزها ، فليس يقطر منها شىء يثبت صحتها ، وأنها لناقد لم يتحضر ، على أننا لا نستصوب المضى فى الشك دائما ، فذلك يسلمنا الى انكار كل شىء وجحده ، حتى ولو قامت على صحته قرائن من الذوق الذى يميز بين أسلوب وأسلوب » (١)

ومع تقدم العصور ، وتطور النقد تقوم موازنات منهجية بين الشعراء ، لتضع كلا منهم فى مكانه الجدير به فى رأى من يقوم بهذه الموازنة ، وأقدم ما وصل الينا من موازنات متخصصة موازنة الآمدى بين أبى تمام والبحترى ، ولقد قدمت فى الفصل السابق أن الآمدى اعتمد على عمود الشعر فى موازنته ، فلقد وضع العرب هذا المعيار أساسا لتقويم شعرهم ، ومنهجا لقصائدهم ، وقاسوا عليه كل نتاج جيد ، وفن أصيل .

وفى العصر الحديث وضع الدكتور زكى مبارك كتابه الموازنات الأدبية ، ولكنه لم يقتصر فيه على شاعرين كما صنع الآمدى ، وانما وازن فيه بين شعراء فى عصور مختلفة ، ليضع لنا نظاما فى الموازنات الأدبية يجب أن يتحد فيه الشعراء فى أغراضهم وأوزانهم وقوافيهم وان

---

(١) مواقف النقد وقضاياه ص ٢٢٢ .

اختلفوا فى عصورهم ، وعلى ذلك فان المعارضات التى قام بها الشعراء فى العصر الحديث ، والتى كان بطلاها البارودى وشوقى يمكننا وضعها فى هذه الدائرة التى تتم بها الموازنات ، والتى تمكننا من اصدار أحكام على هؤلاء الشعراء ، ونحن موقنون من سلامة بنيانها ، وصحة أحكامها .

ولقد وازن الأستاذ على النجدى ناصف بين شوقى والبوصيرى فى مدائحهما النبوية فى كتاب « الدين والأخلاق فى شعر شوقى » فوضع قصائد البوصيرى وشوقى فى اطار فنى يحدد مضمون كل قصيدة ، ومدى اتفاقهما واختلافهما فى أفكارهما ، وتناول كل منهما لهذه الأفكار حسب ما أملته عليه ثقافة عصره ومجتمعه .

واذا حاولنا أن نوازن بين شعر كعب بن مالك الانصارى،وشعرعصره أو بين كعب وشعراء عصره فان ذلك يتطلب منا أن ننظر فى شعر من شاركه هدفه وترسم خطاه ، وفى شعر من ناقضه ، وقاوم هداه ، وكلا المنهجين يحتاج الى وقفة معه،حتى يقف القارىء على مكان هذا الشعر ودوره فى الوفاء بغرضه الذى قيل من أجله .

أما أولئك الشعراء الذين شاركوه هدفه ، ومتحوا معه من بئر واحدة فاننا نذكر منهم حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وهما الشاعران اللذان دافعا مع كعب بن مالك عن أعراض المسلمين المثلوبة ، وردا على تلك القصائد التى قالها شعراء المشركين ، وهى قصائد تناولوا فيها بالهجاء المقذع شخصيات أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم بل تناولوا بالهجاء — أيضا — شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم— وهو أمر له خطورته — كما قدمت .

ولئن كان القرآن الكريم دافع عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فان المشركين — لم يعترفوا — بعد — بما جاء فى القرآن الكريم ، وان العرب فى شبه الجزيرة مازالوا على وثنيتهم ، وما زالوا متمسكين

بديوانهم وسجل مفاخرهم ، ولا يطربون لكلام طربهم لبيت شعر يقال، أو قصيدة تذيع فتشيع بينهم ، وترسل فتلتقطها ذاكرتهم ، وتهتز لهـا عاطفتهم ، فلابد والأمر كذلك من وجود تيار معارض يسـتخدم نفس اللون الذى يستخدمه المشركون ، ويؤدى نفس الدور الذى يؤديه الشعر فى قلوب العرب يدافع عن المسلمين ويرد عنهم أذى المشركين .

وقد قام بهذا العبء ثلاثة نفرهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام ، والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، قال : فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة » (١) .

لقد اختلف ــ اذن ــ منهج حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومنهج وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثلقولهمبالوقائع رواحة طريقا أخرى ، وبينما كان الأول والثانى يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب اذا بعبد الله بن رواحـة يعيرهم بالكفر واهدار العقل، وان نزع أحيانا الى السـخرية منهم ، وتعييرهم بالفرار من الحرب ، ولكنه ما يلبث أن يعود سيرته الأولى ، كقوله فى الرواية التى أثبتها ابن سلام الجمحى : « قال عبد الله بن رواحة مررت بمسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ وهو فى نفـر من أصحابه فأضب (٢) القوم يا عبد الله بن رواحة يا عبد الله بن رواحة ، فعرفت أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ دعانى فانطلقت اليـه مسرعا ، فسلمت ، فقال ههنا ، فجلست بين يديه ، فقال كأنه يتعجب من

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٨ المصدر السابق .

(٢) فأضب القوم : صاحوا وجابوا .

شعرى : كيف تقول الشعر اذا قلته ؟ قلت : انظر فى ذلك ثم أقول فقال: فعليك بالمشركين ، قال : فلم أكن أعددت شيئا فأنشدته ، فلما قلت :

فخبرونى أثمان العباء متى كنتم بطاريق ، أو دانت لكم مضر

قال : فكأنى عرفت فى وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكراهة اذ جعلت قومه « أثمان العباء » فقلت :

نجـالد الناس عن عرض فنأسرهم فينا النبى ، وفينا تنزل السور

وقـــد علمتم بأنا ليس غالبنـــا
حى من الناس ، ان عزوا وان كثروا
يا هاشم الخـــير ان الله فضـــلكم
على البرية فضــــــلا ماله غـــير
انى تفرست فيـــك الخير أعــرفه
فراسة خالفتهم فى الذى نظــروا
ولو ســألت أو استنصرت بعضهم
فى حل أمـــرك ما آووا وما نصروا
فثبـــت الله ما آتـــاك من حســـن
تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فأقبل على بوجهه مبتسما ، ثم قال : واياك فثبت الله » .

فقد هجا قريشا فى أول الأمر ، وعيرهم بأنهم لا يساوون « أثمان العباء » احتقارا لهم ومهانة ، وأنهم لم يكن فيهم من دانت له العرب، أو حاز لقبا عظيما ، لكنه عاد بعد ذلك ، ليتحدث عن وجود الرســـول بينهم ، ونزول القرآن فى ربوعهم ، وهو وان تحدث عن قوتهم وشجاعتهم الا أنه عاد — أيضا — ليتحدث عن تفضيل الله بنى هاشم على ســـائر الناس بأن بعث رسوله — صلى الله عليه وسلم — منهم ، ثم يتحدث عن

ايمانهم برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنهم بفراستهم أدركوا أن الخير سيعم الدنيا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ثم يختتم الأبيات بقوله لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فالسمة الغالبة — اذن — على شعر عبد الله بن رواحة تتمثل فى تعيير المشركين بالكفر ، وعبادة الأصنام والأوثان ، وهذا ما جعل صاحب الأغانى يقرر أنه كان يعيرهم بالكفر ، وهو الأمر الذى لم يؤثر فى عاطفة المشركين عندما كانوا على شركهم ، فقد كان يحدثهم عن أمر هم مقتنعون به مطمئنون له ، فكأنه يقرر واقعا لم يكن مرفوضا فى أول الأمر ، لكنهم عندما اعتنقوا الاسلام ، وفهموا تعاليمه عرفوا أنهم كانوا على ضلالة ، وأنهم كانوا بعيدين عن منهج العقل السليم ، والفكر الصائب فأثر فيهم شعر عبد الله بن رواحة أكثر من شعر صاحبيه حسان ابن ثابت وكعب بن مالك اللذين كانا يعيرانهم بالأحساب والأنساب .

غير أن شعر حسان وكعب لم يخل من ذلك ، فقد مر بك شعر كعب فى بدر وفى أحد وفى الخندق ، وفيه بعض الأبيات التى تنعى على المشركين كفرهم ، وتذم فيهم شركهم ، فقول كعب بن مالك يوم بدر :

شهدنا بأن الله لا رب غيره   وأن رسول الله بالحق ظاهر

يوحى بأنهم أشركوا مع الله — أصناما لاتنفع ولاتضر — وهو ما يرفضه العقل الراجح ، والفطرة السليمة ، أما المسلمون فقد أفردوا الله بالوحدانية ، وآمنوا بأن النصر سيكون مع الحق الذى أتى به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

وكذلك قوله يوم الخندق :

ومواعظ من ربنا نهدى بها
بلسان أزهر طيب الأثواب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرها
من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكما يراها المجرمون بزعمهم
حرجا ويفهمها ذوو الألباب

فالقارىء لهذه الأبيات يدرك أن كعب بن مالك يحاجهم بالدليل والبرهان ، ويذكر لهم أن هذه الآيات قد عرضت عليهم فآمنوا بها ، ولم تعرض عليهم — أولا — بل انها عرضت على الأحزاب الذين رفضوا الايمان بها ، ورأوها حراما — فيما يزعمون — فعقولهم بليدة ، وأفهامهم كليلة ، أما المسلمون فعقولهم راجحة ، وقلوبهم مطمئنة ، لذا فقد وجدت هذه التعاليم منهم قبولا ، فآمنوا بها وصدقوها .

حتى حسان بن ثابت الذى غلب على شعره تعيير المشركين بالمثالب لم يخل شعره من حديث عن قضية الايمان والكفر ، فهو يقول فى بكاء سعد بن معاذ ، يذكر المسلمين بما كان منهم يوم بدر ، وبايمانهم بقضاء الله وقدره :

ثم يقول :

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم
ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم
مطيع له فى كل أمر وسامع
فما نكلوا حتى تولوا جماعة
ولا يقطع الآجال الا المصارع

لأنهــم يرجون منــه شـــفاعة
اذا لم يكن الا النبيون شـــافع
فذلك يا خـــير العبـــاد بلاؤنا
اجابتنـــا لله والمـــوت نافع
لنا انقدم الأولى اليك وخلفنـــا
لأولنـــا فى ملـــة الله تابع
ونعلـــم أن الملك لله وحـــده
وأن قضـــاء الله لابد واقع (١)

وهى قصيدة وان بدا فيها ألم المصـاب الا أنها تقوم دليلا على أن شعر حسان لم يكن كله تعييرا بالمثالب والأنساب، فهو يقدم لنا أن سعد بن معاذ ومن معه وفوا بعهدهم يوم بدر ، وأنهم أجابوا رسول الله عندما دعاهم لخوض المعـركة ، وأنهم يرجون بذلك شـفاعة رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ثم يقول : انهم كانوا أول من اعتنق الاسلام، فهم لهم القـدم الأولى ، ومن سـواهم فهم تبع لهم ، وهى ميزة تعطى للسابقين الى الاسلام ، ثم هم يعلمون أن الملك لله وحـده ، وهو دليل التوحيد الذى لم يستجب له المشركون .

واذا كنا نوافق الأصفهانى فى قوله : « فكان فى ذلك الزمان أشـد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فاننـا نخـالفه فيما بنى عليه رأيه ، وهو قوله : « فكان حسـان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب » ، ذلك أن كعب بن مالك كان يذكر الوقائع الحربيـة ، ويذكرهم بهزيمتهم ونصر الله للمسلمين ، ويهددهم بقوة بأسهم ، وكثافة جند المسـلمين ،

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٧١ المصدر السابق .

وثباتهم عند اللقاء ، وصبرهم على حرب الأعـداء ، وهو جانب فاق فيه كعب سائر الشعراء ، لأنه كان شاعرا فارسا خاض المعارك فجاء تأثير شعر كعب فيهم من هذا المنطلق ، ثم ان هذا القول يتعـارض مع قول صاحب الأغانى عن حسان عندما ذكر بسنده أن حسـان بن ثابت قال : يا رسول الله ايذن لى فيه ، وأخرج لسانا له أسود فقال : يارسول الله : لو شـئت لفريت به المزاد ، ايذن فيه ، فقـال : « اذهب الى أبى بكر فليحدثك حديث القوم ، وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك» وهذا دليل على أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد علم من حسان ميلا الى ذلك اللون من الشعر فأذن له فيه ، لأن الحاح حسان على الاذن له فى ذلك يجعله أقوى أثرا من غيره ، وشعره أشد وقعا فى هذا الجانب من شعر غيره ، والزيادة التى أثبتها صـاحب الأغانى تؤيد ذلك ، وهى قول الرسول لحسان : يا حسـان وكيف وهو منى وانا منـه : « يعنى أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب » قال — أى حسان — والله لأسلنه منك كما يسل الشعر من العجين : قال : « يا حسـان فأت أبا بكر فانه أعلم بأنسـاب القوم منـك » فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « كف عن فلانة واذكر فلانة » .

وهذا يجعلنا نقرر أن حسان بن ثابت قد اختط لنفسه منهجا حاول فيه رمى المشركين بما كانوا يرمون به المسلمين من سخرية منهم ، وطعن فى أعراضهم ، وسب وشتم وتعيير لهم بما ألصقوه فيهم من نقائص — هم منها براء ، ولذلك فان قريشا عندما سمعت شعر حسان قالت « ان هذا الشـتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة » وفى رواية أخرى أنهم قالوا : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا » (١) .

لقد هجا حسان أقرب الناس الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو أبو سـفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وغيره بنقـائص

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٩ — ١٤٠ المصدر السابق .

لا توجد الا فيه ، وبذلك استطاع اخراجه من جوزة قرابته لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو يقول فيه :

وان سنام المجد من آل هاشم
بنو بنت مخزوم (١) ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منكم
كرام ولم يلحق عجائزك المجد (٢)
وان امرأ كانت سمية أمه
وسمراء مغلوب اذا بلغ الجهد
وأنت هجين نيط فى آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد
ولست كعباس ولا كابن أمه
ولكن هجين ليس يورى له زند (٣)

ولأن حسان بن ثابت دافع عن أعراض المسلمين ، ورد على المشركين الصاع صاعين ، فقد أثلج بذلك صدر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشفى نفسه مما أصابها من أذى هؤلاء المشركين ، فقد أورد صاحب الأغانى بسنده قال : بلغنى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال:

---

(١) بنت مخزوم : يريد بها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم ، وهى أم عبد الله والد الرسول ، والزبير وأبى طالب ، ووالدك العبد : يريد به الحارث بن عبد المطلب وكانت أمه أم ولد .

(٢) أبناء زهرة : يريد بهن آمنة بنت وهب ، وهالة أم حمزة وصفية وهن زهريات ، وهو يهجو أبا سفيان بن الحارث بأن أمه أم ولد وام أبيه أم ولد كذلك .

(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

« أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى » (١) .

وأخبار الأغانى فى ذلك كثيرة ، وهى كلها تؤيد ما ذهبنا اليه ، وأن الذى قام بعبء تعيير المشركين وهجائهم فأصاب منهم مقتلا هو حسان ابن ثابت ، لأنه كان — فى رأيى — متمرغا لمثل هذا اللون من الشعر ، فلم يحضر المعارك العسكرية ، ولم يشهد تلك الوقائع التى صال فيها المسلمون وجالوا ، أما كعب بن مالك فلم يكن يحرص على هذا اللون كثيرا ، ولكنه نزع الى جانب آخر ، فتحدث عن المعارك الحربية حديث مشاهد لها ، مجرب لويلاتها خبير بضراوتها ، فذكر فرار المشركين وتخاذلهم أمام جند المسلمين،وهو جانب له وقعه على نفوس المشركين .

لقد تقدم هجاؤه لعبد الله بن الزبعرى الذى هجا المسلمين بعد غزوة أحد فقال له :

فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى
لكم طلب من آخر الليل متبع

فسل عنك فى عليا معد وغيرها
من الناس من أخزى مقاما وأشنع

ومن هو لم تترك له الحرب مفخرا
ومن خده يوم الكريهة أضرع

شددنا بحول الله والنصر شدة
عليكم وأطراف الأسنة شرع

تكر القنا فيكم كأن فروعها
عزالى مزاد ماؤها يتهرع

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٣ .

عمدنا الى أهل اللواء ومن يطر
بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع (١)

وهذا اللونمن الشعر غاب على شعر كعب بنمالكالأنصارى،وأصبح السمة البارزة فى شعره ، أما الهجاء بالمثالب ، والسب والشتم فقد أتى فى شعر كعب عرضا كقوله :

جاءت سخينة كى تغالب ربها   فليغلبن مغـالب الغلاب

وكقـوله :

ولم نجعل تجارتنا اشتراء الـــحمير لأرض دوس أو مراد

وهو هجاء يغلب عليه جانب السـخرية والتعيير بصـفات عامة ، فسخينة لقب لقريش عيرت به فى الجاهلية ـــ كما تقدم ـــ وتعييرهمببيع الحمير لدوس ومراد ـــ أيضا ـــ من الصفات التى يشـترك فيها جميع القرشـيين •

واذا ذهبنا نتعرف موقف كعب من شعراء عصره الذين ناصـبوه العـداء ، وحاولوا التقليـل من قوة المسـلمين ، وثباتهم أمام جحافل المشركين فاننا نرى كعب بن مالك يرد عليهم حججهم ، وينقض قضاياهم، ويظهر ما قام به المسلمون من جهاد وثبات أمام أعدائهم ، وكان كعب فى ذلك واقعيا يصدر شعره عن ايمان بالله ، ويقين بنصره الذى وعد •

والمتتبع لشعر كعب يراه قد عارض ضرار بن الخطـاب وعبد الله ابن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب ، وكل هـذه المعارضـات يمكن أن تكشف لنا منهج الشاعر ، وتبين لنا عن أسلوبه الذى سلكه ، فعندما قال ضرار بن الخطاب يومبدر :

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٥ •

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غدا والدهر فيه بصـائر

أجابه كعب بن مالك فقال :

عجبت لأمر الله والله قـادر على ما أراد ليس لله قـاهر

ولقد عرضت — قبل ذلك — لمعانى القصيدتين،وأثبتمنهجالشاعرين فى قصيدتيهما فاذا ذهبنا نستنطق لغة الشاعرين فاننا نجدكلا منهما قد استخدم اللغة التى تبين عن عقيدته ، وتكشف عن سريرته ، فقد تحدث ضرار عن فخر الأوس والخزرج ، وأن هذا الفخر فى نظره — لا مبرر له ، لأن الحرب سجال ، والأيام دول ، والحين دائر عليهم غدا ، واذا كانت هناك قتلى قد أصـيبوا ببدر فانهم تركوا وراءهم رجالا يأخذون بثأرهم ، وسيلتقون — عما قريب — بالأوس والخزرج وسينزلون بهم هزيمة تشفى نفوسهم ، وتترك قتلاهم عرضة للطير التى اجتمعت تنتظر ذلك ، ثم تحدث عن أولئك الرجال الذينكانوا سببا لهذا النصر ، وأنهم من سادات قريش وعظمائها ، لا من الأوس والخزرج •

أما كعب بن مالك فقد اسـتخدم اللغـة التى تجعل السـامع يدرك أمارات الايمان لائحة ، ودلائل اليقين واضحة ، فقد عزى النصر الذى وقع لهم فى بدر لله — سبحانه وتعالى — ثم استخدم الكلمات التى نظهر قوة المشركين ، حتى يعلم القـارىء أنهم لم ينتصروا على قوم أغرار ، أو شراذم متناثرة ، وانما انتصروا على هذا الحشد الحاشد الذىجمعه المشركون ، وأعدوا له عدته وكانوا بذلك يريدون القضاء على الاسـلام والمسلمين ، ثم يذكر موقف المسلمين ووقوفهم خلف رسولاللهكما قال:

فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صـابر

ثم يذكر قتلى المشركين واصفا كل واحد منهم بصفته الملازمة له •

وهكذا يقدم كعب نقيضته لضرار بن الخطاب فى لغة سهلة ميسرة

لا تعقيد فيها ولا غموض ، ولكنها مفعمة بالايمـــان بالله ، حافلة بتلك الكلمات التى تنم عن ثقة بنصر الله ، وهذا ما جعلها تدمغ حجج الخصم، وتقطع عليه كل سبيل •

ولقد ذكرت فى فصل ســابق قوله فى غزوة أحــد يجيب عبد الله ابن الزبعرى :

فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى   لكم طلب من آخر الليــل متبع

ولقد أوضحت استخدامه للكلمات الدالة على الأسى والحزن دون أن يجعل ذلك الحزن يسيطر على قلوب المسلمين ، فذكرهم بما صنعوه بالمشركين فى بدر • حتى يشد من عضدهم ، ويقوى من سواعدهم •

وعندما قال عبد الله بن الزبعرى فى يوم الخندق :

حتى الديار محا معارف رسمها   طول البلى وتراوح الأحقاب

أجابه كعب بن مالك بقوله :

أبقى لنا حدث الحروب بقية   من خير نحلة ربنا الوهاب

والقارىء للقصيدتين يتبين منهما منهج كل من الشاعرين فى هجائه، ويدرك المعـــانى التى أتى بها كل منهما ليقيم منهجــه فى صدق عاطفى ووجدانى ، ثم استخدم كل منهما للغة تناصر هدفه ، وتؤازر قضيته ، وارجع الى القصيدتين فى تحليلنا لهما أو فى سيرة ابن هشام كى تتبين منهما ما قررناه •

واليك بعض أبيات القصيدتين ، حتى تكون الصورة واضحة لديك، فبينا يقول ابن الزبعرى :

واذكر بلاء معاشر واشــكرهم
ساروا بأجمعهم من الأنصـــاب

أنصــاب مكة عامــدين ليثرب
في ذى غياطل جحفل جيجاب
يدع الحزون مناهجــا معلومة
في كل نشر ظــاهر وشــعاب
فيها الجياد شــوازب مجنونة
قب البطون لواحــق الأقراب

ثم يقول :

حتى اذا وردوا المدينة وارتدوا
للمــوت كل مجرب قضـــــاب
شــهرا وعشرا قاهرين محمــدا
وصحابه في الحرب خير صحاب
نادوا برحلهم صــــبيحة قلتم
كدنا نكون بها مع الخيـــــاب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم
قتلى لطــــير ســغب وذئاب

فيجيبه كعب بن مالك بقوله :

وأغــر أزرق في القنـــــاة كأنه
في طخية الظلماء ضوء شــهاب
وكتيبــــة ينفى القران قتــيرها
وترد حــد قواحذ النشــــاب

ثم يقول :

أعيت أبا كرب وأعيت تبعـــــا
وأبت بســــالتها على الأعراب
ومواعظ من ربنا نهــدى بهـــا
بلســــان أزهر طيب الأثواب

عرضت علينا فاشـــتهينا ذكرها
من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكمـــا يراها المجرمون بزعمهم
حرجا ويفهمهـــا ذوو الألبـــاب
جاءت سخينة كى تغـــالب ربها
فليغلبن مغـــــالب الغـــــلاب

ولولا خشية الاطالة لعرضنا لكثير من تلك القصـــائد التى قيلت فى هذه الفترة من فترات الصراع الدائر بين المسلمين والمشركين ، ولكن طبيعة البحث تقتضينا أن نعرض نمـــاذج فقط ، حتى يتبين القارىء من خلالها مدى ما وفق فيه كل من شعراء المســـلمين ، وشـــعراء المشركين للدفاع عن قضيتهم وعن غايتهم ،ولعل القارىء لهذا الشعر فى الســـيرة النبوية ، وفى كتابات الكتاب المحـــدثين (١) يدرك أن الحـــق أبلج ، وأن الباطل لجلج ، وأن صوت الحق لابد أن يعلو صـــيحات الباطل ، وأن النصر من عند الله يهبـــه من يشـــاء من عباده « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

---

(١) كتب الأستاذ أحمد الشايب : تاريخ النقائض فى الشعر العربى ط ونشر مكتبة النهضـــة العربية ، وكتب الأســـتاذ الدكتور حســـن أحمد الكبير . النقائض فى عهد البعثة المحمدية ط ١٩٨٤ .

الخـــــاتمة

من الحقائق التى لا تقبل الجدل أن الانسان كلما كتب شيئا ، أو عالج قضية فانه يحتاج بعد الانتهاء من عمله الى اضـــافة شىء أو حذف آخر ، بل انه يقول لو أنى كتبت كذا لكان أحســـــن ، ولو أنى عالجت الأمر بأسلوب آخر لكان يستحسن ، وهذا أمر فطر عليـــه الانسان ، ولا تبديل لخلق الله .

لقد عرضت لى هذه الحقيقة عندما أنهيت الحديث عن كعب بن مالك الأنصارى الشاعر المجاهد الذى كان من السباقين الى اعتنـــاق الدعوة الاسلامية والدفاع عنها بسيفه وقلمه ، فبعد طول دراسة وتمحيص لما كتب عن كعب بن مالك فى مصادر التراث وكتب التـــــاريخ الأدبى والاسلامى رأيت أن أنهج فى تقديمه القراء منهجا يلمس الجـــوانب التى أثرت فى تكوين شخصيته ، وفى فهم شعره ، وقصدت من خـــلال ذلك أن أجعل القارىء يقف على شعر كعب الذى دافع به عن الدعوة الاسلامية فى فترة كانت الدعوة تتطلع الى رجال أشداء يؤدون دورهم بعزيمة لا تعرف التردد وبايمان يمتلك عليهم كل أحاسيسهم ومشاعرهم ، فينطلقون لنصرة الدعوة واضعين أمام أعينهم قوله تعـــالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الآية ٣ من سورة الأحزاب) .

كان كعب بن مالك واحدا من أولئك الرجال الذين آمنوا بالله ، ودافعوا عن الرسالة فأرسلوا سهامهم ، لتصيب من المشركين مقتلا ، ولتنال منهم ، لأنهم حاولوا رمى المسلمين بنقائص هم منها براء .

وبعد معاناة وجهد بذلتهما فى البحث والتبويب والترتيب ، فقد عرضت لبيئة المدينة المنورة التى نشأ فيها كعب ، والتى أثرت فى تكوين

شخصيته فخلقت منه فارسا ، مقداما وشاعرا مجيدا ، وعرضت لنسبه وبلائه فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ووضعت توصيفا مجملا لأغـراض شعره ، ثم قمت بتحليل متأن لشعره الذى سجل فيه غزوات الرسـول — صلى الله عليه وسلم — ، أو الذى أبرز فيه بطـولات المسلمين ، وعظمتهم فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية أو ذلك الشعر الذى رثى به شهداء تلك الغزوات ، وهو جانب فى شعر كعب له جماله وجـلاله ثم وضعت هذا الشعر وغيره من شعر قيل فى هذه الفترة فى ميزان النقـد الأدبى ، فأبنت رسالة الشعر ، وموقف الاسلام من هؤلاء الشـعراء وغيرهم من شعراء المشركين ، وأثر القرآن فى منهج الشـعراء الذين تمثلوا تعـاليمه ، وتأثروا بألفاظه ، ثم عرضـت لنموذج كعب بن مالك الشعرى ومكان شعره بين شعراء عصره .

بعـد كل ذلك أخذت أقـدم رجلا وأؤخر أخرى — كما يقولون ، ولكننى استخرت الله — تعالى — وأقدمت على طبع هذا الكتاب واضعا نصب عينى تلك الحقيقة التى تقول : ان الكمال لله وحده وان ما قصر فيه هذا البحث ستكمله مسيرة الدراسات الأدبية والنقـدية واذا كان العلماء القدامى والمحدثون قد أسهموا فى تقديم ذلك التراث — تبويبا — وترتيبا وعرضا فان هناك جوانب كثيرة يمكن للدارسين المعاصرين أن يسلكوا سبيلها ، وأن يدأبوا على تجليتها ، وكشف ما غمض منهـا ، وخاصـة بيان ما آداه ذلك التراث من دور رائد فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، ويكون ذلك عن طريق العرض لشعر هؤلاء الشـعراء وتحليله تحليلا يجعل القارىء المعاصر يقف على قيمة هـذا التراث الفنية ورسالته الجمالية والسلوكية ، وهو دور سيسجل اهم فى سجل الخـالدين .

دكتور عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بالمنوفية

أهم مصادر البحث ومراجعه

ابن الأثير ، على بن محمد الجزرى المعروف بعز الدين بن الأثير

١ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة • ط الشعب •

ــ ابن الأثير : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بضياء الدين بن الأثير •

٢ ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : تحقيق : د• أحمد الحوفى ، د• بدوى طبانة • ط دار نهضة مصر •

ــ ابن رشيق القيروانى •

٣ ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الأولى ١٩٣٤ والطبعة الخامسة ١٩٨١ م •

ــ ابن سلام الجمحى •

٤ ــ طبقات فحول الشعراء : تحقيق محمود محمد شاكر • مطبعة المدنى بالقاهرة •

ــ ابن قتيبة •

٥ ــ الشعر والشعراء : تحقيق أحمد محمد شاكر • ط دار المعارف•

ــ ابن هشام •

٦ ــ السيرة النبوية • ط الحلبى •

ــ أبو الفرج الأصفهانى •

٧ ــ الأغانى • ط التراث الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

ــ أبو زيد القرشى •

٨ ــ جمهرة أشعار العرب : تحقيق على محمد البجاوى • ط دار نهضة مصر •

ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ •

٩ ــ كتاب الحيوان : تحقيق عبد السلام محمد هارون • ط الحلبى•

ــ أحمد أمين •

١٠ ــ ظهر الاسلام : ط دار الكتاب العربى اللبنانى • بيروت لبنان•

— أحمد الشايب .
١١ — تاريخ النقائض فى الشعر العربى . مكتبة النهضة المصرية .
— أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى .
١٢ — فتوح البلدان : نشرة صلاح الدين المنجد . مكتبة النهضة المصرية
— د. احسان عباس .
١٣ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب . دار الثقافة بيروت لبنان .
١٤ — تفسير القرطبى . ط الشعب .
١٥ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن : تحقيق محمد خلف الله — د. محمد زغلول سلام . ط دار المعارف .
١٦ — ديوان الأعشى : تحقيق فوزى عطوى . ط دار صعب بيروت.
١٧ — ديوان الحطيئة : جمعه — أحمد بن الأمين الشنقيطى مطبعة التقدم .
١٨ — ديوان البحترى : تحقيق حسن كامل الصيرفى . ط دار المعارف
١٩ — ديوان امرىء القيس . ط دار المعارف .
٢٠ — ديوان كعب بن مالك الأنصارى . ط بغداد .
— د. شوقى ضيف .
٢١ — الشعر والغناء فى المدينة ومكة . ط دار المعارف .
٢٢ — العصر الاسلامى . ط دار المعارف .
٢٣ — فصول فى الشعر ونقده . ط دار المعارف .
٢٤ — شرح المعلقات السبع . ط دار الجيل بيروت لبنان .
— طه أحمد ابراهيم .
٢٥ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب حتى القرن الرابع الهجرى . ط دار الحكمة بيروت .
— عباس حسن .
٢٦ — الأصول الفنية للأدب . مكتبة الانجلو المصرية .

ــ د. عبد الجبار المطلبى .
٢٧ ــ مواقف فى الأدب والنقد . دار رشيد . العراق .
ــ د. عبد الرحمن عثمان .
٢٨ ــ مواقف النقد وقضاياه . ط القاهرة .
ــ د. عبد الفتاح على عفيفى .
٢٩ ــ عمود الشعر العربى فى ميزان النقد الأدبى . مطبعة السعادة بمصر
ــ الامام عبد القاهر الجرجانى .
٣٠ ــ دلائل الاعجاز : تحقيق محمود محمد شاكر . ط الخانجى بمصر
ــ كارل بروكلمان .
٣١ ــ تاريخ الأدب العربى : ترجمة عبد الحليم النجار . ط دار المعارف
ــ محمد بن يوسف الصالحى .
٣٢ ــ سبل الهدى والرشاد : تحقيق ابراهيم الترزى ، وعبد الكريم العزباوى . ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
ــ د. محمد غنيمى هلال .
٣٣ ــ النقد الأدبى الحديث . ط الشعب .
٣٤ ــ دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده . ط دار نهضة مصر
ــ مصطفى عبد اللطيف السحرتى .
٣٥ ــ دراسات نقدية . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .
ــ المفضل بن محمد بن يعلى الضبى .
٣٦ ــ المفضليات : تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون . ط دار المعارف .
ــ د. ناصر الدين الأسد .
٣٧ ــ مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية . ط دار المعارف .
ــ نجيب محمد البهبيتى .
٣٨ ــ تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى . ط دار الكتب المصرية .

فهـــرس الكتـــاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٢٧١٠